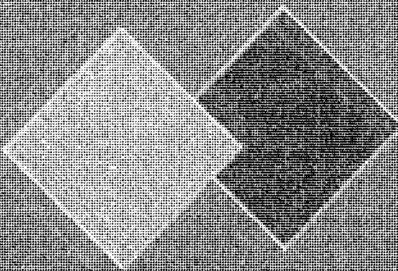
الدكتور [illegible] جودت فرج

البرامكة

سلبياتهم وإيجابياتهم



دار الفكر اللبناني

البرامكة

سلبياتهم وإيجابياتهم

الدكتور هولو جودت فرج

البرامكة

سلبياتهم وإيجابياتهم

دار الفكر اللبناني
بيروت

دار الفكر اللبناني

للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - تجاه علوة بسول
هاتف: ٢١١٥٧٨ - ٨٦٣٣٩٣
ص.ب: ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس: DAFKLB 23648 LE - بيروت. لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٠

الإهداء

إلى الذي أبداني بأفوله . .

وأكَّدني بتلاشيه،

إلى والدي

أهدي هذا الكتاب

هولو جودت فرج

١/١/١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يجري الزمان نهراً سرمدياً وإذا بكل آتٍ حاضر فماضي. عندما تنتفخ جعبة الماضي يطيب للمرء نبشها واستعراض ما فيها، فإن اكتفى بالانفعال فهو مجرَّد متذكِّر، وأما إذا رتَّب وقارن وميَّز العلل من النتائج وعلم أنَّ العلة هي نتيجة أيضاً حتى تستقيم لديه سلسلة تترابط حلقاتها بالضرورة فهو مؤرِّخ يتهيَّأ لأن يستنبط من الأمس آتياً.

وكثيرون هم الذين تفرَّغوا لاستعراض ماضي الأمم متلذِّذين وهم يحسبون جهودهم من صلب علم التاريخ غافلين أنَّهم مجرَّد متذكرين وأن أعمالهم قد يصحّ اعتبارها خامات للتاريخ لكنها ليست من صميمه كعلم يحلل ويعلل مسهماً في كشف درب المسيرة الكبرى على ضوء قوانين مسيرة الماضي.

لنأخذ ما أُسمي تاريخاً للأمة العربية مثلاً، فماذا نجد؟ نجد عشرات البؤر الحالكة المستعصية على الفهم والاستيعاب، نجدها تقف عائقاً في وجه التحليل العلمي وكأنها مجموعة من الأعراض حدثت اتفاقاً وكان بالإمكان أن لا تحدث وليشرب التفكير العلمي البحر. كل ذلك بفضل من تصدّوا لكتابة تاريخنا بحافز الذكرى وليس بحافز التأريخ.

لنأخذ قضية البرامكة، وهي واحدة من عشرات القضايا، فماذا نرى؟ نرى أنها لا تزال مشكلة شائكة برغم مئات الأسفار الضخمة التي تعرَّضت لحلِّها قديماً، وبرغم مئات البحوث التي تناولتها بالترويض في العصر الحديث. لماذا؟ لأن الذين

كتبوا عنها قديماً وحديثاً كانوا منفعلين ولم يكونوا فاعلين ففاتهم أن معاصِر الحـدث غالباً ما يكون جـزءاً من الحدث والأحـداث لا تدرس نفسهـا. فاتهم أن يميـزوا بين الرشيد الإنسان الذي قد يندم على ظلمـه أباه في التـربية فيؤخـذ عليه نـدمه؛ وبين الرشيد رجل الدولة الذي لا يهمه أن يكون خلوقاً على الصعيد الفردي بقدر ما يهمه بقاء أُسس دولة الخلافة نامية الرسوخ، فـاتهم أنه لا تنـاقض بين أن يكون البـرامكة جزءاً من الحضارة العربية بعدما نُكبوا، وبين أن يكونوا خطراً عليها فيما لو لم يُنكبوا وكانت لهم تلك المآرب التي تحدَّث عنها المتوجسون.

من هنا جاءت هذه المحاولة المتواضعة التي قد تكـون يراعـاً ضئيلاً في وجـه ظلام دامس، ولكنها على كل حال من جنس النـور، ولا أزعم لنفسي الفضل الأول باختيار البرامكة موضوعـاً، فالفضـل في غالبيتـه عائـد إلى أستاذي البـاحث الكبير، الأب الدكتور ج. م. فييه، الذي تفضَّل برعاية عملي وتسـديد خـطاي الرخصـة في طريق البحث التاريخي الأصيل.

الـكـاتـب

مقدمة

أصل البرامكة

إن أصل الأسرة البرمكية[1] من المواضيع التي حيكت حولها الروايات التي تميَّزت بطابع شبه أسطوري، فقد ذكر أن هذه الأسرة كانت من «بيوتات بلخ»، وكان جدهم برمك[2] من مجوس بلخ (في الأفغان اليوم)، وكان يخدم النوبهار. واشترك برمك وبنوه بسدانته، وكان برمك عظيم المقدار عندهم[3].

والنوبهار، كما ذكر ابن خلكان[4]، معبد كان للمجوس بمدينة بلخ تُوقَد فيه النيران. وروي المسعودي[5] أنَّ النوبهار بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي سدانته تعظِّمه الملوك في ذلك الصقع وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه وتُحْمَل إليه الأموال وكانت عليه وقوف، وكان الموكل بسدانته يُدعى البرمك وهذا سِمة عامة لكل من وُلِّيَ سدانته.. ومن أجل ذلك سُميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت، وكان بنيان هذا

---

(١) لا بد من التطرُّق إلى أصل البرامكة بصورة موجزة، لأن أصلهم خارج موضوع البحث الأساسي، علماً بأن هناك دراسات كثيرة تعرَّضت لهذا الموضوع.

(٢) ذكر ابن الطقطقي، أن خالداً هو جد البرامكة: ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٥٦.

(٣) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١٠٤؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢١٩؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٣٦.

(٤) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢١٩.

(٥) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٣٨١ ــ ٣٨٢.

البيت من أعلى البنيان تشييداً، وكانت تُنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الخضر، طول الشقة مائة ذراع فما دونها. وقد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوّة الريح ما عليها من الحرير. فيقال ـ والله أعلم ـ إنَّ الريح خطفت يوماً بعض تلك الشقاق ورمت به فأصيب على مسافة خمسين فرسخاً، وقيل أكثر من تلك المسافة، وذلك يدل على ذهابه في الجو وتشييد بنيانه وكان الحيز المحيط بهذا البنيان أميالاً لم نذكره، إذ كان أمر ذلك مشهوراً من وصف علو السور وعرضه.

أمّا ياقوت[1]، فقد ذكر في كتابه «معجم البلدان»، عن لسان عمر بن الأزرق الكرماني، أنه قال: كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ مثل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان فوصفت لهم مكة وحال الكعبة بها وما كانت قريش ومن والاها من العرب يأتون إليها ويعظّمونها فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام، ونصبوا حوله الأصنام وزيّنوه بالديباج والحرير وعلّقوا عليه الجواهر النفيسة.

وتفسير النوبهار: البهار الجديد، لأن نو الجديد وكانت سنّتهم إذا بنوا بناءً حسناً أو عقدوا باباً جديداً أو طاقاً شريفاً كلّلوه بالريحان وتوخّوا لذلك أول ريحان يطلع في ذلك الوقت، فلمّا بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان وكان البهار فسمي نوبهار لذلك.

وكانت الفرس تعظّمه وتحجُّ إليه وتهدي له وتُلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قبّته الأعلام، وكانوا يسمون قبته (الأوستن)، وكانت مائة ذراع في مثلها وارتفاعها فوق مائة ذراع بأروقة مستديرة حولها، وكان حول البيت ثلثمائة وستون مقصورة يسكنها خدّامه وقوامه وسَدَنته، وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود إلى الخدمة حولاً كاملاً، ويقال إنَّ الريح ربما حملت الحرير من العَلَم الذي فوق القبة فتلقيه بترمذ وبينهما اثنا عشر فرسخاً، وكانوا يسمون السادن الأكبر برمك لتشبيههم البيت بمكة يسمون سادنه برمكه، فكان كل

(١) ياقوت: معجم البلدان م ٥ ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨.

من وُلي منهم السدانة برمكاً، وكانت ملوك الهند والصين وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج إلى هذا البيت وكانت سنّتهم إذا هم وافوه أن يسجدوا للصنم الأكبر ويقبّلوا يد برمك. وجعلوا للبرمك ما حول النوبهار من الأرضين سبعة فراسخ في مثلها وجميع أهل ذلك الرستاق عبيد له يحكم فيهم بما يريد، وصيَّروا للبيت وقوفاً كثيرة وضياعاً عظيمة سوى ما يحمل إليه من الهدايا التي تتجاوز الحد، وكل ذلك يصل إلى برمك[1] الذي يكون عليه، فلم يزل يليه برمك بعد برمك إلى أن افتتحت خراسان في أيام عثمان بن عفان وانتهت السدانة إلى برمك، فسار إلى عثمان مع رهائن كانوا ضمنوا مالاً عن البلد، ثم إنه رغب في الإسلام فأسلم وسُمِّي عبد الله ورجع إلى أهله وولده وبلده فأنكروا إسلامه، وجعلوا بعض ولده مكانه برمكاً فكتب إليه نيزك طرخان[2]، أحد الملوك، يعظم ما أتاه من الإسلام ويدعوه إلى الرجوع إلى دين آبائه، فأجابه برمك: إني إنما دخلت في هذا الدين اختياراً وعلماً بفضله من غير رهبة ولم أكن لأرجع إلى دين بادي العوار مهتك الأستار.

فغضب نيزك وزحف إلى برمك في جمع كثير، فكتب إليه برمك: قد عرفتَ حبي للسلامة وإني قد استنجدت الملوك فأنجدوني، فاصرف عني أعنّة خيلك وإلّا حملتني على لقائك، فانصرف عنه ثم استغرّه وبيته فقتله وعشرة بنين له، فلم يبقَ له سوى طفل، وهو برمك أبو خالد، فإن أمه هربت به وكان صغيراً إلى بلاد القشمير من بلاد الهند، فنشأ هناك وتعلَّم علم الطب والنجوم وأنواعاً من الحكمة وهو على دين آبائه ثم إن أهل بلاده أصابهم طاعون ووباء فتشاءموا بمفارقة دينهم ودخولهم في الإسلام، فكتبوا إلى برمك حتى قدم عليهم، فأجلسوه في مكان

---

(1) يقول ياقوت في حديثه عن «راون»: إنها بُليدة من نواحي طخارستان شرقي بلخ، ليست بالكبيرة، كانت ليحيى بن خالد بن برمك، كثيرُة الخير؛ ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠.

(2) ذكر الطبري في حوادث سنة ٩٠هـ (٧٠٩م) أنَّ نيزك صلَّى في النوبهار وتبرَّك به: الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٤٦.

آبائه وتولّى النوبهار، ثم تزوج برمك بنت ملك الصغانيان فولدت له الحسن وبه كان يُكنّى، وخالداً وعمراً وأختاً يقال لها أم خالد، وسليمان بن برمك أمه امرأةٌ من أهل بخارى، وكان ابن برمك وأم القاسم من امرأةٍ أخرى بخارية أيضاً. ولمّا فتح عبد الله بن عامر بن كريز خراسان أنفذ قيس بن الهيثم حتى قدم مدينة بلخ وقدم بين يديه عطاء ابن السائب فدخل بلخ وخرَّب النوبهار[1]، وقال بعض الشعراء بذكر نوبهار

أوحش النوبهار من بعد جعفر	ولقد كان بالبرامك يعمر
قل ليحيى: أين الكهانة والسحـ	ـر وأين النجوم عن قتل جعفر
أنسيت المقدار أم زاغت الشمـ	ـس عن الوقت حين قمت تقدّر

ويضيف الحموي عن لسان أبو بكر الصولي، فيقول: كان برمك يعمِّر النوبهار ويقوم به، وهو اسم لبيت النار الذي كان ببلخ يعظم قدره بذلك، فصار ابنه خالد بن برمك بعده، فقال أبو الهول الحميري يمدح الفضل بن الربيع ويهجو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي:

فضلان ضمهما اسم	وشتَّت الأخبار
آثار فضل الربيع	مساجد ومنار
وفضل يحيى ببلخ	آثاره النوبهار
وما سواه إذا ما	أثيرت الآثار
بيت يوحّد فيه	ويعبد الجبار
وبيت شرك وكفر	به تعظَّم نار

ويردد القزويني[2] باختصار ما ذكره الحموي، مشيراً إلى أن النوبهار هو أعظم بيت من بيوت الأصنام. ويوجز الحميري ما رواه المسعودي، واصفاً النوبهار بأنه بيت نار بناه منوشهر الهندي بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وأن على بابه

(١) هذا ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦.
(٢) القزويني: آثار البلاد ص ٣٣١.

«كتابة بـالفارسيـة: قال بيـوراسف: أبواب الملوك تحتـاج إلى خصال: عقـل وصبر ومال، وتحت هذه الكتابة مكتوب بالعربية: كذب بيوراسف، الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال ألا يلزم باب السلطان»[١].

وبينما يقول المقدسي إن البرامكة كانوا «ممن يقولـون البهار وبيت النـار»[٢]، فإن ابن الفقيه يقول: «إن نوبهار تعبد فيه الأوثان وليس بيتاً من بيوت النار»[٣].

نرى مما تقدَّم أن المقدسي والمسعودي وابن خلكان والحميـري يجعلون من معبد النوبهار بيتاً من بيوت النار، وأن ابن الفقيه والقزويني يجعـلان منه أحـد بيوت الأصنام، بينما ذكر ياقوت أن النوبهار بيت من بيوت الأصنام والنار في آن واحد.

وفي هذا الصدد يقول سوردال[٤] (Sourdel): إن مـا جاء في وصف النـوبهار عنـد الجغرافيين العـرب[٥]، لا يطابق مـا هـو معـروف عن هيكـل الفـار، بـل على العكس فإنه يذكِّر بالصفات المميزة لمعبد بـوذي كالـذي يشير إليـه البلاذري[٦] في المسند.

وفي القـرن السـابـع لميـلاد المسيـح زار هـذا المعبـد حـاج صيني يـدعى هـوان شـانـج (Hiuan-Tsange) ووصفـه في كتـاب اسمـه «ذكـريـات على البقـاع الشرقية[٧]، فقال: إن كلمة نوبهار التي من المستبعـد أن تكون كلمـة فارسيـة تعني «الـربيـع الجـديـد» كمـا يـزعم بعض الكتـاب[٨]، هي اسم مشتق من كلمتين

---

(١) الحميري: **كتاب الروض المعطار** ص ٥٨٤ ــ ٥٨٥.

(٢) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١٠٤.

(٣) ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان** ص ٣٢٢.

(٤) Sourdel: *Le Vizirat Abbaside* I. p. 130

(٥) أمثال: ياقوت: **معجم البلدان** ج ٥ ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨؛ القزويني: **آثار البلاد** ص ٣٣١ وغيرهم.

(٦) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ٦١٧ ــ ٦١٨.

(٧) — *Mémoires sur les contrées occidentales*, trad. Stanislas julien vol. I, p. 30 – 32.

(٨) يقصد بذلك ياقوت: **معجم البلدان** ج ٥ ص ٣٠٧.

سنسكريتيتين هما: «نفا» (Nuova) و «فهارا» (Vihari)، ومعناهما «المعبد الجديد»، إشارة إلى معبد بوذي. وهذا ما أشار إليه بارتولد (Barthold) في أحد أبحاثه عندما قال: «دون بذل عناء يظهر أن الأمر يتعلق، في الحقيقة بمعبد»[1].

والأحاديث التي تناولت نسب هذه الأسرة لم تقف عند هذا الحد، بل تعدَّت إلى أن بعض المصادر القديمة ترجع خالد بن برمك إلى أصل عربي، مستندة في ذلك إلى ما رواه الطبري في حديثه عن حملة قتيبة بن مسلم على الخارجين عن طاعته في بلخ عام ٨٦/٧٠٥، الذي جاء فيه: «وقد قيل إن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر في هذه السنة عن بلخ لأن بعضها كان منتقضاً عليه، وقد ناصب المسلمين، فحارب أهلها، فكان ممن سبى امرأة برمك أبي خالد بن برمك، وكان برمك على النوبهار، فصارت لعبد الله بن مسلم الذي يقال له الفقير أخي قتيبة بن مسلم، فوقع عليها وكان به شيء من الجذام. ثم إن أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة، فأمر قتيبة برد السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله بن مسلم: يا نازي إني علقت منك وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة فأوصى أن يلحق به ما في بطنها وردت إلى برمك»[2].

وقد انتقدت دائرة المعارف الإسلامية هذه الرواية، فقالت: إنها من وضع أبناء عبد الله بن قتيبة لتقريب البيت العربي من البرامكة أصحاب الحظوة عند الخلفاء.

وهذا التناقض في المصادر والمراجع لا يرشدنا إلى الجزم برأي محدَّد حول نسب هذه الأسرة، ولكن مهما يكن من أمر فإننا نقول: إن البرامكة أسرة فارسية عريقة ذات شأن عظيم، ينسبون إلى جدهم (برمك)، الذي كان رجلاً عالماً في الطب والتنجيم ومتولياً سدانة النوبهار ببلخ، وقد حظي الكثير من رجالها بمنزلة عالية عند الخلفاء العباسيين.

---

(١) — BARTHOLD, in EI'. S. *Baramakides.*

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٦ ص ٤٢٤ ــ ٤٢٥؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ** ج ٤ ص ٥٢٤.

وتدور الروايات العديدة حول تاريخ البرامكة في العهود الأولى للإسلام وحول اعتناقهم الدعوة وشهرتهم في العصر الأموي.

بعض الروايات لا تستطيع أن تجزم بإسلام برمك[١]، والبعض منها تذكر أن البرامكة كانوا على دين المجوس، ثم أسلم منهم من أسلم وحسن إسلامهم[٢]. وحسب البعض كان خالد الأول، الذي اعتنق الإسلام وتبعه أخواه الحسن وسليمان[٣]. وحسب البعض الآخر اعتنق برمك الدعوة منذ عهد الخليفة عثمان، وتعرض لعداوة طرخان ملك الترك[٤]، وأنه (أي برمك) عالج الأمير مسلمة بن عبد الملك وشفاه من مرض ألمَّ به[٥]، كما أنه كُلِّف من قبل الوالي أسد بن عبد الله بإعادة بناء مدينة بلخ التي كانت قد ضربت[٦].

وعلى الرغم من ذلك، فإننا ــ حسب رأي ل. بوفا (L. Bauvat) ــ لا نجرؤ على القول أن «برمك وابنه خالد، نظراً لمواهبهم ولغناهم، مارسا تأثيراً كبيراً في بلاط الخلفاء الأمويين»[٧].

ويبدو أن خالد بن برمك، الذي ولد في أيام الدولة الأموية سنة ٩٠/٧٠٩[٨]، وقد نشأ على الإسلام (يتبين ذلك من اسمه) حتى بلغ في الفصاحة مرحلة سامية، كما يبدو أنه كان في خدمة الدعوة العباسية[٩].

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢١٩.

(٢) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٧.

(٣) بوفا ص ٣٢ ــ ٣٣ عن Sourdel: *le Vizirat Abbaside* I, p. 132.

(٤) ياقوت: **معجم البلدان** ج ٥ ص ٣٠٨.

(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٦ص ٤٢٦.

(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٧ ص ٤١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ص ١٣٨.

(٧) Sourdel: *Le Vizirat Abbaside,* I,p. 132.

(٨) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٢

(٩) فروخ: **تجديد التاريخ** ص ١٧١.

ويبـدو أن اسم برمـك قد أطلق على أنـاس عـديـدين لا ينتمـون إلى الأسـرة البـرمكية، قـد يكون بعضهم من عتقـاء البرامكـة أو مواليهم، مثـل: المغنيّة دنـانير البرمكية، ومحمد بن الجهم البرمكي[1] (المترجم المشهور من اللغـة الفارسيـة إلى اللغة العربية)، والمنجِّم البرمكي الذي ذكره الـطبري[2] (في أخبـار سنة ١٦٣هـ)، وإبراهيم بن عمر البرمكي الذي ذكر بأن سلفـه كانـوا يسكنون قـرية تُسمى البـرمكية فنُسبـوا إليهـا[3]. وقـد جـاء في معجم البلدان[4] أنَّ لقب (البـرامكـة) أُطلق (على المحلة أو القرية) نسبة إلى آل برمك الوزراء ومنها كثير من الناس لا مجال لـذكرهم هنا.

* * *

(١) ابن النديم: **الفهرست** ص ٣٠٥.

(٢) الطبري: **التاريخ** ج ٨ ص ١٤٦ ــ ١٤٧.

(٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٦ ص ١٣٩.

(٤) ياقوت: **معجم البلدان** ج ١ ص ٣٦٧.

الفصل الأول

البرامكة في إطارهم السياسي

١ - خالد بن برمك

٢ - يحيى بن خالد

٣ - أبناء يحيى

البرامكة في إطارهم السياسي

جاء الإسلام فساوى النبي ﷺ بين جميع المسلمين على اختلاف جنسياتهم. وبعد وفاته اقتدى به الخلفاء الراشدون الذين اشتهروا بالزهد والتقوى والعدل، ولكن ما إن قبض الأمويون على الخلافة حتى تسلّطوا واستبدّوا وتسلّحوا بالكثير من الجاهلية التي حاول الإسلام تصفيتها، خصوصاً اعتمادهم على العصبية ـ إذ تعصّبوا للعرب واحتقروا غير العرب من الموالي وأهل الذمة ـ وتعصُّبهم هذا حمل الموالي (كان أكثرهم من الفرس) على نصرة كل ناقم على دولة بني أمية، فما إن قام بنو العباس لطلب الخلافة حتى أيّدهم الفرس ونصروهم في دعوتهم ـ التي ارتكزت على العداء للأمويين والموالاة لخط آل البيت ـ وسلّموا إليهم أزمَّة الخلافة بقيادة أبي مسلم الخراساني فأصبح الفرس أصحاب الدولة وحُماتها واستأثروا بشؤون الخلافة. . وأوصى الخلفاء بإكرامهم، وخير دليل على ذلك ما جاء في وصية المنصور لابنه المهدي، إذ خاطبه قائلاً: «وانظر مواليك فأحسن إليهم وقرِّبهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدة إن نَزَلَتْ بك، وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، وأن لا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مُسيئهم وتكافئهم عما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده، وما أظنك تفعل»[1]. فاستخدم الخلفاء رجال الفرس في بلاطهم وقدّموهم في مناصب الدولة، منهم الوزراء والعمال والكتّاب وغير ذلك.

وترقّى الفرس إلى أعلى المراتب عند العباسيين في أيام البرامكة، حيث تولوا الوزارة التي كانت تعتبر من أعلى المناصب. وأول من اتصل بالعباسيين من البرامكة هو خالد بن برمك، الذي نبغت الدولة البرمكية في أيامه وامتدت إلى أن انقضت في أيام الرشيد[2].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٩.

(٢) ابن الطقطقي: الفخر في الآداب السلطانية ص ١٥٦.



خالد بن برمك

كان خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية، فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يقظاً[1]، لمع اسمه عندما أظهر بسالة وبراعة حربية في قيادته لبعض الجيوش الخراسانية تحت لواء أبي مسلم[2]، ونظّم الخراج وتقلّد الغنائم وقسمها في جيش قحطبة بن شبيب قائد أبي مسلم الخراساني[3].

---

(١) ابن الطقطقي: **الفخر في الآداب السلطانية** ص ١٥٦.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٧ ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٣٨٦.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتّاب** ص ٨٧. ولم يكن خالد مع قحطبة يتولّى الخراج ويقسم الغنائم بين الجند فحسب، ولكنه كان ذا رأي مطاع لخبرته وفطنته وذكائه. فقد روى الجاحظ أن خالد بن برمك بينما هو على سطح من سطوح القرى مع قحطبة وهم يتغدون وذلك في بعض منازلهم حين فصلوا من خراسان إلى الجبل. قال: وبين قحطبة وبين الأعداء مسيرة أيامٍ وليالٍ، قال: فبينما خالد يتغدّى معه وذلك حين نزلوا وبهم كلال المسير وحين علقوا على دوابهم ونصبوا قدورهم وقربوا سفرهم، قال: فنظر خالد إلى الصحراء فرأى أقاطيع الظباء قد أقبلت من جهة الصحارى، حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة أيها الأمير! نادِ في الناس: «يا خيل الله اركبي»، فإن العدوّ قد حثّ إليك السير وغاية أصحابك أن يسرجوا ويلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل. فقام قحطبة مذعوراً، فلما لم يرَ شيئاً يروعه ولم يرَ غباراً، قال لخالد: ما هذا الرأي؟ قال: أيها الأمير لا تتشاغل بي وبكلامي، ونادِ في الناس. أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت فارقت مواضعها حتى خالطت الناس؟! إن وراءها جمعاً عظيماً! قال: فوالله ما ألجموا وأسرجوا حتى رأوا ساطع الغبار ولا تلمّسوا وتسلّحوا حتى رأوا الطليعة. فما التأموا حتى استوى أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم ولولا نظرة خالد بن برمك وفراسته. لقد كان ذلك =

وأرسل مع المسيب بن زهير إلى دير قنىّ لإدارة هذا الإقليم[1]، ثم أمره الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفّاح على ما كان يتقلّد من الغنائم. وجعل إليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند[2]. ويظهر أن خالد كان على علاقة وثيقة بأبي العبّاس السفّاح، فيُروى أنَّ أبو العبّاس قد دفع ابنته ريطة إلى خالد بن برمك حتى أرضعتها زوجته أم خالد بنت يزيد بلبان بنت لخالد تدعى أم يحيى، وأرضعت أم سلمة زوجة أبي العباس أم يحيى بنت خالد بلبان ابنتها ريطة[3].

وقد قال أبو العباس يوماً لخالد بن برمك: لم ترضَ بابن برمك حتى استعبدتني! فوجم من ذلك وقال: أنا عبد أمير المؤمنين. فقال له: كانت ريطة وأم يحيى في فراش واحد فتكشّفتا فرددت عليهما اللحاف، فقبّل يده وشكر له[4]. وبعد مقتل حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد، استوزر السفاح خالد بن برمك[5]، وقد حلَّ محل الوزير[6]، وبذلك يكون خالد جد البرامكة[7] أول من وُزِّر من آل برمك[8]، وكان له شقيقان: الحسن وسليمان، أبناء برمك، ولم يرد ذكر لهما في المصادر[9]. وقيل إن كل من استوزر بعد أبي سلمة

= الجيش اصطلم. الجاحظ: **الحيوان** ج ٤ ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤؛ ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٢ ص ١١٧؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٨٨؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٠.

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٧ ص ٤١٩؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٤٠٦.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٨٩.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٦ ص ١٨؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٨٩.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٨٩؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ١٥٦ ــ ١٥٧.

(٥) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢١٩ ــ ٢٢٠؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٥٦؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٣٦.

(٦) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٨٩.

(٧) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٥٦.

(٨) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٢.

(٩) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٥٦.

كان يتجنَّب أن يُسمى وزيراً تطيراً مما جرى على أبـي سلمة، ولقول مَن قال:

إن الـوزيـر وزيـر آل مـحـمـد أودى فـمن يـشـنـاك كـان وزيـراً[1]

واتصلت وزارة خـالـد في عهـد المنصـور حيث ولّاه على الـري وطبـرستـان ودنباوند، فأقام بها سبـع سنين وكان مقام خالد بطبرستان[2] فأخمد نيران ثورة هـامة فيها، وذكر أن أهـل طبرستـان بعد هـذا الانتصار نقشـوا على دروعهم صورة خـالد وسلاحه[3].

ثم ولّاه المنصـور الموصـل بعد أن أشـار عليه بـذلـك المسيب بن زهيـر[4]، فأحسن خالد إلى الناس وقهر المفسدين وكفَّهم، وهابه أهـل البلد هيبة شـديدة مـع إحسانه إليهم[5]. وقد ذكر عن أحمد بن محمد بن سوار الموصلي أنه قال: «ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى فيه جبرية ولكن هيبة كانت له في صدورنا»[6].

---

(١) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٥٦، وقد ذكر اليعقوبي في «تاريخه» بأن سليمان بن مهاجر قال هذا البيت لمّا قتـل أبو سلمـة: اليعقوبـي: **تـاريـخ** م ٢ ص ٣٥٢ ــ ٣٥٣.
وقد صوَّر التنوخي هذه الحالة، (أي تجنُّب اسم الوزير) في كتابه «**نشوار المحاضرة**» عندما ذكر عن ابن عياش أنه «رأى في شارع الخلد قـرداً معلّماً يجتمـع عليـه، فيقول لـه القرّاد: تشتهي أن تكـون بزازاً؟ فيقـول: نعم، ويـومي بـرأسـه فيقـول: تشتهي أن تكـون عـطاراً؟ فيقول: نعم برأسه، فيعدد الصنائـع عليه، فيومي برأسه، فيقول لـه في آخرهـا: تشتهي أن تكون وزيراً؟ فيومي برأسـه ــ لا ــ ويصيـح ويعدو من بين يـدي القرّاد، فيضحـك الناس: التنوخي: **نشوار المحاضرة** ج ١ ص ٢٣٢.
(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٣٦.
(٣) ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان** ص ٣١٤.
(٤) الـطبري: **تـاريـخ** ج ٨ ص ٥٥؛ البيهقي: **المحـاسن والمسـاوىء** ص ٣٢٥؛ ابن الأثيـر: **الكامل** ج ٦ ص ١٦.
(٥) ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦.
(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٥٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٦.

وكان لخالد البرمكي يد عظيمة على المنصور في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ونقل البيعة للمهدي بن المنصور، فعندما عجز المنصور في عام ١٤٧هـ عن تنحية عيسى من ولاية العهد لمبايعة ابنه المهدي وجعله ولي عهد من بعده، استعان (أي المنصور) بخالد بن برمك لإقناع عيسى بالموافقة على البيعة. ويحدثنا الطبري عن ذلك في حوادث سنة سبع وأربعون ومائة، فيقول: أراد أبو جعفر أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ويقدم عليه المهدي، فأبى أن يجيبه إلى ذلك، وأعيا الأمر أبا جعفر فيه فبعث إلى خالد بن برمك فقال له: ظمّه يا خالد فقد ترى إقناعه من البيعة للمهدي وما قد تقدمنا به في أمره فهل عندك حيلة فيه قد أعيتنا وإياه الحيل، وضل عنا الرأي! فقال: نعم يا أمير المؤمنين تضم إليَّ ثلاثين رجلاً من كبار الشيعة مما تختاره. قال: فركب خالد بن برمك وركبوا معه، فساروا إلى عيسى بن موسى وأعطوه رسالة أبي جعفر المنصور، فقال: ما كنت لأخلع نفسي وقد جعل الله عز وجل الأمر لي، فأداره خالد بكل وجه من وجوه الحذر والطمع، فأبى عليه، فخرج خالد عنه وخرجت الشيعة بعده فقال لهم خالد: ما عندكم في أمره؟ قالوا: نبلغ أمير المؤمنين رسالته ونخبره بما كان منا ومنه. قال: لا، ولكنا نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب ونشهد عليه إن أنكره. قالوا له: إفعل، فإنا نفعل، فقال لهم: هذا هو الصواب، وأبلغ أمير المؤمنين فيما حاول وأراد.

فساروا إلى أبي جعفر وخالد معهم فأعلموه أنه قد أجاب فأَخرَج التوقيع بالبيعة للمهدي وكتب بذلك إلى الآفاق، قال: وأتى عيسى بن موسى لمّا بلغه الخبر أبا جعفر منكراً لما أُدُّعي عليه من الإجابة إلى تقديم المهدي على نفسه وذكره الله فيما قد همَّ به فدعاهم أبو جعفر، فسألهم، فقالوا: نشهد عليه أنه قد أجاب وليس له أن يرجع، فأمضى أبو جعفر الأمر وشكر لخالد ما كان منه، وكان المهدي يعرف ذلك له ويصف جزالة الرأي منه فيه[1].

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ١٩ ــ ٢٠؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٥٨٠.

وقد أبلى خالد بلاءً حسناً وهو في شيخوخته حين استولى في سنة ١٦٣هـ على (سمالو)، وهو أحد حصون الروم، إذ أرسله المهدي مع الرشيد حين وجهه لغزو الروم. ويخبرنا الطبري عن هذه المعركة في حوادث سنة ثلاث وستين ومائة، فيقول:

وجَّه المهدي خالد بن برمك مع الرشيد وهو ولي العهد حين وجَّهه لغزو الروم، وتوجَّه معه الحسن وسليمان ابنا برمك ووجَّه معه على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد ــ وكان أمر هارون كله إليه ــ وصيَّر الربيع الحاجب مع هارون يغزو عن المهدي، وكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك وكان يشاورهما ويعمل برأيهما ففتح الله عليهم فتوحاً كثيرة وأبلاهم في ذلك الوجه بلاء جميلاً، وكان لخالد في ذلك بسمالو أثر جميل لم يكن لأحد وكان منجمهم يسمى البرمكي تبركاً به ونظراً إليه[1]، وتوفي خالد في سنة ١٦٣هـ[2].

* * *

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ١٤٦ ــ ١٤٧؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٦٠ ــ ٦١.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٥١؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٢.

٢

يحيى بن خالد

بعد وفاة خالد بن برمك ظهر ابنه يحيى الذي كان سديداً صائب الآراء، حسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الأمور[١]. فقرّبه المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩هـ) إليه، وأصبحت العلاقة وثيقة بينهما بدليل أنه حين وُلد الفضل بن يحيى[٢] في سنة ١٤٨هـ قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام، أرضعت الخيزران الفضل من لبان ابنها فكان الفضل بن يحيى أخاً للرشيد من الرضاع[٣]، وفي ذلك يقول سلم الخاسر:

أصبح الفضل والخليفة هارو ... ن رضيعي لبان خير النساء[٤]

وقال مروان بن أبي حفصة:

---

(١) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٨.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٣٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٣٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٥٨٥، وقد ذكر الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٢ ص ٣٣٢؛ وابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٦ بأن ولادة الفضل بن يحيى كانت لسبع بقين من ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائة.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٣٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٣٦؛ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٢ ص ٣٣٤؛ وابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٧؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦.

(٤) ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٥٨٦.

كفى لك فخراً أن أفضل حرة   غذَّتك بثدي والخليفة واحد[1]

وفي السنة الثالثة من خلافته (أي في سنة ١٦١هـ) عهد المهدي إلى يحيى البرمكي تربية ابنه هارون وتأديبه[2]، وفي سنة ١٦٣هـ ولّى ابنه هارون المغرب كله وأذربيجان وأرمينية وجعل يحيى على ديوان رسائله[3].

وبعد وفاة المهدي تولّى الخلافة ابنه الهادي (١٦٩ ــ ١٧٠هـ)، فأبقى يحيى على وظائفه السابقة[4]. وخلال مدة حكمه القصيرة (حوالي السنة) حاول الهادي نقل ولاية العهد عن الرشيد إلى ابنه جعفر لتبقى الخلافة في نسله، وتابعه على ذلك القوّاد، منهم يزيد بن مزيد، وعبد الله بن مالك، وعلي بن عيسى ومن أشبههم، فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر بن موسى ودسّوا إلى الشيعة، فتكلّموا في أمره وتنقّصوه (كذا) في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر الهادي ألاّ يسار قدام الرشيد بحربه فاجتنبه الناس وتركوه، فلم يكن أحد يجترىء أن يسلِّم عليه ولا يقربه[5].

ولكن يحيى بن خالد لم يرضَ بهذه المبايعة، بل بقي على إخلاصه للرشيد وثبت في المحافظة على حقه في ولاية العهد. ولم يكتفِ بذلك، بل حرَّض الرشيد على عدم التنازل عن هذا الحق، فأخبر بعضهم الهادي بأنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن خالد، فابعث إلى يحيى وتهدّده بالقتل وآرمه بالكفر. فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى بن خالد[6].

---

(١) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٢ ص ٣٣٤؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠١ ــ ٢٠٢.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ١٤٠؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٥٦.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ١٤٨؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٦١.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ١٨٨.

(٥) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٠٧؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٩٦.

(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٠٨.

وذكر أبو حفص الكرماني أن محمد بن يحيى بن خالد حدَّثه، قال: بعث الهادي إلى يحيى ليلاً، فآيس من نفسه، وودَّع أهله، وتحنَّط وجدَّد ثيابه، ولم يشك أنه يقتله، فلما أُدخل عليه قال: يا يحيى ما لي ولك! قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه إلاَّ طاعته؟ قال: فَلِمَ تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليَّ! قال: يا أمير المؤمنين مَن أنا حتى أدخل بينكما! إنما صيَّرني المهدي معه وأمرني القيام بأمره فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك. قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده. قال: فسكن غضبه[1].

وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع، فقال له يحيى: لا تفعل، فقال: أليس يترك لي الهنيء المريء، فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي! وكان هارون يجد بأم هارون وجداً شديداً، فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع، ومنعه من الإجابة[2].

وقد حادث الهادي يحيى البرمكي في خلع الرشيد وإحلال ابنه جعفر مكانه، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته. قال: صدقت ونصحت[3].

غير أن الهادي لم يقبل بهذه النصيحة، بل رجع ثانية إلى فكرة تنحية أخاه عن ولاية العهد والمبايعة لابنه جعفر، فأحضر يحيى البرمكي وحبَسه وعزم على قتله. وفي هذا الصدد ذكر اليعقوبي[4] في «تاريخه»: أنَّ موسى الهادي أخذ

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٨؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٦.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٨.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٩؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٦ ــ ٩٧؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٠، مع تغيير طفيف في النص.

(٤) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٠٦.

يحيى بن برمك فحبسه وأشرف عليه بالقتل عدة مرات. ويضيف اليعقوبي قائلاً: حدَّثني بعض المشايخ عن يحيى بن خالد، قال: حبسني موسى بسبب الرشيد، وتربيتي إياه ومكاني معه، وكان الرشيد دفع إلينا مولوداً في الخرق فغذَّته ثدي نسائنا ورُبِّيَ في حجورنا، فقال: بلغني أنك ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة، والله لآتين على نفسه ونفسك قبل ذلك! وحبسني في بيت ضيِّق لا أقدر أن أمدَّ رجليَّ فيه، فأقمت أياماً، فأنا ليلة في حبسي على تلك الحال، إذ بالأبواب تُفتح، فقلت: تذكَّرني فأراد قتلي! وسمعت كلام الخدم فارتعت لذلك، ففتح عليَّ الباب وأنا أتشهَّد، فقيل لي: هذه السيدة، يعنون الخيزران، فخرجت فإذا بها واقفة على الباب، فقالت: إن هذا الرجل قد خفت منذ الليلة وأحسبه قد قضى فتعال وانظره! فازداد جزعي وطامتي، وقالت كما أقول، فجئت فوجدته محول الوجه إلى الحائط وقد قضى فمضيت إلى هارون حتى أخرجته من الموضع الذي كان فيه محبوساً فأصبح القواد فبايعوا وأصبحت أدبر الملك.

ويروي الطبري عن ذلك في أخبار سنة سبعين ومائة، فيقول: أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد على ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع إليه يحيى رقعة: إن عندي نصيحة. فدعا به، فقال: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر ــ أسأل ألَّا نبلغه وأن يقدمنا قبله ــ أتظن أنَّ الناس يسلِّمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم! قال: والله ما أظن ذلك، قال: يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليك أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك؟ فقال له: نبَّهتني يا يحيى ــ قال: وكان يقول: ما كلَّمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى ــ قال له: لو أن الأمر لم يُعقد لأخيك لما كان ينبغي أن تعقده له، فكيف بأن تحلّه عنه، وقد عقده المهدي له! ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر، وبلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده. قال: فقبل الهادي قوله ورأيه وأمر بإطلاقه[1].

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٧.

ولكن الهادي عزم على خلع هارون، فضيّق عليه وكاد أن يوفّق في مسعاه لولا نصيحة يحيى البرمكي للرشيد بالخروج إلى الصيد تهرُّباً من ضغوط أخيه حيث غاب مدة أربعين يوماً[1].

وجاء في الجهشياري[2]: أن الهادي بتحريض من قواد الجند ـ الذين طالبوه بخلع أخيه من ولاية العهد وبجعلها لابنه جعفر ـ دعا يحيى ذات ليلة وقال له: قد أفسدت على أخي، والله لأقتلنك: فقال إبراهيم بن ذكوان الحراني: يا أمير المؤمنين ليحيى عندي أياد أحبّ أن أكافئه عليها، فأحب أن تهبه لي الليلة. فقال: وما الدرك في هذا وأنا على قتله؟ قال: فتهبه لي الليلة وتحييه فيها وأنت في غد أعلم. فأجابه إلى ذلك وأمر بحبسه، ولكن الأقدار شاءت أن يتوفّى الهادي[3] في نفس تلك الليلة قبل تنفيذ مراده.

وجاء في الطبري[4]، في حوادث سنة سبعين ومائة، أنه لمّا اشتدّ مرض الهادي وثقل، اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه، فقالوا: إن صار الأمر إلى يحيى قتلنا ولم يستبْقِنا فتآمروا على أن يذهب بعضهم إلى يحيى بأمر الهادي فيُضرب عنقه، ثم قالوا: لعلَّ أمير المؤمنين يفيق من مرضه فما عذونا عنده! فأمسكوا. ثم بعثت الخيزران إلى يحيى تعلمه أنَّ الرجل لمآبه وتآمره بالاستعداد لما ينبغي وكانت المستولية على أمر الرشيد وتدبير الخلافة إلى أن هلك فأحضر

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢١٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٧ ـ ٩٨؛ المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٩٢.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) عن سبب وفاة الهادي يقول الطبري: حدَّثني بعض الهاشميين أنَّ سبب موت الهادي كان أنه لمّا جدَّ في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزران على هارون منه دسَّت إليه من جواربهما لمّا مرض من قتله بالغم والجلوس على وجهه ووجهت إلى يحيى بن خالد: أنَّ الرجل قد توفي فاجدد في أمرك ولا تقصِّر: الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٠٠.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢١٢؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٨ ـ ٩٩.

الكتاب وجمعوا في منزل الفضل بن يحيى فكتبوا لليلتهم كتباً من الرشيد إلى العمال بوفاة الهادي وأنهم قد ولّاهم الرشيد ما كانوا يلون. فلمّا مات الهادي أنفذوها على البرد.

وبعد وفاة الهادي الذي لم يَطُل عهده ــ إذ توفي بعد سنة واحدة من استلامه الحكم ــ تولّى أخوه الرشيد الخلافة من بعده، وكان يحيى أول من بشّره بها وسلّمه الخاتم وهو نائم[1]، وكانت ليلة يموت فيها خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة، وذلك في سنة سبعين ومائة[2]، وقد هنّأ الشاعر مروان بن أبي حفصة والدته الخيزران بالخلافة، فقال:

يا خيزران هَناك ثم هَناك   إن العباد يسوسهم إبناك[3]

ممّا تقدّم نرى أن الهادي لم يتمكن من تحقيق غايته في ولاية العهد، ويرجع الفضل في ذلك ــ كما لاحظنا ــ إلى يحيى البرمكي، الذي حاور الهادي مدافعاً عن حق الرشيد في ولاية العهد، متحمّلاً في سبيل ذلك العذاب القاسي والإيذاء الشديد. وكان لذلك المسعى وقع حسن في نفس الرشيد، إذ اعتبره من أعظم أيادي يحيى بن خالد عنده[4]. فالخليفة الجديد لم ينسَ جهود يحيى المضنية التي أوصلته إلى عرش الخلافة، بل عرف له حقه وكان يعظّمه وإذا ذكره قال: «أبي»، وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه[5]، وقلّده الوزارة قائلاً: «يا أبتِ، أنت

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٣؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٠٦؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٥

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢١٢؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٥؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ٧٨.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٢٣؛ السيوطي: **تاريخ الخلفاء** ص ٢٨٤؛ المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ١٨٦

(٤) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٩.

(٥) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٤ ص ١٢٩؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢١.

أجلستني في هذا المجلس بركتك ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلَّدتك الأمر ودفع خاتمه إليه»[1]. وبتوليه الوزارة توصَّل عدد من أفراد أسرته إلى أسمى الدرجات: إنها فترة السلطة البرمكية[2].

وروى الطبري[3] في حوادث سنة سبعين ومائة أنه في هذه السنة قلَّد الرشيد يحيى بن خالد الوزارة وقال له: «قد قلَّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامضِ الأمور على ما ترى. . ودفع إليَّ خاتمه». ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم ترَ أن الشمس كانت سقيمة	فلمَّا ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى	فهارون واليها ويحيى وزيرها[4]

وفي سنة ١٧٨هـ فوَّض الرشيد إلى يحيى البرمكي جميع أموره[5]: يفعل ما يريد، كل الأمور بيده، يعزل ويعيِّن، يجمع ويفرِّق كما يشاء.

وبذلك أصبح الوزير يحيى وكأنه الحاكم الفعلي الذي يتمتَّع بصلاحيات

---

(١) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ١٩٦؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢١؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٧، مع تغيير طفيف في النص.

(٢) الأصبهاني: **مقاتل الطالبيين** ص ٤١٢.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٠٧ ـ ١٠٨؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٧، مع تغيير طفيف في النص.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٠٨؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢١. وقد وردت هذه الأبيات في الأغاني على الشكل التالي:

ألم ترَ أن الشمس كانت مريضة	فلمّا ولّى هارون أشرق نورها
فألبست الدنيا جمالاً بوجهه	فهارون واليها ويحيى وزيرها

الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ٦٩؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ٧٨، مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ.

(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٥٤.

مطلقةً، فقام بإدارة أمور الحكم خير قيام، وسدَّ الثغور وجبى الأموال وأظهر رونق الخلافة[1]، فعظم شأنه وعمل برأيه. ففي تاريخ السيوطي قال: «رام الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز فتركه»[2]. وتوخّى الناس عطفه ورضاه، فهذا الشاعر إبراهيم بن سيابة يكتب إليه مستعطفاً لينال رضاه، لأنه كان قد أنكر منه شيئاً، فيقول:

«للأصيل الجواد، والواري الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشم الباذل، اللباب الحلاحل من المستكين المستجير، البائس الضرير، فإني أحمد الله ذا العزة القدير إليك وإلى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة:

أمّا بعد: فاغنم واسلم، واعلم إن كنت تعلم أنه من يَرحم يُرحم، ومن يَحرم يُحرم، ومن يحسن يغنم، ومن يصنع المعروف لا يُعدم، وقد سبق إليَّ، تغضبك عليَّ، واطِّراحك لي، وغفلتك عني، بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد، فلست بحي صحيح، ولا بميت مستريح، فررت بعد الله منك إليك، وتحمَّلت بك عليك، ولذلك قلت:

أسرعت بي حثاً بك خطائي	فأناخت بمذهب ذي رجاء
راغب راهب إليك يرجّى	منك عفواً عنه وفضل عطاء
ولعمري ما من أصرَّ ومن تا	ب مقراً بذنبه بسواء

فإن رأيت ـــ أراك الله ما تحب وأبقاك في خير ـــ أن لا تزهد فيما ترى من تضرُّعي وتخشُّعي وتذلُّلي، وتخضُّعي، فإن ذلك ليس مني بنحيزة ولا طبيعة، ولا على وجه تصنُّع ولا تجذُّع، ولكنه تذلُّل وتخشُّع وتضرُّع من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلّا لمن التضرُّع له عزّ ورفعة وشرف»[3].

(١) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٨.

(٢) السيوطي: **تاريخ الخلفاء** ص ٢٨٦؛ الحميري: **الروض المعطار** ص ٢٥٨.

(٣) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٣ ص ٤٩٣.

ولكن على الرغم من هذه المنزلة العظيمة التي وصل إليها يحيى، فإننا لا نستطيع أن نجزم عن المصادر التي بين أيدينا أن يحيى أشرف بنفسه على شؤون الدولة باعتباره وزيراً، وذلك لأن الرشيد خلال السنوات الأولى من حكمه ترك ــ في الواقع ــ ممارسة السلطة لأمه ولوصيه، إذ كان على يحيى أن يعرض شؤون الرعية على الخيزران أم الخليفة ويورد ويصدر عن أمرها[١]، لذلك فإذا ما لاحظنا بعض النصوص[٢] التي تشير إلى سلطة حكومية ليحيى موكلة بتفويض واضح من قبل الخليفة، فلا يبدو أن هذا التأكيد يطابق الحقيقة تماماً، وهذا القول يحملنا إلى التساؤل عن الصلاحيات التي كان يتمتّع بها يحيى.

في الواقع منذ البداية كان ليحيى إدارة الدواوين كلها مع الوزارة سوى ديوان الخاتم[٣]. وإذا صدَّقنا ما جاء في الطبري، فإن الختم كان موكلاً إلى جعفر بن محمد بن الأشعث[٤]، ثم في بداية سنة ١٧١هـ أخذه الرشيد منه ودفعه إلى أبي العباس بن سليمان الطوسي، العائد من خراسان[٥]، ثم لم يلبث أبو العباس يسيراً حتى توفي فعادت هذه الوظيفة إلى يحيى بن خالد الذي جمع، كما جاء في الطبري «الوزارتين»[٦].

وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرَّخ باسم يحيى بن خالد، ولم تكن تنفذ من قبل إلّا عن الخليفة[٧].

ومنذ أن تقلَّد يحيى بن خالد الوزارة ظهر ما سمّاه الفخري[٨] بدولة

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٤؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٠٨.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٣، ٢٥٦؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٧.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٧.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٥.

(٥) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٣٥.

(٦) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٣٥.

(٧) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٨.

(٨) ابن الطقطقي: الفخر في الآداب السلطانية ص ١٩٧.

بني برمك، التي عرَّفها بقوله: «إعلم أن هـذه الدولـة كانت غـرَّة في جبهة الـدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدُّت إليها الـرحال، ونيـطت بها الآمال، وبـذلت لها الـدنيا أفـلاذ أكبادهـا ومنحتها أوفـر إسعادهـا، فكان يحيى وبنوه كالنجـوم زاهرة، والبحـور زاخرة، والسيـول دافعة، والغيـوث ماطـرة، أسواق الأداب عنـدهم نافقـة، ومراتب ذوي الحـرمات عنـدهم عاليـة، والدنيـا في أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة.. وهم ملجـأ اللهيف، ومعتصم الطريـد، ولهم يقول أبو نواس:

سـلام على الـدنيـا إذا مـا نـقـدتم بـنـي بـرمـك مـن رائـحـيـن وغـاد

وقد لازم يحيى الرشيد وقام بإنزاله بصحبة أولاده[1]، ولا غلوَّ في ذلك طالما أن الـرشيد كـان يطلب منـه عدم مفـارقته حتى في أسفـاره، إذ خاطبـه مرة بقـولـه: «يا أبتِ، لا تفجعني بك وكن معي في هذا الوجه لآنس بك، فعمد على الشخوص معه»[2].

وجاء في الطبري[3]: أن يحيى قاد عملية احتواء ثورة عبدويه في أفريقيا سنة ١٧٨هـ، ونجح في جعل المتمرد يقبل عهد الأمـان بعد أن وجَّـه إليـه يقـطين بن موسى ومنصور بن زياد كاتبه.

* * *

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٧.
(٢) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٩٩.
(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٦.

٣

أبناء يحيى

مكث يحيى في الحكم مدة سبع عشرة سنة[١]، يعاونه في تصريف شؤون الخلافة أبناؤه الأربعة: الفضل، وجعفر، ومحمد وموسى. وقد وصفهم إبراهيم الموصلي، فقال: أما الفضل فيرضيك بفعله، وأما جعفر فيرضيك بقوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وأما موسى فيفعل ما لا يجد[٢].

وذكر البيهقي أن ليحيى ابناً يُدعى إبراهيم كان يُسمى دينار بني برمك لجماله وحسنه[٣]، توفي وسِنّه تسع عشرة سنة، ووجد عليه يحيى واغتمَّ به[٤].

وإذا لم يُقدَّر لولدَي يحيى: محمد وموسى، أن يلعبا دوراً مهمّاً إذ كتب محمد لمحمد ابن الرشيد على الزمام[٥]، وكان موسى قائداً عسكرياً مشهوراً بشجاعته[٦]، فقد تبوَّأ ابناه الآخران: الفضل وجعفر، أعلى المناصب وأعظمها،

---

(١) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤٢٩؛ الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٣٠٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٥؛ أبو الفداء: **المختصر** ج ٣ ص ٢٤.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٨؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٢.

(٣) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٧؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٩.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٩.

(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٣.

(٦) ذكر الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة أنَّ الفتنة هاجت بالشام بسبب العصبية التي بين النزارية واليمانية، فولّى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام وضمَّ إليه من القوّاد

إذ ولّى الرشيد جعفراً المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية، في سنة ست وسبعين ومئة، وقلّد الفضل المشرق كله، من النهروان إلى أقصى بلاد الترك[1]، كما لوحظ أن لقب الوزير الذي كان يعني يحيى[2] كان ينطبق أيضاً على الفضل[3]، وجعفر[4].

والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة، فهرع إليها موسى وأقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها: الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥١.

وبالنسبة لوظائف موسى ابن يحيى بن خالد بن برمك وابنه عمران في خراسان والسند. راجع البلاذري: **فتوح البلدان** من صفحة ٦٢٤ إلى صفحة ٦٢٦، مع الإشارة إلى أن الطبري ذكر في حوادث سنة ١٩٦هـ أنَّ عمران بن موسى دافع عن المدائن أمام جيش طاهر بن الحسين: الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٤٣٧، كما أنه استعمل في سنة ٢١٦هـ نائباً لعامل السند: الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٦٢٦.

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٠.

(٢) انظر شعر الموصلي المذكور سابقاً ص ١٨ وبيت عنان (وزير أمير المؤمنين) في كتاب **طبقات الشعراء**: ابن المعتز ص ٤٢١. وروايات عديدة في كتاب الجهشياري: **الوزراء والكتاب** (أيها الوزير ص ١٨٧)، (وأصلح الله الوزير ص ٢٣٠)، وكذلك في كتاب **الأغاني** للأصبهاني (إلى باب الوزير يحيى بن خالد ج ٥ ص ٢٣)، (إلى الوزير ج ٥ ص ١٣٥)، ومن الملاحظ أن يحيى لا يحمل لقب وزير فقط، بل حمل أيضاً لقب أمير، وكان الأول الذي أمر من الوزراء الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٧، (أصلح الله الأمير) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٩٥).

(٣) انظر كلام الأصمعي (أجب الوزير، أصلح الله الوزير وأعزَّ الله الوزير): ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢١٣ ــ ٢١٥؛ (أيَّد الله الوزير): البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٣٢٩. وفي بعض الروايات الأخرى كان يدعى غالباً بالأمير، انظر كتاب الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٢ ص ٣٣٧ ــ ٣٣٨؛ وكتاب البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٠، (أصلح الله الأمير)، وصفحة ٤١٦ (أعزَّ الله الأمير).

(٤) شهادة مروان بن أبي حفصة (وزير) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٤٥؛ وشهادة أبيات أبو النوّاس (ذاك الوزير): الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٥؛ وفي **الأغاني** (يرشد في الوزير): الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ٦٦.

(أ) الفضل بن يحيى:

وما لبث الفضل بن يحيى أن تقلَّد الشرف كله (من النهر إلى أقصى بلاد الترك) في سنة ١٧٦هـ ـ وقد ذكرنا ذلك ـ حتى ظهر في هذه السنة[١] يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن[٢] بن علي بن أبي طالب في الديلم، فكثر أنصاره واشتدت شوكته، فاغتمَّ الرشيد لذلك ووجَّه إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً من جنوده. وبفضل جهود الفضل وإدارته الحكيمة، تمكَّن من إخماد هذه الثورة باللين دون سفك دماء بعد أن اقتنع يحيى بقبول الصلح ووضع له من قبل الرشيد أماناً (حسب طلب يحيى)، كتبه الرشيد بخطه وبشهادة القضاة والفقهاء فسلَّم يحيى نفسه وحمله الفضل إلى الرشيد[٣].

واختلفت الروايات حول مصير يحيى، فقد روى اليعقوبي في «تاريخه»[٤]: أن الرشيد أبقاه في السجن حتى وفاته، أو أن الموكل به منعه من الطعام أياماً فمات جوعاً. وأما الطبري[٥]، فقد روى أنَّ الرشيد اهتم به كثيراً وأمر له بالأموال الطائلة والأرزاق السنية. وكذلك الجهشياري[٦]، فقد روى بأن الرشيد لقيه بكل ما أحب وأسنى جائزته وأكثر بره وعطاءه وأنزله منزلاً سرياً. بينما ذكر الطقطقي[٨] أن الرشيد لقيه في أول الأمر بكل ما أحب، ثم حبسه وأخيراً قتله بعد ظهور آية له عظيمة،

---

(١) يضع الجهشياري سنة ١٧٢هـ كتاريخ لثورة يحيى في الديلم، الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٨٩.

(٢) في كتاب الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٨٩ (الحسين).

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٨٩ ـ ١٩٠؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٢٥؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٤.

(٤) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤٠٨.

(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٤٣.

(٦) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٠.

(٧) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٠٢.

(٨) ابن الطقطقي: **الفخر في الآداب السلطانية** ص ١٩٤.

وقال ابن الأثير[1]: إن الرشيد حبس يحيى إلى أن مات في الحبس. وكذلك قال ابن خلدون[2]: إن الرشيد حبس يحيى إلى أن هلك في حبسه.. بينما قال آخرون[3]: إن الرشيد حبسه في بغداد تحت إشراف البرامكة فأطلقوا سراحه دون استئذان الرشيد. وتصرُّفهم هذا كان من جملة الأسباب التي حملت الرشيد على التنكيل بالبرامكة فيما بعد.

ومهما يكن من أمر، فبعد نجاح هذه الخطة، استقبل الرشيد الفضل بن يحيى في بغداد وأكرمه إكراماً عظيماً[4]. وتميَّز الفضل بأخلاق جدية صارمة وتمنع عن تعاطي المشروبات، وكان يقول: «لو علمت أن الماء ينقص من مرؤتي لما شربته»[5]. وقال الرشيد يوماً ليحيى: يا أبي! ما بال الناس يسمون الوزير الصغير جعفراً بذلك؟ فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني. وفي سنة ١٧٧هـ سُمي الفضل والياً على خراسان[6]، فلما صار إليها أزال سيرة الجور وبنى الحياض والمساجد والعرباطات، وأحرق دفاتر البغايا، وزاد الجند والقوّاد ووصل الزوار والكتاب[7]، فحسنت سيرته[8]، وأمر بهدم النوبهار فلم يقدر عليه لإحكام بنائه

---

(١) ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٢٥.

(٢) ابن خلدون: **تاريخ** م ٣ ص ٢١٨.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٨٩؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥، ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٦.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٤٣؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٠؛ الأصبهاني: **مقاتل الطالبيين** ص ٤٧١.

(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٣؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٤.

(٦) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠٥.

(٧) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٨ ص ١٤٠؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٩؛ وكما أشرت سابقاً فإن الجهشياري يشير إلى الفضل كوالٍ على «المشرق كله»، من النهروان إلى أقصى بلاد الترك: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٠.

(٨) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٤٥.

(٩) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٧.

فهدم منه قطعة وبنى فيها مسجداً[1]. وفي خراسان جنَّد الفضل جيشاً من العجم وأطلق عليه اسم العباسية بلغ عدده خمسمائة ألف رجل، أرسل عشرين ألفاً منهم إلى بغداد وظل الباقون في خراسان[2]. ولمّا خالف أهل الطالقان افتتح الفضل بلادهم، وزحف صاحب الترك في خلق عظيم، ولقي عسكر الفضل والتحمت بينهما الحرب فضرب وجه صاحب الترك فاستنام واستباح الفضل عسكره، وغنم أمواله، وفيه يقول الشاعر:

للفضل يوم الطالقان وقبله ... يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا ... في غزوتين تواليا يومان[3]

وقد كلَّف الفضل إبراهيم بن جبريل بفتح بلاد كابل، فافتتحها وغنم غنائم كثيرة[4]، وقاد حملة ضد مملكة أشروسنة وكان ممتنعاً[5].

غير أن الفضل لم يُكتب له النصر في حروبه في أرمينية، فقد جاء في اليعقوبي[6] أنه لمّا ولَّى الرشيد الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي أرمينية، سار إليها بنفسه، فلما قدم توجَّه إلى ناحية الباب والأبواب فغزا قلعة حمزين، فهزمه أهل حمزين، فانصرف ما يلوي على شيء حتى أتى العراق واستخلف على البلد عمر بن أيوب الكناني.

وكان الرشيد قد جعل ولده محمداً في حجر الفضل بن يحيى والمأمون في حجر جعفر فاختص كل واحد منهما بمن في حجره[7]. لذلك كان للفضل الدور

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩١؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٩.
(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٧.
(٣) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤٠٧ ــ ٤٠٨.
(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٩؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٢.
(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٧؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٤٥.
(٦) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤٢٦.
(٧) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** م ٤ ص ٢٨.

البارز في أخذ البيعة لمحمد بن الرشيد، إذ أنه لمّا صار إلى خراسان فرّق بين سكانها الأموال وأعطى الجند أعطيات متتابعات، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد فبايع الناس له وسمّاه الأمين[1].

ولمّا انصرف الفضل من خراسان إلى العراق (في آخر سنة ١٧٩هـ) بعد أن استخلف عمرو بن شرحبيل[2]، استقبله الرشيد استقبالاً حافلاً حدَّثنا عنه الطبري[3]، فقال: لمّا قدم الفضل بن يحيى من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله، وتلقّاه بنو هاشم والناس من القوّاد والكتّاب والأشراف، فجعل يصل الرجل بالألف ألف وبالخمسمائة ألف.

وأحب الرشيد تقليد جعفر الخاتم، وكان إلى الفضل، ورغّبه منه في عدم اعطاء قراره هذا طابع العزل وجد الصيغة التالية لإعلان الحدث إلى يحيى: «إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتم الخلافة من يمينك إلى شمالك»[4].

وصرف الرشيد الفضل بن يحيى عن الأعمال التي كان يتقلّدها أولاً، ثم ظهر من الرشيد في سنة ثلاث وثمانية ومئة سخط على الفضل بن يحيى، ونزع منه كل وظائفه[5]، وبقي فقط ــ كوصي على ولي العهد محمد الأمين الوظيفة التي

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٤٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٣، ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٢٢.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦١، في كتاب الجهشياري: «عمر بن جميل»، الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩١.

(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٩.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٧؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٧؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٥ (حيث يحيى هو الذي كتب إلى ابنه الفضل: البيهقي **المحاسن والمساوىء** ص ٤٤٣، ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٢٧٢، ينسبان هذه الرسالة إلى جعفر نفسه بأمر من الرشيد).

(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٧. تظهر لنا إحدى الروايات أنه قد عزل من منصب أرمينيا ولكنه احتفظ بدون شك ببريد الموصل وديار بكر التي أراد الرشيد إعطاءها إلى الفضل بن الربيع: الجهشياري: **الوزراء الكتاب** ص ٢٤٩.

حصل عليها قبل أن يذهب إلى الري[1].

(ب) جعفر بن يحيى:

وبينما كان يحيى بن خالد يميل إلى الفضل، كان الرشيد يميل إلى جعفر[2]، وكان من علوّ القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلال المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارَك فيها[3]. وقد رأينا كيف ولّاه الرشيد المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية، وكيف نقل إليه الخاتم من أخيه الفضل.

كان جعفر سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وهذه الصفات قرَّبته من نفس الرشيد فآنس به أكثر من أُنسه بأخيه الفضل[4]، ولم يكن له صبر عنه[5]، فأنزله بالخلد بالقرب من قصره وتباعد ما بين الفضل وجعفر، لأن الفضل كان يلتمس من جعفر أن يعطيه بعد اختصاص الرشيد إياه من نفسه، مثل ما كان يعطيه قبل ذلك، فخرجا إلى أن صار أحدهما يسبغ الآخر[6]. وقد ساعد جعفر الرشيد

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٤٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٣.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٨٩.

(٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٢، وقد روى القلقشندي أن الرشيد لقّب جعفر بن يحيى البرمكي في زمن وزارته له بالسلطان: القلقشندي: **صبحي الأعشى** ج ٨ ص ٤٠٣ ــ ٤٠٤.

(٤) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٢، ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٨.

(٥) ابن الطقطقي: **الفخر في الآداب السلطانية** ص ٢٠٥.

(٦) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١٠ ص ٣٣٢، يبدو أن جعفراً لم يفارق الخليفة ــ كما سنرى ــ إلاّ في رحلة قصيرة إلى الشام عندما هاجت العصبية سنة ١٨٠هـ، ومع هذا فإنه أعرب عن حزنه العميق لغاية هذه الفترة عن الخلفية إذ خاطبه بعد عودته قائلاً: والله يا أمير المؤمنين ــ ولا أعظم من اليمين بالله ــ لقد عانيت ما لو تعرض لي الدنيا كلها لاخترت عليها قربك ولما رأيتها عوضاً من المقام معك، راجع الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤.

(٧) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٨٩، وجاء في **الأغاني**: «كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفراً وينافسه جعفر». الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢١ ص ١٦٧.

في مهماته المختلفة[1]، وكثيراً ما كان الرشيد يقول ليحيى: «أنت للفضل وأنا لجعفر»[2].

وكان جعفر متمكناً عند الرشيد غالباً على أمره واصلاً منه، وبلغ من علوّ المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه[3]، حتى أنَّ الرشيد اتخذ ثوباً له زيقان فكان يلبسه هو وجعفر جملة[4]. وذكر المقدسي[5] أن هارون كان مختصاً بجعفر بن يحيى بن برمك حتى أمر فخيط له قميص ذو جيبين يلبسه هارون وجعفر لثقته به واختصاصه به. وروى الجهشياري[6] أن الرشيد كان يسمي جعفراً «أخي»، ويدخله معه في ثوبه، وقلَّده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز[7] في جميع الكور، كما أشركه معه في النظر في المظالم.

وفي سنة ١٧٦هـ كثر تظلُّم أهل مصر من موسى بن عيسى، فولّى الرشيد جعفر بن يحيى على مصر، فولاها عمر بن مهران الذي أحيا القانون[8]، وعندما هاجت العصبية بالشام في سنة ثمانين ومائة وزاد خطرها غضب الرشيد لذلك وعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا. فقال له

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٤.

(٢) نفس المصدر ص ١٨٩.

(٣) لقد أحلَّ الرشيد جعفراً محلاً لم يحله أخوه ولا أبوه: الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٤.

(٤) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٢؛ اليافعي: **مرآة الجنان** ج ١ص ٤٠٨

(٥) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١٠٤؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٣٦.

(٦) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٤.

(٧) كان يساعد جعفر بن يحيى في إدارة الطرز الكاتب عيسى بن يزدانيروذ: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦، لكن الطبري يشير في سنة ١٨٧هـ كمسؤول عن الطرز ـ إلى شخص يسمّى محمد بن نوح: الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٣ الذي لا نملك عنه أية معلومات ومن الممكن أن يكون هو نفسه إبراهيم بن نوح بن أبي نوح الذي كان أثناء حكم المأمون كاتباً لإبراهيم بن المهدي في البصرة: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٣١٢.

(٨) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٧ ـ ٢٢٠؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٢٦، ابن كثير: **البداية والنهاية** ج ١٠ ص ١٦٩.

جعفر: بل أقيك بنفسي، وقصد جعفر الشام فأصلح بينهم وأخمد ثورتهم[1]! ولمّا نجح جعفر في إطفاء نيران تلك الفتنة ولّى جعفر بن يحيى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها، واستخلف على الشام عيسى بن العكي. وانصرف، فازداد الرشيد له إكراماً[2]، كما حصل لأخيه الفضل قبل ذلك بعدة سنوات (سنة ١٧٦هـ).

وفي نفس السنة (أي سنة ١٨٠هـ) ولّى الرشيد جعفر بن يحيى على خراسان وسجتان، واستعمل جعفر عليهما محمد بن الحسن بن قحطبة[3]، ولكن بعد عشرين يوماً عزله عن خراسان وولّاه الحرس[4].

وقد ذكر الصولي أنه: «لمّا عزل الرشيد جعفر بن يحيى عن خراسان، وقد كان سماها له وكتب كتبه وعقد له العقد وأمر ونهى ودبر مديدة ومدح بأشعار، فوجم لذلك جعفر إلى أن دخل أشجع، فأنشده:

أمست خراسان تعزى بما	أخطأها من جعفر المرتجى
كان الرشيد المعتلى أمره	ولّى عليها المشرق الأبلجا
ثم أراه رأيه أنه	أمسى إليه منهم أحوجا
كم فرّق الدهر بأسبابه	من محصن أهلاً وكم زوّجا
وكم به الرحمن من كربة	في مدة تقصر قد فرّجا

فقال له جعفر: قمت والله بالعذر لأمير المؤمنين وأصبت الحق وخففت نقل العزل فسل ما شئت. قال: قد كفاني جودك علي وتفقدك لي جذر المقال وذلّ

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦٢؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٨، ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٥١ ــ ١٥٢.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦٣.

(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٦٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٥٢؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ٧٢ ــ ٧٣، والجهشياري من جهته لا يذكر هذه الفترة ولا يشرح السبب.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٥٢.

السؤال[1].

وفي سنة ١٨٢هـ تمكَّن جعفر من الحصول على الوصاية على عبد الله المأمون بعد أن أخذت البيعة له كولي شأن للعهد[2] (بعد الأمين). وهكذا أصبح الفضل وجعفر وصيَّين على وليَّي العهد الاثنين (الأمين والمأمون) اللذين من خلالهما توقعا أن تبقى السلطة طويلاً بين يدي آل برمك، ولكن الرشيد لم يسمح بذلك وأنزل بهم تلك النكبة العظمى التي سنتحدث عنها في فصل قادم.

وفي عهد جعفر اشتدت قبضة البرامكة على أمور الحكم، وبلغت سلطتهم حداً بعيداً. فثقة الرشيد الكبيرة بجعفر جعلت له مكانة مرموقة وسلطة واسعة في الدولة، وأصبحت كلمته هي الكلمة النافذة، إذ لم يكن أحد يجسر على أن يردّ عليه قولاً ولا رأياً[3]. وأبلغ دليل على ذلك حادثة الأمير عبد الملك بن صالح العباسي حين طلب إلى جعفر أن يساعده في تحقيق بعض الحوائج لدى الرشيد. وتفصيل هذه الحادثة، كما رواها الجهشياري[4] في كتاب «الوزراء والكتاب»: أنَّ جعفر بن يحيى خلا في منزله يوماً وحضر ندماؤه، وكنت منهم، فتضمَّخ بالخلوق، ولبس الحرير، وفعل بنا مثل ذلك، وتقدَّم إلى الحاجب بحفظ الباب إلَّا من عبد الملك بن نجران كاتبه، فوقع في أذن الحاجب (عبد الملك)، ومضى

---

(١) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٨٧.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦٩، وجعفر هو الذي أشار على الرشيد بإعلان البيعة باسم عبد الله (المأمون) كوريثٍ ثانٍ للخلافة بعد محمد (الأمين) وعاد بهذا المشروع من الرقة إلى بغداد؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٦١.

(٣) ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة** ج ٥ ص ٢٧٤.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٢ ــ ٢١٤، ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، ج ٥ ص ٧٢ ــ ٧٣؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ٢٢٨ ــ ٢٣٢؛ التنوخي: **مستجاد** ص ١٥٤ ــ ١٥٦؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٠ ــ ٣٣١، اليافعي: **مرآة الجنان** ج ١ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٦؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ١٣٦ ــ ١٣٧.

صدر من النهار، وبلغ عبد الملك بن صالح مقام جعفر في منزله، فركب إليه، فوجه الحاجب إلى جعفر: قد حضر عبد الملك، فقال: يُؤذن له، وهو يظنه ابن نجران. فدخل عبد الملك بن صالح في سواده، ورهافيته. فلما رآه جعفر اسودَّ وجهه، ورآنا على حالنا، وكان عبد الملك لا يشرب النبيذ، وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه، لأنه كان يلتمس ندامة فيأبى عليه، فوقف عبد الملك على ما رأى من جعفر، فدعا غلامه، فناوله سواده وقلنسوته وأقبل حتى وقف على باب المجلس الذي نحن فيه، فسلّم وقال: افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم. فدنا منه خادم فألبسه حريرة وجاء فجلس، ودعا بطعام فأكل، ودعا بنبيذ، فأتوه برطل، فشربه وقال لجعفر: والله ما شربته قبل اليوم فليخفف عني، فدعا له برطلية جعلت بين يديه، وجعل كلما فعل من ذلك شيئاً سرَّى عن جعفر، فلما أراد الانصراف قال له جعفر: سل حاجتك، فما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك، فقال: إن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضا عني. فقال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال: وعليَّ أربعة آلاف درهم تقضي عني. قال: إنها لعندي حاضرة، ولكن اجعلها من مال أمير المؤمنين، فإنها أنبل لك وأحب إليك. قال: وإبراهيم ابني أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة. قال: قد زوَّجه أمير المؤمنين الغالية. قال: وأحب أن يخفق لواء على رأسه. قال: قد ولّاه مصر.

وانصرف عبد الملك ونحن نتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان، وقلنا: لعله أن يُجاب إلى ما سأل من الحوائج، فكيف بالتزويج؟ هل يطلق لجعفر أن يغره؟ فلمّا كان من الغد، وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسفِ القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، وخرج إبراهيم وقد خلع عليه وزوج، وحُملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر، فأشار إلينا باتباعه إلى منزله. فلمّا صرنا إليه، قال: تعلَّقت قلوبكم بأول الحديث من أمر عبد الملك، أحببتم علم آخره، وإني لمّا دخلت على أمير المؤمنين، فقمت بين يديه، ابتدأت القصة، كيف كانت من أولها إلى آخرها. فجعل يقول: أحسن والله! حتى إذا أتممت خبره، قال: ما صنعت به؟

فأخبرته بما سأل، فجعل يقول في ذلك: أحسنت! أحسنت! (انتهى كلام الجهشياري).

ولم يزل البرامكة في عز وجاه وسلطان وفي ذروة المكانة عند الرشيد حتي قيل: «إن أيامهم عرس وسرور دائم لا يزول»[1].

* * *

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٤٦.

الفصل الثاني

الاتهامات

١ - إتهام البرامكة بالميل إلى الفرس
٢ - إتهام البرامكة بالشعوبية والزندقة والمجوسية
٣ - إتهام البرامكة بالميل إلى العلويين
٤ - الغنى المفرط

الاتهامات

على الرغم من وصول البرامكة إلى هذه المرتبة العالية من النفوذ والسلطات، فإذا نظرنا إلى الجانب السلبي فيهم نرى بأنه قد نُسب إليهم اتهامات عديدة، من أبرزها:



إتّهامُ البرامِكةِ بالميْل إلى الفُرس

روى الطبري[1] أنَّ علي بن عيسى بن ماهان اتَّهم موسى بن يحيى البرمكي عند الرشيد في خراسان وأعلمه طاعة أهلها له ومحبتهم إياه، وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم والوثوب به معهم، فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه. وكان موسى أحد الفرسان الشجعان، فلمّا قدح علي بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد وعمل فيه القليل منه، ثم ركب موسى دين واختفى عن غرمائه، فتوهَّم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلمّا صار إلي الحيرة في هذه الحجة وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد عند العباس بن موسى بالكوفة، فكان ذلك أول ثلمة ثلموا بها، فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن يردّها في شيء، فقال:

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٧.

يضمنه أبوه؟ فقد رفع إليَّ فيه. فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضي عنه وخلع عليه.

وجاء في «الفهرست»[1] أن البرامكة كانت تبغض محمد بن الليث، لأنه كان فيه «ميل على العجم»، ويقال إن الفضل بن يحيى البرمكي جنَّد في خراسان جيشاً من العجم أطلق عليه اسم العباسية، بلغ عدده نصف مليون رجل[2].

وقد تبنَّى البرامكة في الولايات الشرقية سياسة متسامحة وعاملوا سكانها معاملةً حسنة، فتقرَّبوا إليهم وأغدقوا عليهم العطايا الكثيرة، وذكر أن خالد بن برمك كان في عسكر قحطبة يتقلَّد خراج كل ما افتتحه قحطبة من كور وتقلَّد الغنائم وقسمها بين الجند، فكان يقال: إنه ما أحد من أهل خراسان إلاَّ ولخالد عليه يد ومِنَّة، لأنه قسَّط الخراج فأحسن فيه إلى أهله[3].

ويروى أن المهدي أنفذ خالداً إلى فارس عاملاً عليها واستخلف خالد ابنه يحيى فقسَّط الخراج على أهلها ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً، وأكثر خالد الصلات والجوائز والإحسان إلى كافة الناس وخاصيتهم[4].

في الحقيقة إن اتهام البرامكة بالميل إلى الفرس لا يبدو غريباً، وذلك لأنه من الطبيعي أن يحسن كل إنسان إلى موطنه الأول، وأن يتأثر بعاداته وتقاليده، وأن يتعلق بثقافته ولغته الأساسية. فكانوا (أي البرامكة) مثلاً يذكرون في مجالسهم بعض الأمثال باللغة الفارسية[5].

ولكن لا بدَّ من الإشارة إلى أن السياسة التي أظهر البرامكة أنهم يريدون

---

(١) النديم: **الفهرست** ص ١٣٤.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٧.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٨٧.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٥١.

(٥) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٣.

تنفيذها كانت سياسية واقعية مجردة من الوساوس الحزبية ومهتمة بالخير العام. إذ لا يمكن التأكد أن البرامكة أعطوا الأولوية لسكان الولايات الشرقية على باقي سكان الإمبراطورية، لأن يحيى اهتمَّ برفاهية وسعادة السكان آمراً بتنفيذ الأشغال ذات المنفعة العامة: كحفر أقنية جديدة وغير ذلك. وقد عبَّر عن اهتمامه بالمدن المقدَّسة في الجزيرة العربية عن طريق تموينها، إذ أمر بإجراء القمح على أهل الحرمين وتقدَّم بحملة من مصر إليهم وأجرى على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الأمصار وعلى أهل الدين والآداب والمروءات، واتَّخذ كتاتيب لليتامى[1]. كما إنه تبنّى موقفاً متسامحاً تجاه الجميع، ونحكم على ذلك من خلال الجهد الذي بذله للدفاع عن العتابي المعتزلي الذي اضطهده الرشيد، إذ كان العتابي يقول بالاعتزال، فاتَّصل ذلك بالرشيد وكثَّر عليه في أمره، فأمر فيه بأمر عظيم، فهرب إلى اليمن، فكان مقيماً بها فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من رسائله وخُطبه، فاستحسن الرشيد ذلك وسأل عن الكلام لمن هو؟ فقال: هذا للعتابي، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام ويصنع لهما خطباً لكان ذلك أصلح، فأمر بإحضاره، فأخذ الأمان له[2].

وإن أبهة البرامكة وفخرهم مثلاً يذكروننا بعادات الموالي لعمارة بن حمزة، الذي يعتبره البرامكة قدوة في هذا المجال[3]، ولكن ليس بدون التذكير في نفس الوقت بكرم العرب المشهور المعتبر دائماً كإحدى فضائلهم الوطنية، وإن وصية يحيى لولده التي قال فيها: لا بدَّ لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس فإن النعمة على الأشراف أبقى وهي بهم أحسن والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر[4]. ليست إيرانية بالضبط، لأنها تستحق المقارنة بقول المنصور ــ عن أحد الرجال ــ المأثور: «هو رجل شريف وللشريف شكر، فلا

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٧.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٣.

(٣) نفس المصدر ص ١٩٧.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٧.

يسوءنكم مكانه»[1].

وكذلك فإن نظرة إلى الميول الثقافية للبرامكة تحملنا إلى إبداء ملاحظات متشابهة، إذ لا يمكننا أن ننفي أنَّ يحيى وأولاده قدَّروا بصورة خاصة الأدب الإيراني أو على الأقل الهندو ـ إيراني، وشجَّعوا على الاقتباس من الفارسية إلى العربية، ولكن سنتذكر أنَّ يحيى شجَّع أيضاً تفسير ونقل الكتب العلمية اليونانية، ككتاب المجسطي لبطليموس، مؤلِّفاً مكتبة هامة ستكون النواة الأولى لبيت الحكمة المشهور الذي أنشأه المأمون[2].

وإذا كان المقربون منهم وصنائعهم والشعراء[3] الذين رعوهم غالباً من الفرس ـ كما يقول بوفا[4] ـ وإذا عمل البرامكة على إدخال الزرادشتي الفضل بن سهل إلى البلاط وهو لم يسلم بعد[5].

وإذا ارتبطوا بسهل بن هارون الممثل النشيط للشعوبية، وشجَّعوا الموسيقى الفارسي الأصل إبراهيم الموصلي، فإنهم اجتذبوا أيضاً أشخاصاً من أصل مسيحي: كبني وهب، أو منصور بن زياد، والسوري أحمد بن أبي خالد الذي استفاد أيضاً من حسن رعايتهم[6].

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنه خلال مشاورات ولاية العهد لم يؤيد البرامكة

(١) البلاذري: **أنساب الأشراف** ج٣ ص ٢٦١.
(٢) القفطي: **إنباه الرواة** ص ٩٧ ـ ٩٨؛ النديم: **الفهرست** ص ١٠٥ و ٢٧٤.
(٣) منهم الرقاشي الذي كان منقطعاً إلى البرامكة بمدحهم؛ ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢٢٧، ومنهم أيضاً الشاعر أبان الحميد اللاحقي وكان شاعراً ظريفاً يمدح البرامكة وكان مخصوصاً من بينهم بجعفر لا يكاد يفارقه: ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢٠٢، وقلَّده يحيى ديوان الشعر: الجهشياري: **الوزارة والكتاب** ص ٢٨١ وغيرهم.
(٤) بوفا ص ٤٧ ـ ٤٨ عن Sourdel: *Le Vizirat Abbaside,* I, p. 179.
(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٠.
(٦) Sourdel: *Le Vizirat Abbaside,* I, p. 179.

مثلاً ترشيح المأمون «ابن الفارسية»، فرغم تردُّد الرشيد الذي رأى أن ابنه الثاني هو المؤهَّل للسلطة أكثر من الابن البكر، فإن يحيى أعلن موقفه أخيراً لصالح تسمية الأمين كولي أول للعهد.

هذا ما رواه المسعودي[1] عن لسان الأصمعي، حيث قال: قال الأصمعي: بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة أُخرى ويبكي أُخرى، ثم أنشأ يقول:

قلِّد أمور عباد الله ذا ثقة	موحّد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطل	لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلمّا سمعتُ ذلك منه علمت أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال لمسرور الخادم: «عليَّ بيحيى». فما لبث أن أتاه، فقال: «يا أبا الفضل، إن رسول الله ﷺ مات عن غير وصية والإسلام جذع والإيمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله ــ عزَّ وجلَّ ــ بعد الخوف وأعزَّها بعد الذل، فما لبث أن ارتدَّ عامة العرب على أبي بكر، فكان من خبره ما قد علمت وأن أبا بكر صيَّر الأمر إلى عمر فسلَّمت الأمة له ورضيت بخلافته، ثم صيَّرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن وهنه وضعفه وهو عبد الله، وبنو هاشم مائلون بأهوائهم إلى محمد وفيه ما فيه عن الانقياد لهواه والتصرُّف مع طويته والتبذير لما حَوَتْه يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه، وعبد الله المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق في الأمر العظيم.. فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية؛ فأشر عليَّ في هذا الأمر برأيك مشورة يعمّ فضلها ونفعها فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر». فقال: «يا أمير المؤمنين، إنَّ كلَّ زلة مستقالة، وكل أمر يتلافى ما خلا هذا العهد، فإن الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا».

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢١٣ ــ ٢١٤.

فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة، فأمرني بالتنحّي، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما، فما زالا في مباحثة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد.

* * *

٢

إتهام البرامكة بالشعوبية والزندقة والمجوسية

لقد رعى البرامكة الناطقين بلسان الشعوبية أمثال علان الشعوبي الفارسي وكان راوية عارفاً بالإنسان والمثالب والمنافرات منقطعاً إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون وللبرامكة عمل كتاب الميدان في المثالب، الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها[١]. وممن كان يمعن في شعوبيته سهل بن هارون، أحد صنائع البرامكة، فارسي الأصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل، وكان متحققاً بخدمة المأمون وصاحب خزانة الحكمة له[٢].

وهناك صلة وثيقة بين الزندقة والشعوبية، ذكرها الجاحظ[٣] في رسالته في بني أمية، حيث قال عن الشعوبية: «إن أساسها العصبية التي لا تبقي ديناً إلّا أفسدته ولا دنيا إلّا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية». ويؤيّد ذلك ما ورد في الأغاني عن رجل أنه من «زنادقة الشعوبية»[٤]. وقد لاحظ بعض الكتّاب المحدثين هذا الارتباط بين الحركتين فأرجع الدكتور عبد الرحمن البدوي[٥] في

(١) النديم: **الفهرست** ص ١١٨.

(٢) نفس المصدر ص ١٣٣.

(٣) رسالة الجاحظ في بني أمية ص ٢٩٩: المقريزي: النزاع والتخاصم ص ١٠١.

(٤) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٦ ص ٨١.

(٥) عبد الرحمن البدوي: **تاريخ الإلحاد في الإسلام** ص ٢٣ ــ ٢٤.

كتابه «تاريخ الإلحاد في الإسلام» حركة الزندقة كلها ـ أو معظمها ـ إلى الشعوبية، وبذلك أصبحت الأولى مرادفة للثانية ومكمِّلة لها.

وقد اتُّهم الرشيد البرامكة بالمجوسية والزندقة، فلمّا أمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدُّم في هدم إيوان كسرى نهاه يحيى عن هدمه قائلاً: لا تهدم بناء دلَّ على فخامة شأن بانيه الذي غلبته وأخذت ملكه. فأجابه الرشيد: «هذا من ميلك إلى المجوس، لا بدَّ من هدمه»[1]. ولمّا كتب يحيى بن خالد مِن حَبْسه إلى الرشيد طالباً الرأفة به والعفو عنه، وصفه الرشيد بـ «المخادع الزنديق»[2].

واجتمع الدهاقنة يوماً إلى يحيى البرمكي وسألوه أن يؤخِّر النيروز نحو الشهرين، فعزم على ذلك، فتكلَّم أعداؤه فيه وقالوا: «إنه يتعصَّب للمجوسية، فأضرب عن ذلك»[3].

ويشير ابن قتيبة[4] إلى «أن البرامكة كانوا يُرمون بالزندقة إلاَّ من عصم الله تعالى منهم، ويقول النديم[5]: «قيل إن البرامكة بأسرها إلاَّ محمد بن خالد بن برمك، كانت زنادقة. وجعل بعض المؤرخين من الزندقة سبباً لنكبتهم، وهذا ما ذهب إليه المقدسي[6]، إذ قال: « إنهم (أي البرامكة) أرادوا إظهار الزندقة وإفساد المُلك ونقله إلى عثمان بن نهيك الفاسق، فقتلهم هارون.

وابن كثير[7] القائل: «كانوا يريدون إبطال الخلافة وإظهار الزندقة».

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٩، وذكر المسعودي في «مروجه» أن الرشيد قال لمن حوله: «في نفسه (أي يحيى) المجوسية والحنو عليها والمنع من إزالة آثارها: المسعودي: مروج ج ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) الوطواط: **غرر الخصائص الواضحة** ص ٤٠٦.

(٣) البيروني: **الآثار الباقية** ٣٢.

(٤) ابن قتيبة: **المعارف** ص ٣٨٢.

(٥) النديم: **الفهرست** ص ٤٠١.

(٦) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١٠٤.

(٧) ابن كثير: **البداية والنهاية** ج ١ ص ١٨٩.

والدميري[1] القائل أيضاً: «إن البرامكة أرادت إظهار الزندقة وفساد الملك فأوقع بهم وقتلهم».

وقد أورد الجاحظ[2] بيتين من الشعر في كتابه «البيان والتبيين» لشاعر مجهول[3]، قال فيهما:

إذا ذكر الشرك في مجلس   أنارت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية   أتوا بالأحاديث عن مزدك

وقال شاعر آخر عن نفسه:

إن الفراغ دعاني   إلى ابتناء المساجد
وإن رأيي فيها   كرأي يحيى بن خالد[4]

ومن المحتمل أن تكون عامة الشعب قد اعتبرت البرامكة كلهم زنادقة، هذا ما أشار إليه الجهشياري[5]، إذ قال: إن الفضل بن يحيى نقل من محبس كان فيه إلى محبس آخر فيوقف له بعض العامة، فدعا عليه وأنه اضطرب من ذلك اضطراباً لم يرَ مضطرباً قبله مثله في شيء من حوادث النكبة، وأنه قال لبعض من كان معه: أحب أن تلقى هذا الرجل وتسأله عما دعاه إلى ما كان منه؟ وهل لحقه من بعض أسبابنا على غير علم منا، ظلم فنتلافى ما خلا؟ فصار رسوله إليه وسأله عما دعاه إلى ما كان منه وهل لحقه ما يوجبه؟ قال: فقال: لا، والله ما لحقني ما أوجب ذلك ولكن قيل لي إن هؤلاء كلهم زنادقة، فلمّا عاد الرسول إليه بذلك قال: قد والله

---

(١) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى** ج ٢ ص ١١٢.

(٢) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٣ ص ٥٤٧.

(٣) لقد نسب ابن قتيبة في كتابه **المعارف** ص ٣٨٢ هذين البيتين من الشعر للأصمعي، وكذلك الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٦؛ والمقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١٠٥ ــ ١٠٦.

(٤) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٣ ص ٥٤٧؛ ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ١ ص ٥١.

(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩.

سرَّيت عني وفرَّجت ما بي وأزلت ما لحقني، ثم أنشد:

غيـر ما طـالبين ذحـلاً ولكن   مـال دهـر على أنـاس فمـالـوا

وقد روى البغدادي[1] أن البـرامكة زيَّنـوا للرشيد أن يتَّخـذ في جوف الكعبـة مجمـرة يتبخَّر عليهـا العود أبـداً، فعلم الرشيـد أنهـم أرادوا من ذلك عبـادة النار في الكعبة وأن تصير الكعبة بيت نار. ولكن حديث مسرور الكبير في أيام المتوكِّل ينفي هـذه الحادثـة، فعندمـا سألـه عبيد الله بن يحيى بن خـاقان عن سبب قتـل الرشيـد لجعفر وإيقاعه بالبرامكة؟ أجابه: كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادَّعوه من أمر المرأة وأمر المجامـر التي اتَّخذهـا للبخور في الكعبـة؟ فقلت له: مـا رأيت غيره، فقـال: لا والله، ما لشيء من هذا أصل، ولكنه من موالينا وحسدهم[2].

وفيما خصَّ هذه الاتهامات المـوجَّهة ضـد البرامكـة، علينا أن نتصـوَّر أنه من السهل، نظراً لأصلهم، اتهامهم باعتقادات ملحدة، غير أنه علينا أيضاً أن نشيـر إلى أن هـذه الاتهامـات لا تعدو عن كـونها إحـدى الوسـائـل التي استخـدمهـا الأعـداء ضدَّهم: «لقد تكلَّم أعداؤه فيه (يحيى البرمكي) وقالوا أنه يتعصب للمجوسية»[3]، وأن الشخص (محمـد بن الليث)[4]. الـذي حسب «الـطبـري الفـارسي»[5]، أبلـغ الرشيد بإلحاد البرامكة قد اقتصر في الواقـع، إذا اعتقدنا بما قاله الـطبري[6] نفسـه على الشكوى من غطرسـة يحيى كما أن بعض المؤرِّخين[7] يـذكر أنَّ هـذا الاتِّهام (بالزندقة) بعيد لا يعتقد بصحته.

---

(١) البغدادي: **الفرق بين الفِرق** ص ٢٨٥.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٤.

(٣) البيروني: **الآثار الباقية** ص ٣٢.

(٤) يسميه الـطبـري محمـد بن الليث، الـطبـري: **تـاريـخ** ج ٨ ص ٢٨٨، وليس محمـد بن أبي الليث كما ورد في الطبري: **الفارسي** ج ٤ ص ٤٦٣.

(٥) الطبري: **زوتنبرغ** ٤ ص ٤٦٣.

(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٨٨.

(٧) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى** ج ٢ ص ١١٢.

وإلى جانب عدم إجماع المؤرِّخين على صحّة هذه التهم، فإن للفضل بن يحيى موقفان يساعدان أيضاً على إنكارها وعلى عدم إثباتها:

أوّلهما: أنه لما ملك والفضل أمر خراسان عزم على هدم النوبهار، فلما لم يقدر عليه لإحكام بنائه، هدم ناحية منه وبنى فيها مسجداً[1].

وثانيهما: أنه لمّا استحسن الفضل أبياتاً من الشعر لأبي النواس، قال: «أما والله لولا قالة الناس فيه ما فارقني، ولكن إذا فكرت فيه وجدت الرجل ماجناً خليعاً متهتِّكاً ألوفاً لحانات الخمّارين فأترك نفعه لضره»[2].

* * *

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٩.

(٢) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢١٥ ــ ٢١٧.



إتهامُ البرامِكةِ بالميْل إلى العَلويّين

في الواقـع هناك بعض الشواهد التي تدلّ على ميل البـرامكة نحـو العلويين، وقد اعتبر بعض المؤرخين هـذا الميل من أهم الأسبـاب التي أدَّت إلى نكبتهم[1].

فقد روي الطبري[2] أنَّ أبو محمد اليزيدي ـ وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبـار القـوم ـ قـال: من قـال إن الـرشيـد قتـل جعفـر بن يحيى بغيـر سبب يحيى بن عبـد الله بن حسن (العلوي) فلا تصـدِّقه، وذلـك أن الرشيـد دفـع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء في أمـره، فأجـابه إلى أن قـال: اتق الله في أمري ولا تتعرَّض، أن يكون خصمك غـداً محمد ﷺ، فـوالله ما أحـدثت حدثاً ولا أديت محدثاً. فـرَّق عليه وقـال له: إذهب حيث شئت في بـلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأُرَدَّ إليك أو إلى غيرك! فوجَّه معـه من أدَّاه إلى مأمنه.

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٨٩؛ الدميري: **الحيوان** ج ٢ ص ١١١.

(٢) الـطبري: **تـاريخ** ج ٨ ص ٢٨٩؛ المسعودي: **مـروج** ج ٤ ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: **الكـامل** ج ٦ ص ١٧٥ ـ ١٧٦؛ ابـن خـلكـان: **وفـيـات الأعـيـان** ج ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٩؛ ابن العماد: **شذرات الذهب** ج ١ ص ٣١٢؛ اليـافعي: **مرآة الجنان** ج ١ ص ٤١٠؛ أبو الفداء: **المختصر في أخبار البشـر** ج ٣ ص ٢٣، وقد ذكـر الأصبهاني أن الفضل هـو الذي أطلق سـراح العلوي: **مقاتـل الطالبيين** ص ٤٧١ ـ ٤٧٢، ولنـلاحظ أن الجهشياري لا يشيـر إلى إطلاق هـذا العلوي لا من قبـل الفضـل ولا من قبـل جعفر.

وبلـغ الخبر الفضل بن الربيـع من عين كانت له عليه من خـاص خدمـه فعلا الأمر فوجده حقاً وانكشف عنده فدَخل على الرشيد فأخبره فأراه أنـه لا يعبأ بخبـره. وقال: وما أنت وهذا لا أم لك! فلعل ذلك عن أمري، فانكسر الفضل وجـاءه جعفر فدعا بالغداء، فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر مـا دار بينهما أن قـال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الطبق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجم جعفر ــ وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحّهم فكـراً ــ وهجس في نفسـه أنه قـد علم بشيء من أمره، فقـال: لا وحياتـك يـا سيـدي ولكن أطلقـه وعلمت أنـه لا حيـاة بـه ولا مكـروه عنـده. قـال: نِعْمَ مـا فعلت، مـا عـدوت ما كان في نفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كـاد أن يتوارى عن وجهـه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك!

فكان من أمره ما كان. وهذا ما ذهب إليـه الدميـري[1]، إذ قال: من قـال أن الرشيد قتل جعفر بغير سبب يحيى بن عبد الله العلوي بن حسن فلا تصدقه.

ويذهب ابن خلدون إلى أن البرامكة «أفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العـطاء وطـوّقـوهم المنن كسبـوا من بيـوتـات الأشـراف (العلويين) المعـدم وفكـوا العاني»[2].

وهذه التهمة يعوزها التأكيد لأن هنـاك براهين عـديدة تشيـر إلى الجفاء الـذي كـان يسود العـلاقات البـرمكية ــ العلويـة[3]، حتى أنَّ البرامكـة كانـوا يكيدون بهم ويـدبِّرون المؤامـرات للقضاء عليهم: فيحيـى بن خـالـد هـو الـذي أغـرى علي بن إسمـاعيل بن جعفـر بن محمد بـالمال حتى سعى بعمـه الإمام مـوسى بن جعفر إلى الرشيد، وهـذه السعايـة كانت سببـاً لإلقاء القبض على مـوسى بن جعفر وعلى قتله فيما بعد[4].

---

(١) الدميري: **حياة الحيوان الكبرى** ج ٢ ص ١١١.

(٢) ابن خلدون: **المقدمة** ص ١٦.

(٣) مصطفى جواد: العدد ٢٧ من مجلة **الرسالة الإسلامية** السنة الثانية ٨ حزيران ١٩٣٤م.

(٤) الأصفهاني: **مقاتل الطالبيين** ص ٥٠٠ ــ ٥٠٤.

ولما فرَّ إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز إلى المغرب الأقصى عبر مصر، ناجياً من موقعة فخ، وبايعته قبائل المغرب وآمنت بدعوته، شكى الرشيد ذلك إلى يحيى بن خالد، فقال له: «أنا أكفيك شرّه»[1].

وأرسل إلى المغرب رجلاً عُرف بالمكر والدهاء، هو سليمان بن جرير الجزري، بعد أن رغَّبه في الحال ووعده بمواعيد عظيمة على أن يحتال لإدريس حتى يقتله.

وما إن وصل إلى إدريس حتى تقرَّب منه وأوهمه أنه من أنصاره، فسرَّ إدريس منه واطمأنَّ له، وعلى حين غرة دسَّ السمَّ لسيِّده في الطعام، فسقط مغشياً عليه حتى مات.

وفي هذا المجال روى لنا الأصبهاني حادثتان:

إحداهما أظهرت لنا جعفراً مفرطاً في الحماس ــ بغير أمر الرشيد ــ لقتل العلوي عبد الله بن الحسن الذي أوكلت إليه حراسته. وكانت من بين الأسباب التي أثارت حقد الرشيد على البرامكة وحملته على الانتقام منهم. وتفصيل ذلك: أن الرشيد اتَّهم عبد الله بن الحسن بن علي بجمع الزيدية ودعوتهم إلى الخروج معه. ولمّا أنكر العلوي هذه التهمة أمَر الرشيد بحبسه، فأنفذ إليه رقعة مختومة فيها كل كلام قبيح وكل شتم شنيع، فلمّا قرأها الرشيد طرحها وقال: قد ضاق صدر هذا الفتى فهو يتعرَّض للقتل، وما يحملني فعله ذلك على قتله. ثم دعا بجعفر بن يحيى فأمره أن يحوله إليه ويوسع عليه في محبسه.

فلمّا كان يوم غد، وهو يوم نيروز، قدمه جعفر بن يحيى فضرب عنقه، وغسل رأسه وجعله في منديل، وأهداه إليه الرشيد مع هدايا، فقبلها وقدمت إليه، فلمّا نظر إلى الرأس أفظعه، فقال له: ويحك، لِمَ فعلت هذا؟ قال: لإقدامه على

---

(١) الأصفهاني: **مقاتل الطالبيين** ص ٤٨٩؛ الحميري: **كتاب الروض المعطار** ص ٦١٠.

ما كتب به إلى أمير المؤمنين وبسط يده ولسانه بما بسطهما. قال: ويحك، فقتلك إياه بغير أمري أعظم من فعله. ثم أمر بغسله ودفنه.

فلمّا كان من أمره ما كان في أمر جعفر، قال لمسرور: إذا أردت قتله فقل له: هذا بعبد الله بن الحسن بن مني الذي قتلته بغير أمري. فقالها مسرور عند قتله إياه[1].

وأما **الحادثة الأخرى** فقد قدمت لنا الفضل بن يحيى رافضاً أمر الرشيد القاضي بقتل الإمام موسى بن جعفر، إذ دفع الرشيد الإمام موسى بن جعفر إلى الفضل بن يحيى وأراد منه أن يقتله، فلم يقتله، بل أبقاه عنده وأحسن إليه، فغضب الرشيد وأرسل إلى السندي بن شاهك ببغداد أن يجلد الفضل (ضربه مائة سوط)، وقال: أيها الناس، إن الفضل بن يحيى قد عصاني وخالَف طاعتي فرأيت أن ألعنه فالعنوه، فلعنه الناس من كل ناحية حتى ارتجَّ البيت والدار بلعنه[2]. هذا فضلاً عن الكرم الرائع الذي أظهره الفضل بن يحيى نحو محمد بن إبراهيم بعد أن أعلاه دين مبلغه ألف ألف درهم[3].

هذه الوقائع جاءت لتُضاف إلى الخلافات التي أثارتها المسألة العلوية بشكل دائم بين الخليفة والبرامكة هذه المسألة التي ركز الرشيد نفسه على طابعها في المحادثة التي جرت بينه وبين يحيى أثناء حبسه، حيث لمَّح من جهة إلى يحيى بن عبد الله، ومن جهة أخرى إلى الزيدي أحمد بن عيسى. هذا ما رواه مسرور الكبير، حيث قال: أخرج الرشيد يوماً يحيى بن خالد من سجنه يسرد عليه مجموعة من الشكاوى التي لم يستطع وزيره السابق أن يدافع عن نفسه عند

---

(١) الأصبهاني: **مقاتل الطالبيين** ص ٤٩٣ ــ ٤٩٤.
(٢) الأصبهاني: **مقاتل الطالبيين** ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣.
(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٥ ــ ١٩٧، ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤.

سمـاعهـا؛ الأولى: كـانت دفـع مبلـغ مئتي ألف دينـار بـالـديلم للعلوي يحيى بن عبد الله ليقويه ضد الخليفة فيقتله، والثانيـة أنه أرسـل إلى أحمد بن عيسى بن زيـد بـالبصرة مبلـغ سبعين ألف دينـار، والثالثـة والأخيرة أنـه رفض إعطاء عيـال الرشيـد مبلـغ مليون درهم وأجبره على استعارة المال بينما هو (أي يحيـى) فـرَّق إلى عمالـه مليون ونصف المليون درهم[1].

* * *

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٣.



الغنى المفرط

في الحقيقة، يبدو أن أموال البرامكة بلغت نسباً خيالية، وخير دليل على ذلك البذخ الفاحش الذي بُذل في إنشاءاتهم وأملاكهم.

فهذا جعفر البرمكي يصرف الأموال الهائلة ليبني قصراً أثارت ضخامته لدى إبراهيم بن المهدي قلقاً على مستقبل جعفر. وقد حدَّثنا الطبري[٢] عن ذلك، فقال: ذكر يعقوب بن إسحاق أنَّ إبراهيم بن المهدي حدَّثه، قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها، فقال لي: أما تعجب من منصور بن زياد؟ قال: قلت: فبماذا؟ قال: سألته: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة. قال إبراهيم: فقلت: الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له. قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول: يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته..! وأين صلاته..! وأين النوائب التي تنوبه..! وما أظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك..! وهذه جملة سريعة إلى القلب والموقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع مني قلت: إن لأمير

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩١.

المؤمنين نعماً على قوم كفروها بالستر لها أو بإظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي، فوضعتها في رأس جبل، ثم قلت للناس: تعالوا فانظروا. وهذا ما ذهب إليه ابن خلكان[٣]، إذ قال: إن جعفراً بنى داراً عزم عليها عشرين ألف. . . ألف درهم، فرفع ذلك في الرشيد، وقيل: هذه غرامة في دار فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك؟ فاستعظمه.

وقد أشار شاعر مجهول إلى تلك الدار بقصيدة رُفعت إلى الرشيد، قال فيها:

قل لأمين الله في أرضه	ومن إليه الحلّ والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً	مثلك ما بينكما حدّ
أمرك مردود إلى أمره	وأمره ليس له ردّ
وقد بنى الدار التي ما بنى الـ	ـفرس لها مثلاً ولا الهند
والدرّ والياقوت حصباؤها	وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه دارت	ملكك إن غيبك اللحد
ومن يباهي العبد أربابه	إلّا إذا ما بطر العبد[١]

ومن جهته يحيى الذي أقام في البداية في قصر باب الشماسية المُقام من قبل والده على إقطاع للمهدي[٢]، بنى لنفسه في نفس المحلة قصر التين، وبالقرب منها بنى الفضل وجعفر مساكنهما الخاصة[٣].

ويروى أنه وجد لجعفر بن يحيى بركة في داره التي في سويقة جعفر، فيها أربعة آلاف دينار، وزن كل دينار مئة دينار ودينار، وعلى كل دينار من أحد جانبيه:

واصفر من ضرب دار الملوك	يلوح على وجهه جعفر

(٣) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٤٤.

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٨٩.

(٣) نفس المصدر ص ١٨٩.

ومن الجانب الآخر:

يزيد على مئة واحداً إذا ناله معسر بيسر[1]

وكان الرشيد إذا سافر لم يمر بضيعة أو بستان إلَّا قيل هذا لجعفر[2]

وامتلك البرامكة الضياع الجميلة وكأن ضياع الدولة ضياعهم، وهذا الغنى الفاحش استرعى انتباه الرشيد ودفعه إلى القول لأحد أتباعه وهو ينظر ضياع البرامكة: «. . . أنظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم، لا أعرف لأحد من أولادي ضيعة من ضياع البرامكة على طريق واحد قرب هذه المدينة، فكيف بما هو لهم غير ذلك على غير هذا الطريق في سائر البلاد؟» ثم أردف يقول: «ما عدَّ البرامكة بني هاشم إلَّا عبيدهم ـ وإنهم هم الدولة وأن لا نعمة لبني العباس إلَّا والبرامكة أنعموا عليهم بها»[3]

وجاء في العقد الفريد[4] أنَّ الرشيد كان يقول: فضياعهم (أي البرامكة) ليس لولدي مثلها وتطيب نفسي بذلك لهم».

وذكر المسعودي[5] في «مروجه» أنَّ البرامكة احتجزوا الأموال دون الرشيد حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر.

وبلغ غنى البرامكة مرحلة دفعت أحد أعمام الرشيد إلى تحذير البرامكة من نظرات الخليفة الغيورة، هذا ما ذهب إليه المسعودي[6]، إذ قال: «حكي أنَّ بعض عمومة الرشيد صار إلى يحيى بن خالد عند تغير الرشيد له، وقبل الإيقاع بهم»، فقال: «إن أمير المؤمنين قد أحب جمع الأموال وقد كثر ولده فهو يريد أن يعقد لهم

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤١.

(٢) الدميري: **الحيوان** ج ٢ ص ١١٢.

(٣) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٢.

(٤) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٦٦.

(٥) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٣٣.

(٦) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٥٧.

الضياع وقد كثر عليك وعلى أصحابك عنده، فلو نظرت إلى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لولد أمير المؤمنين وتقرَّبت إليه بها لرجوت أن يكون ذلك سبب السلامة لك ورجوعه إلى ما عهدته»، فقال له يحيى: «والله لأن تزول النعمة عني أحبّ إليَّ من أن أزيلها عن قوم كنت سببها إليهم».

وهذا الغنى المفرط دفع البرامكة إلى الاستمتاع بحياة مفعمة بالترف والرخاء، وإلى التأنق في المظهر والملبس، فكان جعفر بن يحيى مثلاً يُحتذى في اتخاذ الأزياء، فذكر أنه كان أول من عرض الجربانات لطول عنقه[1] وحشاها بالقطن وما زال الناس ينسبونها إلى ابن برمك ويقولون: «جربانات برمكية»[2].

واعتنى النساء في زينتهن وأناقتهن، فيقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتجلى بعقد من الجوهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار[3]. وكان قد أهداه إليها الرشيد. ويقال أنَّ عريب[4] المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه في كل غسلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً[5]. ويقال أيضاً أنَّ قصور البرامكة غصت بالرقيق والجواري حتى يُروى أنه كان لعتابة أم جعفر بن يحيى مائة وصيفة لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف لبوس الأخرى وحليها[6].

وامتد البذخ والإسراف إلى مجالس البرامكة، فكساها بالأثاث الفاخر والتحف النادرة، فلمّا دخل الأصمعي أحد مجالس الفضل بن يحيى وصفه قائلاً: ما رأيت أنجب من البرامكة رجالاً وأطفالاً ولا أشرف منهم أحوالاً، ما أعلم أني حضرت يحيى والفضل ولا جعفر إلاّ انصرفت عنهم ولإخواني بالحباء الجزيل.

---

(١) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ٣ ص ٥٤٩.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٥.

(٣) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٦ ص ٢٧٣.

(٤) قيل إن غريب هي ابنة جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك: الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٨ ص ٤١٢؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٧ ص ٤٤٠.

(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤١.

(٦) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢١٣ ـ ٢١٥.

ثم قال: طرب الفضل بن يحيى إلى مذاكرتي، فأتاني رسوله، وكان يوماً بارداً ذا صرّ وقرّ. فقال: أجب الوزير، فمضيت معه، فلمّا دخلت عليه إذا هو بهوله قد فرش بالسمّور وهو في دست منه وعلى ظهره دواج سمّور مبطن بخز، وبين يديه كانون فضّة فوقه أثفية ذهب في وسطها تمثال أسد رابض، في عينيه ياقوتتان تتوقدان، وفوق الصينية إبريق زجاج فرعوني وكأس كأنها جوهرة محفورة تسع رطلاً، ولا أظنها يفي بها مال كثير، وهو على سرير من عاج وأنا عليّ ثياب قطن، فسلّمت عليه، فردَّ السلام وقال لي: يا أصمعي ليس هذا من ثياب هذا اليوم. قلت: أصلح الله الوزير، إنما يلبس الرجل ما يجد. فقال: يا غلام إلقِ عليه شيئاً من الوبر، فأتيت بمثل ما عليه فلبسته، حتى الجورب، ثم أتى بخوان لم أدرِ ما جنسه غير أني تحيَّرت في جنسه وبصفحة مشمسة فيها لون من مخّ الطير فتناولنا منها.

ثم تتابعت الألوان فأكلت من جميع ما حضر، ألا والذي اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة ما عرفت منها لوناً واحداً، إلا أني لم آكل في الدنيا شيئاً يدنيها قط لذة وطيباً عند خليفة ولا ملك، ثم رفع الخوان وأتينا بألوان من الطيب، فغسلنا أيدينا، وكنت كلّما استعملت منه لوناً ظننته أطيب ما في الدنيا من عطر فاخر حتى إذا استعملت غيره زاد عليه طيباً، فلمّا فرغنا من ذلك إذا غلام قد أقبل معه جام بلّور فيه غالية قد ازرقّت بكثرة العنبر، فتناولنا بملعقة من الذهب حتى نضحناه، فصرت كأني جمرة، ثم قال: اسقنا، فسقاه رطلاً وسقاني مثله، فما تجاوز والله لهائي حتى كدت أطير فرحاً وسروراً وصرت في مسلاخ ابن عشرين طرباً.

ولم يقتصر الإسراف على ذلك فقط، بل شمل أيضاً عطايا البرامكة، فهذا يحيى بن خالد يهب أحد الناس جميع ما عند وكلائه من مال، وقد روى لنا ذلك البيهقي[1]، فقال: إن يحيى قال لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: كم عند

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٩٩.

وكلائنا من المال؟ قال: سبع مائة ألف درهم. قال: فأقبضها إليك، فغدا إليه، فقبَّل يده ومنصور بن زياد عنده، فلمّا خرج الرجاء قال لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهَّم أنّا وهبنا له هذا المال وإنما أمرنا بقبضه ليكون معنا في هذا الوجه. فقال منصور: فأنا أعلمه ذلك. قال: إذن يقول: فقل له يقبِّل يدي كما قبَّلت يده، فلا تقل له شيئاً. . وترك المال له.

ويحدِّثنا محمد بن علي بن عيسى بن ماهان، عن محمد بن يزيد، أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى وقد خرج من الحمّام بعد العصر وهو يقول: أعوذ بالله من النار! فقلت: جعلت فداك! اشترِ هذا الوجه الحسن من النار، فدعا بخمس مائة ألف درهم وقال: اشتر بها وجهي الساعة، فقلت: جعلت فداك! الوقت ضيق ولكن غداً إنشاء الله، فقال: لا والله إلّا الساعة، فوجهت إلى القضاة في الجانبين بثلاثمائة ألف درهم وحملت إلى أبي محمد السمرقندي منها صدراً وأمرتهم عنه بتفريق وفرَّقت البقية بحضرتي، فلم تغِب الشمس حتى فرَّق ذلك كله[1].

ودفع أحد الناس إلى أبي النضير الشاعر رقعة ليوصلها إلى الفضل بن يحيى يسأله فيها الإذن له في ابتياع ضيعة بفارس، وكان مبلغ ما يوزن في ثمنها مائة ألف درهم، فأخذها الشاعر ودفعها إلى الفضل، فنظر فيها ووضعها. وفي اليوم التالي طلب خزان بيت المال الشاعر وقالوا له: أحضر من يحمل المائة الألف إلى صاحب الرقعة، فحملها إلى صاحبها[2].

ولمّا أقبلت خنفساء إلى أبي علقمة الثقفي ــ الذي كان عند جعفر بن يحيى في بعض لياليه التي يسمر فيها ــ قال: أليس يقال إن الخنفساء إذا أقبلت إلى رجل أصاب خيراً؟ قالوا: بلى؟ قال جعفر بن يحيى: يا غلام، أعطِه ألف دينار. قال: فنحوها عنه فعادت إليه، فقال: يا غلام، أعطه ألف دينار. فأعطاه ألفي دينار[3].

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٩ ــ ٢٠٠.

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٠.

(٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٣.

مما لا شك فيه أنَّ هذه الوقائع تدلّ على الإسراف الذي نهجه البرامكة في حياتهم وأنَّ هذا الكرم الزائد ـ إذا صحَّ التعبير ـ المبالغ فيه، الذي لا يقرّه عقل، يعود إلى خصال البرامكة وطبائعهم، فكان يحيى مثلاً يقول: أسرف، فإن الشرف في السرف[1]، وإلى بحبوحة العيش التي تنعموا بها في تلك الفترة.

والآن وبعد ذكر أهم الاتهامات التي وُجِّهت إلى البرامكة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كانت هذه الاتهامات كافية لإثارة غيظ الخليفة للإيقاع بهم؟ أم أنها كانت سبباً إضافياً إلى أسباب نكبتهم؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الفصل التالي.

* * *

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٩٩.

الفصل الثالث

نكبة البرامكة

١ - أسباب النكبة
٢ - مقتل جعفر



أسباب النّكبة

عند التطرُّق إلى هذه الحادثة يتساءل القارىء: لماذا نكب الرشيد البرامكة بعد أن عظم نفوذهم وبعد أن ساهم هو في علوّ شأنهم وبلوغهم هذه المنزلة الرفيعة؟

للردّ على هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى أنه على الرغم من اهتمام المؤرخين بمعالجة هذه الحادثة فإنهم اختلفوا اختلافاً كبيراً في تعليل الأسباب التي دفعت الرشيد إلى التنكيل بهم.

وقد أقر المؤرخون أنفسهم بهذا الخلاف.. فالطبري[1] مثلاً يقول: «أما سبب غضبه عليه (أي على جعفر) الذي قتله عنده، فإنه مختلف فيه». ويقول المقدسي[2]: «واختلفوا في السبب الذي حمله ذلك». ويقول المسعودي[3]: «واختلف الناس في سبب إيقاعه بهم». ويقول أبو الفداء[4]: «وقد اختلف في سبب ذلك اختلافاً كثيراً».

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٨٧.

(٢) المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١٠٤.

(٣) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٣٣.

(٤) أبو الفداء: **المختصر في أخبار البشر** ج ٣ ص ٢٣.

ويقـول ابن كثيـر[1]: «وقـد اختلف في سبب ذلـك». ويقـول اليـافعي[2]: «اختلف التاريـخ في سبب تغير الرشيد عليهم». وكذلك يقول ابن خلكان[3]: «وقد اختلف أهـل التـاريخ في سبب تـغيُّـر الـرشيـد عليـهم». وكـذلـك يـقـول ابن الطقطقي[4]: «اختلف أصحاب السِّيَر والتواريخ في السبب في ذلك». وكذلك قال اليعقوبي[5]: «إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بن خالد بغير أمر متقدم، وإن أكثر الناس في أسباب السخط عليهم مختلفون».

واعتـراف المؤرخين بهذا الاختـلاف أدى إلى إحاطـة هذه النكبـة بالغمـوض والتناقض، وبالتالي إلى فسـح المجال أمام الأقوال الكثيرة.

حسب بعض الروايات أن البـرامكة شعـروا بنكبتهم عن طريق الفـأل السيِّـىء وعلامات الشؤم، فيحيـى الذي كان عالماً بالتنجيم[6] توقَّـع إيقـاع الرشيـد بهم قبل حدوثه فأخبر إسماعيل بن صبيـح بذلك محدِّداً له تاريـخ وقوع النكبة. هذا مـا رواه إسماعيل بن صبيـح، حيث قال إنه كان يوماً بين يدي يحيـى بن خالد، فدخل عليه جعفر، فلما رآه أشاح بوجهـه عنه وتكـرَّه رؤيته، فلمـا انصرف قـال له: «أطـال الله بقاءك! تفعل هذا بابنك وحاله عند الرشيد حالة لا يقـوم عليه ولـداً ولا وليّاً، فقـال: «إليك عني أيها الرجل، فوالله لا يكون هلاك أهل هـذا البيت إلاَّ بسببه». فلمـا كان بعد مدة من ذلك دخل عليه أيضاً جعفـر وأنا بحضـرته، ففعـل به مثـل فعله الأول، فأعدت عليه القول، فقال لي: ادن مني الدواة، فـأدنيتها، فكتب كلمـات يسيرة في رقعـة وختمها ودفعهـا إليَّ وقـال لي: لتكن عنـدك فـإذا دخلت سنـة سبـع وثمـانين ومضى المحرَّم فانظر فيها. فلما كان في صفر أوقـع الرشيـد بهم فنظرت فيهـا فكان

(١) ابن كثير: **البداية والنهاية** ج ١٠ ص ١٨٩.
(٢) اليامغي: **مرآة الجنان** ج ١ ص ٤٠٨.
(٣) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٣.
(٤) ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٩.
(٥) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤٢٢.
(٦) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٩.

الوقت الذي ذكره[1].

ولما عزم جعفر على الانتقال إلى قصره الجديد في باب الشماسية في الوقت الذي اختاره له المنجم التقى في أحد الأسواق رجلاً ينشد:

تدبر بالنجوم وليس يدرى ورب النجم يفعل ما يريد

فاستوحش ووقف ودعا بالرجل، فقال له: أعِد ما قلت، فأعاده، فقال له: «ما أردتَ بهذا»؟ فقال: «والله ما أردت به معنى من المعاني ولكنه شيء عرض لي وجاء على لساني في هذا الوقت»، فأمر له بدنانير ومضى وقد تنغَّص عليه سروره[2].

وعندما قصد جعفر بن يحيى قصر السدير (من أشهر قصور الحيرة) وطاف حوله ونظر إلى بنائه، لفت نظره كتاب في أعلاه: «فأمر من صعد إلى الموقع فقرأه فقال في نفسه: قد جعلته فألاً لما أخافه من الرشيد، فقرىء فإذا هو:

إن بني المنذر عام انقضوا بحيث شاء البيعة الراهب
أضحوا لا يرجوهم راغب يوماً ولا يرهبهم راهب
وأصبحوا أكلاً لدود الرضى وانقطع المطلوب والطالب

فحزن جعفر لذلك وصار ينشد الأبيات ويقول: ذهب والله أمرنا»[3].

وقال سهل بن هارون: إني لأحصل أرزاق العامة بين يدي يحيى بن خالد في بناء خلابه داخل سرادقة وهو مع الرشيد بالرقة وهو يعقدها جملاً بكفه إذ غشيته سآمة وأخذته سنة فغلبته عيناه، فقال: ويحك يا سهل! طرق النوم شفري وحلَّت السنة جفني، فما ذاك؟ قلت: ضيف كريم إن قرَّبته روَّحك، وإن منعته عنتك، وإن طردته طلبك، وإن أقصيته أدركك، وإن غالبته غلبك. قال: فنام أقل من فواق بكية

(١) نفس المصدر ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٧ كذلك ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٤٥؛ الأصبهاني: **أدب الغرباء** ص ٤٥ مع تغيير النص.

(٣) الشابشتي: **الديارات** ص ٢٣٨.

أو نزع من ركبة ثم انتبه مذعوراً، فقال: يا سهل لأمرٍ ما كان والله قد ذهب مُلكنا وولّى عزنا وانقضت أيام دولتنا. قلت: وما ذاك أصلح الله الوزير؟ قال: كأن منشداً أنشدني:

كأن لم يكن بين الجحون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فأجبته عن غير روية ولا إجالة فكرة:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر[1]

وفي أحد الأيام سمع أحد الناس جعفر بن يحيى يقول: ليس لدارنا هذه عيب إلاّ أن صاحبها فيها قليل البقاء ويعني نفسه[2].

وحسب بعض الروايات الأخرى: شعر البرامكة بنكبتهم، لأنهم لاحظوا بأنفسهم ـ أو بواسطة أناس آخرين ـ عند الخليفة زوال حظوة وعدم رضى متزايدين.

فمن ذلك ما سعى به علي بن عيسى بن ماهان عند الرشيد في أمر خراسان وطاعة أهلها له وأنه يكاتبهم ويعمل على الوثوب به معهم، فحبسه الرشيد ثم أطلقه بعد تدخّل أم الفضل بن يحيى في أمره، فكان ذلك أول ثلمة ثلموا بها[3].

ومن ذلك أيضاً ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل، عن أبيه، أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد ـ وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلّم ردَّ عليه رداً ضعيفاً، فعلم

(1) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٥٨ ـ ٥٩، وتوجد رواية مماثلة لها: ذكرها الجهشياري: **الوزراء والكتاب** مفادها أن يحيى روى عشية المحنة، إلى موسى بن نصير أنه رأى حلماً مزعجاً وسيّئاً ولاحظ النجوم بعد ذلك دلّته على قرب النهاية: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(2) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٢.

(3) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٧.

يحيى أن أمرهم قد تغيَّر. قال: ثم أقبل على الرشيد فقال: يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: ما بالنا يدخل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلاَّ شيء كان خصَّني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا. قال: وكان من أرق الخلفاء وجهاً ــ وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره، لكن الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى[1].

وذُكر عن أحمد بْن يوسف أن ثمامة بن أشرس، قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى أمور عبادك! أتراك تحتج بحجة يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع: فدعا الرشيد يحيى ــ وقد تقدَّم إليه خبر الرسالة ــ فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام. فأمر به فوضع في المطبق دهراً، فلما تنكَّر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأُحضر فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: تقول هذا! قال: نعم، وضعت في رجلي الأكبال، وحلت بيني وبين العيال، بلا ذنب أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك! قال: صدقت. . وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب ما في

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٧.

قلبي، فأمر أن يُعطى مائة ألف درهم، فأحضرت. فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم قد أنعمت عليَّ وأحسنت إليَّ. قال: انتقم الله ممن ظلمك، وأخذ لك بحقك فمن بعثني عليك؟ قال: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغيُّر حالهم[1].

وهكذا رأينا كيف قبض الرشيد على محمد بن الليث وحبسه (نظراً لمكانة البرامكة عنده) لنصحه له بوضع حد لسلطان البرامكة ونفوذهم، وكيف عاد عن رأيه (قبيل نكبة البرامكة) وأطلق سراحه معتذراً له. فهذا التصرف إن دلَّ على شيء فإنه يدلّ على التحوُّل الذي بدأ ينال نفسية الرشيد تجاه البرامكة وقد ظهر هذا التحول أيضاً في تصرفات أخرى صدرت عن الرشيد، منها ما ذكره الطبري في حوادث سنة سبع وثمانين ومائة، إذ قال: دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألَّا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار. قال: فدخل فلم يقم إليه أحد فأربد لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه. قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً[2].

ومنها أيضاً اتهام الرشيد ليحيى البرمكي بالخيانة بمجرد أنه عاد على عقبيه بعدما هم بالدخول عليه[3].

وقد جاء في كتاب شرح نهج البلاغة[4]: يقال إن أول ما ظهر من تغيُّر الرشيد له (أي لجعفر) أنه كلَّم الفضل بن الربيع بشيء فردَّه عليه الفضل ولم تجر عادته من قبل أن يفتح فاه في وجهه، فأنكر سليمان بن أبي جعفر ذلك على الفضل، فغضب الرشيد لإنكار سليمان وقال: ما دخولك بين أخي ومولاي كالراضي بما كان من الفضل.

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٨٨.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٨٨؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٧.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٧.

(٤) كتاب **شرح نهج البلاغة** ج ٥ ص ٢٧٤.

ومما يؤيد تغيُّر الرشيد على البرامكة ما يحدّثنا به أحد المعاصرين، وهو جبريل الطبيب، إذ قال إنه دخل على الرشيد يوماً وهو جالس على بساط، على مشرعة خراسان فيما بين الخلد والفرات وأم جعفر من وراء ستر، فقال لي: قد وجدت أم جعفر شيئاً فأشر عليها بما تعمل به. قال: فبينما أنا أنظر في ذلك ارتفعت صيحة عظيمة، فسأل عنها فقيل له: يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين، فقال: بارك الله عليه، وأحسن جزاءه فقد خفف عني وحمل الثقل دوني وناب منابي وذكره بجميل فعلته مثل ذلك أم جعفر ولم تدع شيئاً يذكره أحد من جميل إلاّ ذكرته به، فامتلأت سروراً وقلت في ذلك ما أمكنني، وخرجت مبادراً إلى يحيى بن خالد فخبرته بذلك فسرَّ به، ومضت مدة، ثم جاءني رسول الرشيد يوماً فصرت إليه فوجدته جالساً في ذلك المجلس بعينه وأم جعفر من وراء الستر أيضاً والفضل بن الربيع بين يديه وقد وجدت أم جعفر شيئاً فأمرني بتأمل علتها والمشورة بما أراه عليها فإني لفي ذلك إذ ارتفعت ضجة شديدة، فقال الرشيد: ما هذا؟ فقيل: يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين، فقال: فعل الله به وفعل! يذمه ويسبّه استبد بالأمور دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما أَحَبه دون محبتي، وتكلَّمت أم جعفر بنحو من كلامه وثلبته أكثر ما يثلب به أحد...[1].

وقد لاحظ جعفر البرمكي بنفسه هذا التغيُّر في موقف الخليفة وكلَّف ـ في أحد الأيام ـ خليله إبراهيم بن المهدي بمراقبته وقال له: إني قد استربت بأمر هذا الرجل ـ يعني الرشيد ـ وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق في نفسي منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فأرمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه[2].

وبعد أن اطلع ابن المهدي على حقيقة موقف الرشيد من البرامكة قصد

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٨، مع الإشارة إلى أن ابن الطقطقي قد نسب الحديث إلى بختيشوع الطبيب مع تغيير في النص.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩١؛ الصولي: **أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق** ص ٤٦.

جعفر في نفس اليوم وقال له: «رأيته يجد إذا هـزلت ويهزل إذا جـددت وهذه نهـاية التغيير فقال: صدقت والله يا خليلي ونحن نستكفي الله بوادره»[1].

وقد نصح يحيى بن خالد ابنه جعفر بعدم دخوله مع الرشيد في كل شيء اتقاء للعاقبة، نذكر أن يحيى كتب إلى جعفر يوماً حين أعيته حيلته فيه: «إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوى لها. قال: وكان يحيى قد قال للرشيد: «يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك، ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليَّ منك، فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك، كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك علي. قال الرشيد: يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل[2].

وقد أرجع بعض المؤرخين[3] سبب النكبة إلى غضب الرشيد على البرامكة، لأن جعفر البرمكي أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوي دون استئذانه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن جعفر شجَّع هروب العلوي (يحيى) إلى مأمنه، في الوقت الذي كان فيه الرشيد مشغولاً بالمعارضة الشيعية وفي البحث عن العلويين الذين يمكن تواجدهم في خراسان[4].

بينما أرجع مؤرخون[5] آخرون سبب النكبة إلى اتهام البرامكة بالزندقة وإفساد الملك.

وقيل: كان من الأسباب أن الأعداء (الذين حسدوا البرامكة على المرتبة العالية التي بلغوها) نجحوا في ستر المحاسن وإظهار القبائح[6]، وما زالوا يسعون

---

(١) الصولي: نفس المصدر السابق ص ٤٦.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩١.

(٣) راجع ص ٣٨ ــ ٣٩ فيما تقدَّم.

(٤) الأصبهاني: مقاتل الطالبيين ص ٤٩٣، (بالنسبة لعبد الله بن الحسين بن علي).

(٥) راجع ص ٣٥ ــ ٣٦ فيما تقدم.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٥.

بهم إلى الرشيد ويذكرون استبدادهم بالملك واحتجازهم للأموال حتى أوغروا صدر الرشيد فأوقع بهم[1]، وكان الفضل بن الربيع[2] من أشهر هؤلاء الأعداء المنافسين للبرامكة، وقد قال عنه ابن خلكان[3]: «كان الفضل بن الربيع يروم التشبُّه بالبرامكة ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم، فكان في نفسه منهم إحن وشحناء».

ولما شعر البرامكة بما يضمره لهم الفضل من حقد وحسد ومن رغبة في القضاء عليهم بدأوا بمعاكسته ورفض طلباته، إذ يُحكى أن الفضل بن الربيع دخل يوماً على يحيى بن خالد البرمكي وقد جلس لقضاء حوائج الناس وبين يديه ولده جعفر يوقع في القصر فعرض الفضل عليه عشر رقاع للناس فتعلَّل يحيى في كل رقعة بعلة ولم يوقع في شيء منها البتة، فجمع الفضل الرقاع، وقال: ارجعن خائبات خاسئات، ثم خرج وهو يقول:

عسى وعسى يثني الزمان عنانه ... بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائف ... وتحدث من الأمور أمور

فسمعه يحيى وهو ينشد ذلك، فقال له: عزمت عليك يا أبا العباس ألا رجعت، فرجع فوقَّع له في جميع الرقاع ثم ما كان إلَّا القليل حتى نُكبوا على يده وتولَّى بعدهم وزارة الرشيد، وفي ذلك يقول أبو النواس، وقيل أبو حزرة:

---

(١) ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٩.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٩؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٥؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٩.

(٣) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٧، ومن الأدلة على ذلك ما رواه الأصبهاني حيث قال: في أحد المرات أنشد أبو العتاهية الفضل بن الربيع:

ولّى الشباب فما له من حيله ... وما ذؤابتي المشيب خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم ... بالأمس أعظم أهلها أخطارا

فلمّا سمع (الفضل بن الربيع) ذِكْر البرامكة تغير لونه ورأيت الكراهية في وجهه فما رأيت منه خيراً بعد ذلك: الأصبهاني: **الأغاني** ج ٣ ص ٣٢٨.

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهراً لم يرعى عهداً ليحيى غير راع زمام آل الربيع[1]

ولمّا طلب الرشيد من جعفر تسليم الفضل بن الربيع، نديمه الجديد، إدارة بريد الموصل وديار ربيعة، الموكلة حينئذ لأحد البرامكة (الفضل)، عارض يحيى ذلك، ولكن الفضل سيثأر من ذلك بتقديمه للرشيد، بمناسبة فصله، هدية لم يسمع بمثلها مما زاد، بالمقابلة مع تغيّر البرامكة، رصيده عند الخليفة وسيعود يحيى عن قراره ولكن بعد فوات الأوان[2].

ولم تقف العداوة عند هذا الحد، بل اشتدت وشاعت بين أنصارهم وخاصتهم، فمن ذلك ما يحدثنا به حماد، حيث قال:

لقي الفضل بن يحيى أبي وهو خارج من عند الفضل بن الربيع ـ وكانا متجاورين في الشماسية ـ فقال:

من أين يا أبا إسحاق؟ أمن عند الفضل بن الربيع؟

قلت: نعم، غير متعذر من ذلك.

فقال: خروج من عند الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى؟ هذان والله أمران لا يجتمعان لك[3].

وقائع كهذه تؤكِّد الحكم الذي يعطيه عبيد الله بن سليمان بن وهب، إذ قال: إذا أراد الله تعالى هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسباباً، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع وسعي الفضل بهم وتمكُّنه من المجالسة مع الرشيد فأوغر قلبه عليهم ومالأه على ذلك كاتبهم إسماعيل بن صبيح حتى كان

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٩.
(٣) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ١١ ـ ١٢.

ما كان[1].

والسعي بالبرامكة لدى الرشيد لم يقتصر على الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح . . فما بلغ إليه البرامكة من الغنى والجاه ورفعة الشأن أوغر صدور أقرب المقربين إليهم وحملهم على محاربتهم والمكر بهم «حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أواصر القرابة[2].

وما أن شعر جعفر بكثرة أقوال الوشاة الحساد حتى بات طلبه الوحيد من الرشيد هو أن يكون مثله (أي مثل جعفر) عدواً لدوداً لهؤلاء الوشاة النمّامين . . هذا ما أخبرنا به المأمون حين قال: «شهدت جعفر بن يحيى وقد ودع الرشيد، فقال: سل حاجتك يا أبا الفضل، فقال: تجعل بيني وبينك بيت كُثير، حيث يقول:

وكوني على الواشين لداء شغبة ... كما أنا للواشي ألد شغوب

وهذه الحاجة ما قدر أن تقضى»[3].

وقيل: إن احتجان الأموال[4] كان من أسباب نكبتهم، وخير دليل على ذلك ما ذكره الطبري[5] في حوادث سنه تسع وعشرون ومائتين عن لسان عزون بن العزيز الأنصاري أنه قال: قال الواثق: مَن منكم يعلم السبب الذي به وثب جدي الرشيد على البرامكة فأزال نعمتهم؟ قال عزون: فقلت: أنا وا الله أحدثك يا أمير المؤمنين، كان سبب ذلك أن الرشيد ذكرت له جارية لعون الخياط، فأرسل إليها فاعترضها، فرضي جمالها وعقلها وحُسن أدبها، فقال لعون: ما تقول في ثمنها؟ قال: يا أمير المؤمنين، أمر ثمنها واضح مشهور، حلفت بعتقها وعتق رقيقي

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٧.
(٢) ابن خلدون: **المقدمة** ص ١٦.
(٣) الحميري: **كتاب الروض المعطار** ص ٣٥٨.
(٤) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٣٣.
(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٩ ص ١٢٦ ــ ١٢٧.

جميعاً وصدقة مالي الأيمان المغلظة التي لا مخرج منها لي، وأشهدت عليَّ بذلك العدول ألا أنقص ثمنها عن مائة ألف دينار، ولا أحتال في ذلك بشيء من الحيل، هذه قضيتها. فقال أمير المؤمنين: قد أخذتها منك بمائة ألف دينار، ثم أرسل إلى يحيى بن خالد يخبره بخبر الجارية ويأمره أن يرسل إليه بمائة ألف دينار، فقال يحيى: هذا مفتاح سوء، إذا اجترأ في ثمن جارية واحدة على طلب مائة ألف دينار فهو أحرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل يخبره أنه لا يقدر على ذلك، فغضب عليه الرشيد وقال: ليس في بيت مالي مائة ألف دينار، فأعاد إليه: لا بدَّ منها فقال يحيى: اجعلوها دراهم ليراها فيستكثرها فلعله يردها، فأرسل بها دراهم وقال: هذه قيمة مائة ألف دينار، وأمر أن توضع في رواقه الذي يمر فيه إذا أراد المتوضَّأ لصلاة الظهر. قال: فخرج الرشيد في ذلك الوقت، فإذا جبل من بدر، فقال: ما هذا؟ قالوا: ثمن الجارية، لم تحضر دنانير، فأرسل قيمتها دراهم، فاستكثر الرشيد ذلك ودعا خادماً له فقال: اضمم هذه إليك واجعل لي بيت مال لأضم إليه ما أريده وسماه بيت مال العروس، وأمر بردِّ الجارية إلى عون، وأخذ في التفتيش عن المال، فوجد البرامكة قد استهلكوه، فأقبل يهمّ بهم ويمسك، فكان يرسل إلى الصحابة وإلى قوم من أهل الأدب وغيرهم فيسامرهم، ويتعشى معهم، فكان فيمن يحضر إنسان كان معروفاً بالأدب، وكان يُعرف بكنيته يقال له أبو العود، فحضر ليلة فيمن حضره فأعجبه حديثه، فأمر خادماً له أن يأتي يحيى بن خالد إذا أصبح، فيأمره أن يعطيه ثلاثين ألف درهم، ففعل، فقال يحيى لأبي العود: إفعل، وليس بحضرتنا اليوم مال يجيء المال، ونعطيك إن شاء الله. ثم دافعه حتى طالت به الأيام، فقال: فأقبل أبو العود يحتال أن يجد من الرشيد وقتاً يحرضه فيه على البرامكة ــ وقد كان شاع في الناس ما كان يهم به الرشيد في أمرهم ــ فدخل عليه ليلة فتحدثوا، فلم يزِل أبو العود يحتال للحديث حتى وصله بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ... ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِد

واستبدَّت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبدّ

فقال الرشيد: أجل والله، إنما العاجز من لا يستبدّ، حتى انقضى المجلس، وكان يحيى قد اتخذ من خدم الرشيد خادماً يأتيه بأخباره، وأصبح يحيى غادياً على الرشيد، فلما رآه قال: قد أردت البارحة أن أرسل إليك بشعر أنشدنيه بعض من كان عندي، ثم كرهت أن أزعجك، فأنشده البيتين، فقال: ما أحسنهما يا أمير المؤمنين! وفطن لما أراد، فلما انصرف أرسل إلى ذلك الخادم، فسأله عن إنشاد ذلك الشعر، فقال: أبو العود أنشده، فدعا الوزير يحيى بأبي العود، فقال له: إنا كنا قد لويناك بمالك، وقد جائنا مال، ثم قال لبعض خدمه: إذهب فاعطه ثلاثين ألف درهم من بيت مال أمير المؤمنين، وأعطه من عندي عشرين ألف درهم لمطلنا إياه، واذهب إلى الفضل وجعفر فقُل لهما: هذا رجل مستحق أن يبر، وقد كان أمير المؤمنين أمر له بمال فأطلت مطلبه، ثم حضر المال، فأمرت أن يعطى ووصلته من عندي صلةً، وقد أحببت أن تصلاه، فسألا: بكم وصلة؟ قال: بعشرين ألف درهم، فوصله كل واحد منهما بعشرين ألف درهم، فانصرف بذلك المال كله إلى منزله. وجدَّ الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم، وأزال نعمتهم، وقتل جعفراً وصنع ما صنع.

وفي هذا المجال، كان للرشيد بعض المآخذ الأخرى على البرامكة، فيُروى أن الرشيد خاطب يحيى ــ بواسطة مسرور ــ بعد أن أحضره من السجن قائلاً له: أنت تعلم موقع عيالي مني، فطلب منك وأنا بالبصرة ألف ألف درهم وقد كان ورد من مال فارس ستة آلاف درهم، فقلت لي: إن أخذت منها درهماً واحداً لهذا الشأن ذهبت هيبتك فأمسكت فأخذت أنت منها ألف ألف وخمسماية ألف درهم ففرقتها في عمالك[1].

وعندما طلب الرشيد من منصور بن زياد دفع عشرة آلاف درهم وأمره بإحضارها قبل مغيب الشمس وإلاَّ ضرب عنقه، أنقذه يحيى بن خالد من الموت

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٤٣، علماً بأن جعفر بني دارا أنفق عليها عشرين ألف ألف درهم، راجع ص ٤٠ فيما تقدم.

بعد أن دفع المبلغ المطلوب منه[1].

ولمّا طلب الرشيد عشرة آلاف درهم من جعفر بن يحيى أعطاه خمسة آلاف، وقد حصل ذلك عندما عزم الرشيد على الفصد، فقال لجعفر: يا أخي، أنا على الفصد وأريد التشاغل بالنساء فكم تبعث إليَّ مما أهيئه لهنَّ؟ قال: ما شاء أمير المؤمنين. قال: عشرة آلاف درهم. قال: وأين المال؟ ولكن خمسة آلاف درهم. قال: هاتها. فبعث بها إليه[2].

وذكر أن الرشيد أمر مسروراً أن يضرب الفضل بن يحيى مائتي سوط لإخفائه الأموال عنه[3]، ولمّا بلغ الرشيد أن ليس لديهم شيئاً من المال والجواهر، قال: «وكيف وقد نهبوا مالي وذهبوا بخزائني»[4].

والآن، وبعد ذكر هذه النصوص أصبح من اليسير القول أن المال كان من بين الأسباب التي حملت الرشيد على التنكيل بالبرامكة لتصبح جميع أموال الخلافة تحت قبضته يتصرف بها دون مشاركة أحد.

ويُروى أن الأمين لمّا حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة ردّه جعفر بن يحيى وقال له: «إن غدرت بأخيك خَذَلك الله»، حتى فعل ذلك ثلاثاً في كلها يحلف له، ولهذا السبب اضطغنت (كذا) أم جعفر على جعفر بن يحيى فكانت إحدى من حرَّض الرشيد على أمره وبعثه على ما نزل به[5].

وكانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدَّمها أحد من نظرائها، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقَّد أمر حرم الرشيد ويمنعهنَّ من خدمة

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٥١٠ ــ ٥١١؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٠.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٤؛ المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٨.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٢.

(٥) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢١٥؛ الحميري: **الروض المعطار** ص ١٦٧.

الخدم، فشكت ذلك زبيدة إلى الرشيد، فقال ليحيى: «يا أبت، ما بال أم جعفر تشكوك»؟ فقال: «يا أمير المؤمنين أمتهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك، فقال: «لا والله»، قال: «فلا تقبل قولها فيَّ»، قال الرشيد: «فلست أعاودك»، فازداد يحيى لها منعاً وعليها في ذلك غلظة، وكان يأمر بإقفال أبواب الحرم بالليل ويمضي بالمفاتيح إلى منزله.

فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ فدخلت ذات يوم على الرشيد، فقالت: «يا أمير المؤمنين، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعله بي من منعه إياي من خدمي ووضعه إياي في غير موضعي»؟ فقال لها الرشيد: «يحيى عندي غير متهم في حرمي»، فقالت: لو كان كذلك لحفظ ابنه ما ارتكبه»، قال: «وما ذاك»؟ فخبرته بالخبر وقصَّت عليه قصة العبّاسة مع جعفر[1]، فسقط في يديه، وقال لها: «هل لك على ذلك من دليل أو شاهد»؟ قالت: «وأي دليل أدلّ من الولد»؟ قال: «وأين الولد»؟ قالت: «قد كان ها هنا فلما خافت ظهور أمره وجهته إلى مكّة»، قال: «أفيعلم ذلك أحد غيرك»؟ قالت: ما في قصرك جارية إلاّ وقد علمت به»، فأمسك عن ذلك وطوى عليه كشحاً[3].

وعن مسألة العبّاسة التي قيل أيضاً بأنها كانت السبب في حدوث النكبة يقول الطبري[4]: «حدثني أحمد بن زهير ــ أحسبه عن عمه زاهر بن حرب ــ أن سبب

---

(١) ذكر الأتليدي أنه كان «بين جعفر وزبيدة شر وعداوة قديمة. فلما تملّكت الحجة عليه بالعنت في المكر بهم واجتهدت في هلاكهم: الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٤.

(٢) جاء في «**أعلام الناس**» أن أرجوان الخادم أخبر الرشيد أن أخته ولُدت من جعفر ثلاث بنين: «أحدهم له ست سنين والآخر له خمس سنين والثالث عاش سنتين ومات قريباً، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينة الرسول ﷺ وهي حامل بالرابع»: الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٤.

(٣) المسعودس: **مروج** ج ٤ ص ٢٤٨ ــ ٢٤٩، ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٣ ــ ٣٣٤.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٤؛ المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٤٦؛ ابن خلكان: **وفيات** =

هـلاك جعفر والبـرامكة أنَّ الـرشيد كـان لا يصبر عن جعفـر وعن أخته عبّـاسـة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، وذلك بعـد أن أعلم جعفراً قلة صبـره عنه وعنها، وقـال لجعفر: أزوجكهـا ليحلّ لـك النظر إليهـا إذا أحضرتهـا مجلسي، وتقدَّم إليه ألَّا يمسها، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوَّجها منه على ذلـك، فكـان يحضـرهـا مجلســه إذا جلس للشـرب، ثم يقــوم من مجلسـه ويخليهمـا، فيثملان من الشـراب، وهما شـابـان، فيقـوم إليهـا جعفـر فيجـامعهـا، فحملت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهت بالمولود مـع حواضن له من مماليكهـا إلى مكة، فلم يـزَل الأمر مستـوراً عن هارون حتى وقـع بين عبّـاسة وبين بعض جـواريها سـر، فـأنهت أمـرهـا وأمـر الصبـي إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه، ومـع من هو من جواريها، وما معه من الحلي الذي كانت زيَّنته به أمة، فلمّا حـجَّ هارون هذه الحجة أرسل إلى الموضـع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبـي به، من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه، فلمّا أُحضـروا سأل اللواتي معهنَّ الصبـي، فأخبرته بمثل القصة التي أخبرتـه بها الـرافعة على عبّـاسة،

= الأعيـان ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣؛ ابن الـطقــطقي: الفخـري ص ٢٠٩؛ ابن العمــاد: شـذرات الذهب ج ١ ص ٣١١ ــ ٣١٢؛ اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤٠٨ ــ ٤٠٩.

(١) لمّا علم الرشيد أن جعفراً قد خانه في أخته نادى خادمه مسروراً وقال له: «يا مسرور إذا كان الليلة بعد العتمة فأتني بعشرة من الفَعَلة أجلاداً ومعهم خادمـان، قال نعم، فلمّـا كان بعـد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلة والخادمان، فقام الرشيـد وهم بين يديـه حتى أتى المقصورة التي فيها اخته، فنظر إليها وهي حـامل فلم يكلمهـا شيء ولم يعاتبهـا على ما فعلت، وأمـر الخادمين بإدخالها في صندوق كبير في مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليِّها وثيابها كما هي وقفل عليها وقد علمت أنها بعد قتل أرجوان لاحقة به، فلمّا علم أنه استوثق بها دعا بالفعلة ومعهم المعاول والزنابيل، فحفـروا وسط تلك المقصورة حتى بلغـوا الماء وهـو قاعـد على كـرسي، ثم قال: حسبكم هـاتوا الصنـدوق فدلـوه في تلك الحفرة، ثم قـال: ردوا التراب عليه، ففعلوا وسووا الموضـع كما كان، ثم أخرجهم وقفل الباب وأخذ المفتاح معه وجلس في مـوضعه والفَعلة والخـادمان بين يـديه، ثم قـال: يا مسـرور يا مسـرور خذ هؤلاء القـوم واعطهم أجرتهم فأخذهم مسرور وجعلهم في جواليق وخيط عليهم بعـد أن ثقَّلهم بالصخـر والحصى ورماهم في الدجلة: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٥.

فأراد ــ فيما زعم ــ قتل الصبي ثم تخوف من ذلك[1]. وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاماً كلما حج بعسفان فيقريه إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق، فلمّا كان في هذا العام اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره فاعتل عليه الرشيد ولم يحضر طعامه ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار فكان عن أمره وأمر أبيه ما كان».

وروى المسعودي في «مروجه» أن العبّاسة هي التي أوصلت جعفر إلى النهاية المشؤومة بعد أن استمالت أمه بالهدايا والألطاف ونفيس الجواهر وكثير الأموال، فاستجابت أم جعفر لها وجمعت بينها وبين ابنها على أنها إحدى الجواري. فلمّا قضى حاجته منها عرف جعفر حقيقة الأمر فأقبل على أمه، وقال: لقد بعتني بالثمن الخسيس وحملتيني على المركب الوعر، فانظري إلى ما تؤول إليه حالي»[2].

هذه الحادثة بحاجة إلى إثبات لأن أكثر من مؤرخ طعن بها، فابن خلدون[3] نفى هذه الحادثة في مقدمته وقال عن العبّاسة:

«فهي بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ ابنه خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة

---

(١) روى «الأتليدي» أنه بعد قتل البرامكة أحضر الرشيد من مكة وَلَدَي جعفر من أخته «فلما رآهما أعجب بهما وكانا في نهاية من الحسن والجمال فاستنطقهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية وفي ألفاظهما عذوبة وبلاغة، فقال لكبيرهما ما اسمك يا قرّة عيني؟ فقال: الحسن، وقال للصغير ما اسمك يا حبيبي؟ قال: الحسين، فنظر إليهما وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: يعزّ علي حسنكما وجمالكما لا رَحم الله من ظلمكما، ولم يدريا ما يراد بهما... ثم... ودعا مسروراً وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما»: الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٨.

(٢) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨.

(٣) ابن خلدون: **المقدمة** ص ١٥.

العروبية وسذاجة الـدين البعيدة عن عـوائد التـرف ومراتـع الفـواحش، فأين يـطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها، أو أين توجد الطهـارة والذكـاء إذا أفقدا من بيتهـا، أو كيف تلحم نسبهـا بجعفر بن يحيـى وتـدنس شرفهـا العـربـي بمـولى من مـوالي العجم بملكه جده من الفـرس أو بولاء جـدها من عمـومة الـرسول وأشـراف قريش وغـايتـه أن جــذبت دولتهم بصيغـة وصبـغ أبيــه واستخلصتهم ورقتهم إلى منـازل الأشراف، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهـر إلى موالي الأعـاجم على بعد صحتـه وعظم آبائه ولو نـظر المتأمـل في ذلك نـظر المنصف وقاس العبّـاسة بـابنة ملك من عظماء ملوك زمـانه لاستنكف لهـا عن مثله مـع مولى من مـوالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولـجَّ في تكذيبه، وأين قدر العبّاسة والرشيد منهم».

ويروي الجهشياري[1] في كتاب الوزراء والكتّاب أن أحد الأدباء (عبيد الله بن يحيـى ابن خاقان) سأل مسروراً عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامكة، فـأجابـه مسرور: «كأنك تريد ما تقولـه العامّـة فيما ادعـوه من أمر المـرأة وأمر المجـامر التي اتخـذها للبخـور في الكعبة»؟ فقال لـه: «ما أردت غيـره»، فقال: «لا والله مـا لشيء من هذا أصل ولكنه من ملل موالينا وحسـدهم». وعن هذه القصـة يقول ابن كثيـر[2]: «ومن العلماء من أنكر ذلك».

ويؤيـد ذلـك ابن حـزم[3]، الـذي يقـول: إن العبّـاسـة تـزوَّجهــا محمـد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العبّـاس، ونقلها إلى البصـرة، «وابن قتيبة[4] الـذي يستدلّ من كلامه أن العبّاسة كانت متـزوجة من هـارون بن محمد بن سليمـان وبعد وفـاتـه تـزوجت من إبـراهيم بن صـالـح بن علي»، كمـا أننـا نـلاحظ أن كـلاًّ من الأصبهاني في «الأغاني» واليعقوبـي في «تاريخه» لا يأتيان على ذكر هذه الحادثة.

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٤.

(٢) ابن كثير: **البداية والنهاية** ج ١٠ ص ١٨٩.

(٣) ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب** ص ٢٢.

(٤) ابن قتيبة: **المعارف** ص ٣٨٠.

وكان من الأسباب أيضاً ما ذكر عن موسى بن يحيى، إذ قال: خرج أبي إلى الطواف في السنة التي أصيب فيها وأنا معه من بين ولده، فجعل يتعلق بأستار الكعبة، ويردد الدعاء ويقول: اللهم ذنوبي جمّة عظيمة لا يحصيها غيرك، ولا يعرفها سواك، اللهم إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي في الدنيا، وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري، ومالي وولدي، حتى تبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة[1]. وسُمع يقول أيضاً في ذلك المقام: اللهم إن كان رضاك في أن تسلبني نعمتك عندي فاسلبني، اللهم إلاّ الفضل، قال: ثم ولّى ليمضي، فلما قرب من باب المسجد كرَّ مسرعاً، ففعل مثل ذلك وجعل يقول: اللهم إنه سمج بمثلي أن يرغب إليك ثم يستثنى عليك. . . اللهم والفضل[2].

ويذكر ابن العماد في كتابه «شذرات الذهب»[3]، أن الرشيد نكب البرامكة لأنه رأي إقبال الناس عليهم وكثرة اتباعهم وأشياعهم مع الإدلال العظيم منهم»، وكذلك ذكر الفخري[4] «أن جعفراً والفضل ظهر منهما من الإدلال ما لا تحمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك»، كما أشار اليافعي[5] إلى خوف الرشيد منهم: «لأنه رأى أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم وآمالهم فيهم ونظرهم إليهم دونه».

ويحكى أنه حين رأى الرشيد اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب قصر جعفر، اغتم لذلك وقال لإسماعيل بن صبيح: انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب وأنا ما على باب داري أحد. . . أنظر إلى دوابهم

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٢؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٣؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٦؛ ابن العماد: **شذرات الذهب** ج ١ ص ٣١٢ ـ ٣١٣؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٢؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٦؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٩.

(٣) ابن العماد: **شذرات الذهب** ج ١ ص ٣١٢.

(٤) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠٩.

(٥) اليافعي: **مرآة الجنان** ج١ ص ٤١٠، ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٥.

ألست ترى إعجازهم إلى قصدي وتروت بإزائنا ونحن ننظر إليها والله هذا هو الاستخفاف بعينه والله لا أصبر على ذلك، ثم غضب غضباً شديداً وامتلأ غيظاً.

وفي أحد الأيام وبينما كان الرشيد في طريقه إلى الصيد نظر بعيداً فشاهد موكب جعفر الضخم، ولما غاب عنه هذا الموكب التفت إلى موكبه فإذا هو شرذمة يسيرة فقال لأحد أتباعه: «ما رآنا [أي جعفر] أهلاً أن يزيننا بموكبه ويحملنا بجيشه»[1].

ومن شدة كراهيته لهم كان الرشيد يغضب إذا سبقت خيل جعفر خيله[2].

ومن المحتمل أن تكون المدة الطويلة التي حكمها البرامكة (سبعة عشر عاماً) قد أدت إلى ضجر الرشيد منهم وإلى ميله لإبدالهم فأوقع بهم، ويشير إلى ذلك ما ورد على لسان يحيى بن خالد عندما أبلغه جبريل ذم الرشيد له... عندما ارتفعت ضجة شديدة على بابه بعد مدحه له سابقاً. إد قال: «إنه لم يكن مني في هذه الحال التي ذمَّني فيها شيء لم يكن مني في ذلك الوقت الذي أحمدني فيه، ولكن المدة إذا آذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوىء، ومن أراد أن يتجنى قدر نسأله حسن الاختيار»[3].

ولمّا سُئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد، قال: «والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان، رضي الله

---

(١) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٢.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨.

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٦.

عنه، حتى قتلوهما»[1].

وقد علَّل ابن خلدون[2] أسباب النكبة بكلمة ذكرها في مقدمته، فقال:

«إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم: من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. يقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة، حتى شب في حجره ودرج من عشه، وغلبه على أمره، وكان يدعوه يا أبت، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء، وطوقوهم المنن، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم، وفكوا العاني، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، وأسنّوا لعفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة، وأغصوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد، عواطف الرحم، ولا وزعتهم أواصر القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشىء الغيرة، والاستنكاف من الحجر والأنفة

---

(1) اليافعي: **مرآة الجنان** ج ١ ص ٤١٠؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٥.

(2) ابن خلدون: **المقدمة** ص ١٥ ــ ١٦.

وكان الحقود التي بحثتها منهم صغائر الدالـة، وانتهى بها الإصـرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة». (انتهى كلام ابن خلدون).

قـد تكون نكبـة البرامكـة نتيجة لسبب بعينـه من هـذه الأسبـاب التي ذكـرهـا المؤرخون وربما كـانت نتيجة لتضـافر هـذه الأسباب مجتمعـة، ولكننا لا نعلم علم اليقين السبب العميق لهذه النهاية القاسيـة لحكم البرامكـة، لأن الرشيـد لم يفصـح عنه لأي إنسان. ويخبرنا اليعقـوبـي[1] عن تكتُّم الرشيـد في هذا الأمـر، فيروي أن الـرشيد كـان يقول: «لـو علمت يميني بالسبب الـذي لـه فعلت هـذا لقـطعتهـا». . وكذلك الطبري[2] الذي ذكر أن الرشيد خاطب السندي قائلاً: «قـد بعثت إليك في أمر لو علم به زر قميصي رميت به في الفـرات». . وكذلـك ابن خلكان[3] القـائل: «حكى ابن بـدرون أن علية بنت المهـدي قالت للرشيـد بعـد إيقـاعـه بـالبـرامكـة: يا سيدي، ما رأيت لك يـوم سرور تـام منذ قتلت جعفـراً، فلأي سبب قتلتـه؟ فقال لها: «يا حياتي، لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لمزقته».

لذلك أصبحت مهمة المؤرخ صعبة في كشف حقيقة الأمر الذي ربما يـرجـع إلى عدم رغبة الخليفة في أن تنشأ إلى جـانب سلطته سلطة أقـوى منها وبـلاط آخر يضاهي بلاطه، لقد شعر الخليفة أنه بلا سلطان ولم يعد له مـع البرامكة تصرف في أمور ملكه، فنفوذهم السياسي طغى على نفـوذه وأصبحت أموال الخـلافة وخيـراتها كلها في أيديهم[4].

---

(١) اليعقوبي: **تاريـخ** ج ٢ ص ٤٢٢.

(٢) الطبري: **تاريـخ** ج ٨ ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨.

(٣) ابن خلكـان: **وفيـات الأعيـان** ج ١ ص ٣٣٦؛ الصـولي: **أشعـار أولاد الخلفـاء من كتـاب الأوراق** ص ٥٧.

(٤) وما جاء على لسان الرشيد: «استبد يحيى بالامور دوني، فالخلافـة على الحقيقة لـه وليس لي منهـا إلاَّ اسمها»: ابن الـطقطقي: **الفخـري في الآداب السلطانية** ص ٢٠٨، وقـولـه: «ما عَـدَّ البـرامكـة بني هـاشم إلاَّ عبيـدهم، وإنهم هم الـدولـة وإن لا نعمـة لبني العبـاس إلاَّ والبـرامكـة أنعمـوا عليهم بهـا»: الأتليـدي: **أعـلام النـاس** ص ١٤٢، وقـولـه أيضـاً: =

هذا الوضع دفع الرشيد إلى التفكير في إيجاد حل لهذا الصراع القائم بين سلطة الخلافة وسلطة الوزارة فكانت نكبة البرامكة العنيفة بعد هذا التطور النفساني الطويل، التي بتنفيذها يكون الرشيد قد طبق الحكمة الهندية القديمة القائلة: «إذا عرف الملك رجلاً قد كاد أن يساويه في المنزلة والرأي والهيئة والمال والمنع فليصرعه فإنه إن لم يفعل ذلك كان هو المصروع»[1]، والتي يمكننا اعتبارها بمثابة نتيجة حتمية للسياسة الاعتباطية المتبعة من قبل الخلفاء إزاء وزرائهم، تلك السياسة التي تبشر بالسقوط المقبل للموظفين الذين سينجحون في اكتساب المسؤولية والثروة والمجد بدون أن يتحرروا أبداً من سلطة العاهل التابعين له مباشرة، هكذا نكّل أبو العبّاس السفّاح بوزيره أبي سلمة الخلال، والمنصور بأبي أيوب المورياني، والمهدي بيعقوب بن داوود، وأخيراً المأمون بالفضل بن سهل.. ولكن أياً من هؤلاء الوزراء لم يصل إلى المرتبة التي احتلها البرامكة، الأمر الذي أحدث صدى كبيراً لنكبتهم التي لم يخلُ من ذكرها كتاب من كتب التاريخ.

ويظهر أن نكبة البرامكة لم تكن نزوة عابرة أو رغبة فجائية للخليفة، وإنما كانت مرتبة ترتيباً مسبقاً ونفذت عن سابق تصوُّر وتصميم، فقد جاء في كتاب «التاج» المنسوب للجاحظ[2] أن الخادم مسرور قال: «أشهد بالله لكنت من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمس ثوبي ثوبه وهو يقول في مناجاته ربه: اللهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى». ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ست.

وقال بعض الهاشميين: كنت أساير الرشيد يوماً والأمين عن يمينه والمأمون عن شماله، فاستدناني وقدّمهما أمامه، فسايرته، فجعل يحدثني، ثم بدأ يشاورني

= «... فإني خائف أن يخرج الأمر من يدي أن تمكنوا (أي البرامكة) من خراسان وتغلّبوا عليها»: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٤، هو خير دليل على صحة ما أشرنا إليه.

(١) ابن المقفّع: كليلة ودمنة ص ٨٦؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١١.

(٢) الجاحظ: التاج ص ٧٣ ــ ٧٤.

في أمر البرامكة وأخبرني بما أضمر عليه لهم وأنهم استوحشوه من أنفسهم وأنني عنده بالوضع الذي لا يكتمني شيئاً من أمرهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تنقلني من السعة إلى الضيق. فقال الرشيد: ألا إن تقول فإني لا أتهمك في نصيحة ولا أخافك على رأي ولا مشورة. فقلت: يا أمير المؤمنين، إني أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسعة ولك أن تأمر وتنهي وهم عبيد لك بإنبائك إياهم، فهل يصنعون ذلك كله إلاَّ بك؟ قال: وكنت أحطب في حبال البرامكة، فقال لي: فضياعهم ليس لولدي مثلها وتطيب نفسي بذلك لهم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الملك لا يحسد ولا يحقد ولا ينعم نعمة ثم يفسد نعمته. قال: فرأيته قد كره قولي وزوى وجهه عني. قال إسحق: فعلمت أنه سيوقع بهم. ثم انصرفت فكتمت الخبر، فلم يسمع به أحد. وتجنبت لقاء يحيى والبرامكة خوفاً أن يظن أني أفضي إليهم بسرّه. حتى قتلهم، وكان أشد ما كان إكراماً لهم. وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم[1].

وقال إسماعيل بن صبيح: بعث إليَّ الرشيد يوماً وهو ببغداد فدخلت. فلم أرَ في المقاصير والأروقة أحداً، حتى انتهيت إليه، فقال: يا إسماعيل هل رأيت في الدار أحداً؟ فقلت: لا والله! قال: فطف المجالس والأروقة والمقاصير! فطفت فلم أجد أحداً! فقال: عد ثالثة، فعدت، ثم قال: خذ ذلك الكرسي فأخذته، وخرج وفي يده عامود حتى صار إلى وسط الصحن ثم قال: ضع الكرسي! فوضعته، فجلس عليه والعامود في يده ثم قال: إجلس! فأوجست نفسي خيفة، وجلست، فقال: إني أريد أن أفشي إليك سراً، والله لئن سمعته من أحد من الناس لأضربن عنقك! فتراجعت نفسي، وقلت: إن كنت يا أمير المؤمنين قلته لأحد، أو تقوله، فلا حاجة بي إليه. فقال: ما قلته لأحد، ولا أقوله، إني أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعاً ما أوقعته بأحد وأجعلهم أحدوثة ونكالاً إلى آخر الأبد[2].

---

(١) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٦٦.

(٢) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤٢٢.

ويُروى أن الرشيد حين رأى طول عنق جعفر أخذ يتأمله تأملاً شديداً، فرآه جعفر وهو يتأمل، فقال له: ما تتأمل أمير المؤمنين؟ قال: حسن عنقك وحسن موقع الجربّان منه، فقال له: لا والله، ما تأملت إلّا موضع سيفك فيه، فقال له: أعيذك بالله من هذا القول.. واعتنقه وقبّله. ثم قال للفضل بن الربيع: قاتل الله جعفراً! وذكر له هذا الخبر وقال: ما تأملت عنقه إلّا لموضع السيف منها[1].

وعن تدبير الرشيد في قتل جعفر، يُروى أن الرشيد قال للسندي بن شاهك، وكان يلي الجسرين ببغداد: إذا كان بعد سنة من يومك هذا فوكل بدور البرامكة وأسبابهم سراً، وبعد مرور السنة وكل دور البرامكة سراً. وبات ليلته ينتظر خبراً يرد عليه من الرشيد، فلما كان في السحر وافاه رسول على بغل تحته خرج فيه جثة جعفر مقطوعة نصفين وكتاب الرشيد إليه بصلب كل نصف على أحد الجسرين، ففعل ذلك[2].

وحتى عامة الناس فقد أدركت ما يجول في خاطر الرشيد تجاه البرامكة وما يهيأه لهم من شر، ويؤيد ذلك ما ذكره المغنّي إسحق الموصلي عندما سأله الرشيد مرة: «بأي شيء يتحدث الناس»؟ فقال: يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة، فأظهر الرشيد الغضب وصاح به: «ما أنت وذاك؟ ويلك فأمسك[3]. ولكن ليس من يجرؤ على إبلاغ البرامكة بما ينتظرهم من سوء المصير، بل كانوا يلمحون إليه أثناء الغناء فابن زكار كان يغني جعفراً أحياناً:

ما يريد الناس منّا ... ما ينام الناس عنّا
إنما همتهم أن ... يظهروا ما قد دفنّا[4]

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٦.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧.

(٣) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ٢١٩ ــ ٢٢٠.

(٤) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٠؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٨.

هذا فضلاً عن عزل الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك عن الحجابة في سنة ١٧٩هـ، حيث ولاها الفضل بن الربيع[١] (عدو البرامكة) ثم عزل جعفر بن يحيى عن خراسان (سنة ١٨٠هـ) بعد عشرين يوماً من توليته أياها وقلّده قيادة الحرس[٢] التي عزله عنها فيما بعد وأسندها إلى هرثمة بن أعين[٣]، وكذلك غضب على الفضل بن يحيى وصرفه عن خراسان وولّاها علي بن عيسى بن ماهان[٤] (عدو البرامكة أيضاً).

وجاء في الطبري[٥] أن الرشيد في سنة ١٨٠هـ سمّى علي بن عيسى بن ماهان والياً على خراسان ضد رغبة وزيره يحيى بعد أن كان يتبع آراءه دائماً حتى أنه كان يطلبها بإلحاح في المناسبات الخطيرة (بعد موت المهدي مثلاً)[٦]، وبعد أن كان قد فوّض إليه جميع أموره بدءاً من سنة ١٧٨هـ[٧] (كما مرَّ معنا). هذا عدا عن استجابة الرشيد لطلبه (أي يحيى) في اعتزال الحكم والمقام في مكة في حجة سنة ١٨١هـ[٨].

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى تسقُّط الرشيد لأخبار البرامكة وتتبُّعه سراً لتصرفاتهم وممارساتهم[٩]، عن طريق جواسيسه المنتشرين في كل مكان، لا سيما

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦١؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٣.
(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦٦.
(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٧.
(٤) نفس المصدر ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨.
(٥) أشار يحيى على الرشيد بيزيد بن مزيد والياً على خراسان مكان علي بن عيسى بن ماهان، فلم يقبلْ الرشيد مشورته. راجع **تاريخ** الطبري ج ٨ ص ٣١٤ ــ ٣١٥.
(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ١٨٧.
(٧) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٥٦.
(٨) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٦٨.
(٩) «كان الرشيد من أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً»: الجاحظ: **التاج** ص ١٧٠.

بواسطة خادم من خاصة خدمه وأنبلهم، وهبه (أي الخليفة) لجعفر بن يحيى «فسر جعفر سروراً كاملاً ووقع في قلبه أجلّ موقع وكان دسيساً عليه وبلية لديه يرفع أخباره إلى الرشيد[1]، ويحصي عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتاً بوقت».

وهكذا نرى أن نكبة البرامكة لم تكن نتيجة رغبة فجائية للرشيد، بل كانت مبيتة من زمان طويل أقدم عليها وفق خطة مرسومة تعرضت للتنقيح والتعديل أكثر من مرة. حتى نفذت بحذافيرها في الوقت المعيَّن. وهذه الاستعدادات المدروسة إن دلَّت على شيء فإنها تدلّ على أهمية البرامكة وخطورة شأنهم. هذا مع الإشارة

---

(١) من بين الأخبار العديدة التي نقلها هذا الخادم إلى الرشيد نصيحة مرفوضة قدمها إسماعيل بن يحيى الهاشمي إلى الوزير جعفر بن يحيى رواها «الأتليدي» في كتابه «**أعلام الناس**»، فقال: قال إسماعيل بن يحيى الهاشمي: «... فلما خلا مجلسه «أي مجلس جعفر» ولم يبقَ عنده غيري وذلك الخادم واقف وعلمت أن الخادم يحصي علينا أخبارنا فقلت: أيها الوزير نصيحة أفتأذن لي في الكلام؟ قال: تكلَّم، وكان الرشيد ولاه كورة خراسان كلها وما يضاف إليها وينسب لها قبل هذا الكلام بأيام وخلع عليه وعقد له لواء وعسكراً بالنهروان وضرب الناس مضاربهم بها وهم متأهِّبون للسفر فقلت: يا سيدي أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكية فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده؛ فلما قلت ذلك نظر إلي مغضباً وقال: والله يا إسمٰعيل ما أكل الخبز ابن عمك أو قال صاحبك إلَّا بفضلي ولا قامت هذه الدولة إلَّا بنا أما كفى أني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده حاشيته ورعيته؟ وقد ملأت بيوت أمواله أموالاً ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينيه إلى ما ادَّخرته وأخذته لولدي وعقبي من بعدي، وداخله حقد بني هاشم وبغيتهم ودب فيه الطمع، والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالاً عليه سريعاً، فقلت: والله يا سيدي ما كان مما ظننت شيء ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف، قال: فما هذا الفضول منك؟ فقعدت بعدها هنيهة ثم قمت إلى منزلي ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد، لأني صرت بينهما في حال تهمة وقلت في نفسي: هذا الخليفة وهذا وزيره، وأي شيء لي بالدخول بينهما؟ ولا شك في زوال نعمة البرامكة وأن أمورهم قد انشلمت... فلمّا قرأ (الرشيد) الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثة أيام متفكراً في إيقاع الحيلة على البرامكة». الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٣.

إلى أنّ الرشيد قبيل النكبة كان قد وجد نفسه والدولة قد استنفذا أغراضهما من البرامكة وأصبح مجدهم على حساب الدولة يفوق منفعتهم لها أو أن خطرهم المحتمل قد يكون ـ في رأي الرشيد ـ أكبر من نفعهم، إذا كانت لهم منفعة باقية.

* * *

٢

مَقتَلُ جَعْفَر

إذا كان السبب الحقيقي لحدوث نكبة البرامكة، لا يزال حتى الآن، لغزاً عصياً على الفهم والتأويل، فالذي لا شك فيه أن الأسباب العديدة ـ التي مرّ ذكرها ـ والمؤدية إلى نكبتهم قد تعاونت مجتمعة فنفذت إلى وجدان الرشيد وساهمت في خفت روح التسامح التي تميز بها، ودفعته إلى اقتراف حادثة قتل وتنكيل حُفر اسمها بعمق على جدار التاريخ.

روى الطبري «أن الرشيد حجَّ في سنة ست وثمانين ومائة، وأنه انصرف من مكة فوافى الحيرة في المحرم من سنة سبع وثمانين ومائة عند انصرافه من الحج، فأقام في قصر عون العبادي أياماً ثم شخص في السفن حتى نزل العمر الذي بناحية الأنبار، فلما كان ليلة السبت لانسلاخ المحرم[1] أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند فأطافوا (كذا) بجعفر بن يحيى ليلاً ودخل عليه مسرور وعنده ابن بختيشوع المتطيِّب، وأبو زكار الأعمى المغني الكلوذاني، وهو في لهوه، فأخرجه إخراجاً عنيفاً يقوده، حتى أتى به المنزل الذي فيه الرشيد[2]، فحبسه وقيَّده بقيد حمار، وأخبر الرشيد بأخذه إياه ومجيئه به. فأمر

(١) أراد جعفر الخروج إلى خراسان يوم الجمعة ولكن الرشيد طلب إليه البقاء حتى صباح السبت، فوافق جعفر على ذلك بعد أن أخذ الطالع: الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٦.

(٢) لما دخل جعفر الباب الأول أوقف الجند، وفي الثاني أوقف الغلمان، فلما دخل الباب =

بضرب عنقه ففعل ذلك»[1].

ويضيف الطبري[2] قائلاً: «أن مسرور الخادم قال: أرسلني الرشيد لآتيه بجعفر بن يحيى لمّا أراد قتله فأتيته وعنده أبو زكار الأعمى المغني وهو يغنيه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق أو يغادي

قال: فقلت له: يا أبا الفضل، الذي جئت له من ذلك قد والله طرقك، أجب أمير المؤمنين. قال: فرفع يديه، ووقع على رجلي يقبّلهما، وقال: حتى أدخل فأوصي، قلت: أما الدخول فلا سبيل إليه[3]، ولكن أوصي بما شئت، فتقدّم في وصيته بما أراد، وأعتق مماليكه، ثم أتتني رُسل أمير المؤمنين تستحثني به، قال: فمضيت به إليه فأعلمته، قال لي وهو في فراشه: ائتني برأسه، فأتيت جعفراً فأخبرته، فقال: يا أبا هاشم الله! الله! الله! والله ما أمرك بما أمرك به إلاّ وهو سكران، فدافع بأمري حتى أصبح أؤامره في ثانية، فعدت لأؤامره، فلما سمع حسي، قال: يا ماص بظر أمّه، ائتني برأس جعفر! فعدت إلى جعفر، فأخبرته، فقال: عاوده في ثالثة، فأتيته، فحذفني بعمود ثم قال: نفيت من المهدي إن أنت جئتني ولم تأتني برأسه، لأرسلن إليك من يأتيني برأسك أولاً، ثم برأسه آخراً. قال: فخرجت فأتيته برأسه.

= الثالث التفت فلم يرَ أحداً من غلمانه، ولا الخادم ألفرد فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع. وقد فعل مسرور الخادم كل ذلك بناءً لأوامر الرشيد المسبقة: الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٦.

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥.

(٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٩٥؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٨.

(٣) بعد رجاء مُلِح من جعفر (ربما وهبه خمسين ألف دينار إذا اعتقدنا بقول الجهشياري: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٤، قَبِل مسرور أن يأخذه أسيراً حتى قصر الخليفة. وذكر عن مسرور أنه أعلم الرشيد أن جعفراً سأله أن تقع عينه عليه، فقال: لا، لأنه يعلم إن وقعت عيني عليه لم أقتله؛ الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٣٠٠، ولكن جعفر أعدم دون أن يحصل على مقابلة الرشيد: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٤).

ويضيف الطبري[1] قائلاً: «وأمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه، ومن كان منهم بسبيل، فلم يفلت منهم أحد كان حاضراً، وحول الفضل ابن يحيى ليلاً فحبس في ناحية من منازل الرشيد، وحبس يحيى بن خالد[2] في منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك[3]، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها، ووجه من ليلته رجاء الخادم إلى الرقة في قبض أموالهم وما كان لهم، وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم، وولاة أمورهم، وفرّق الكتب من ليلته إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. فلما أصبح بعث بجثة جعفر بن يحيى مع شُعبة الخفتاني وهرثمة بن أعين وإبراهيم بن حميد المروذي، واتبعهم عدة من خدمه وثقاته، منهم مسرور الخادم، إلى منزل جعفر بن يحيى، وإبراهيم بن حميد وحسين الخادم إلى منزل يحيى ومحمد بن يحيى وجعل معه هرثمة بن أعين وأمر بقبض جميع ما لهم، وكتب إلى السندي الحرشي بتوجيه جيفة جعفر إلى مدينة السلام ونصب رأسه على الجسر الأوسط وقطع جثته، وصلب كل قطعة منها على الجسر الأعلى والجسر الأسفل[4]، ففعل

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧.

(٢) ذكر الجهشياري أن يحيى لم يحبس وبقي في منزله موكلاً به، ثم وجه إليه الرشيد يخبره: أي موضع شئت فأقم به فوجه إليه: إن كنت راضياً عني فأحب المواضع إليَّ أن أقيم فيه مكة أو بعض الثغور، وإن لم ترضَ عني فلست أبرح من موضعي أو ترضى عني: الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥.

(٣) كذلك اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٢١ ــ ٤٢٢؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٧٨ والبرامكة باستثناء جعفر كانوا لا يملكون في ذلك الوقت مبالغ طائلة من المال: انظر الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٤٠ ــ ٢٤١، ولكن أملاكهم العقارية كانت كثيرة. انظر الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٨٩ ــ ٢١٦ ــ ٢١٧.

(٤) كذلك ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٨، وجاء في العقد الفريد: أن الرشيد أمر بجيفة جعفر وجثته، ففصِّلت على ثلاثة جذوع: رأسه في جذع على رأس الجسر مستقبل الصرّاة، وبعض جسده على جذع بالجزيرة، وسائره في جذع على آخر الجسر الثاني =

السندي ذلك، وأمضى الخدم ما كانوا وجهوا فيه، وحمل عدة من أولاد الفضل وجعفر ومحمد الأصاغر إلى الرشيد، فأمر بإطلاقهم وأمر بالنداء في جميع البرامكة: ألا أمان لمن أواهم إلاَّ محمد بن خالد[1] وولده وأهله وحشمه فإنه استثناهم، لِما ظهر من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. وخلى سبيل يحيى قبل شخوصة من العمر.

ووكل بالفضل ومحمد وموسى بني يحيى، وبأبي المهدي صهرهم حَفَظَة من قبل هرثمة ابن أعين، إلى أن وافى بهم الرقة فأمر الرشيد بقتل أنس بن أبي الشيخ يوم قدم الرقة وتولى قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك ثم صلب. وحبس يحيى بن خالد مع الفضل ومحمد في دير القائم وجعل عليهم حَفَظَة من قبل مسرور الخادم وهرثمة بن أعين، ولم يفرِّق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه، وصيَّر معهم زبيدة بنت منير أم الفضل، ودنانير جارية يحيى وعدَّة من خدمهم وجواريهم، ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد علي عبد الملك بن صالح فعمهم بالتثقيف بسخطه[2] وجدَّدوا لهم التهمة عند الرشيد، فضيَّق عليهم.

= مما يلي بغداد: ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٦١، وذكر الأصبهاني: أن المغني أبو زكار طلب مقاسمة سيِّده جعفر نفس المصير ولكن الرشيد منحه الحياة وأمن له نفس المعاش الذي كان يتقاضاه من جعفر: الأصبهاني: **الأغاني** ج ٦ ص ٤٤٦.

(١) كذلك الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٤؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٨؛ أبو الفداء: **المختصر في أخبار البشر** ج ٣ ص ٢٣.

(٢) كذلك ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٩، وبالنسبة للمعاملة في السجن، فقد ذكر الجهشياري: إن الرشيد كان أحياناً يوسِّع عليهم وأحياناً يضيِّق عليهم على حسب ما يرقى إليه أعداؤهم ويمسكون عنهم: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٥؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٢، بينما أشار المسعودي إلى أن الرشيد كان يقسو عليهم ويأمر بضربهم، وقد أخضع الفضل للتعذيب وذلك عندما أمر مسروراً بضربه مائتي سوط لمعرفة المكان الذي يخبىء فيه أمواله: المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٨؛ الجهشياري: **الوزراء** =

وقال محمد بن إسحاق[1]: فلم يزل جعفر مصاباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خراسان، فمضيت فنظرت إليه، فلما صار بالجانب الشرقي على باب خزيمة بن خازم، دعا بالوليد بن جشم الشاري من الحبس، وأمر أحمد بن الجنيد الختلي ــ وكان سيّافه ــ فضرب عنقه، ثم التفت إلى السندي فقال: ينبغي أن يحرق[2] هذا ــ يعني جعفراً ــ فلما مضى جمع السندي له شوكاً وحطباً[3] وأحرقه».

ويضيف محمد بن إسحاق قائلاً: «لمّا قتل الرشيد جعفر بن يحيى، قيل ليحيى بن خالد: قتل أمير المؤمنين ابنك جعفراً، قال: كذلك يقتل ابنه. قال: فقيل له: خربت ديارك، قال: كذلك تخرب دورهم»[4].

= والكتاب ص ٢٤٤؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٣؛ البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٥٢٧. وهناك روايات عديدة شاعت حول المعاملة السيِّئة التي لاقوها في السجن أو على العكس حول المعاملة التي تتعلّق بالهدايا والأعطيات الباذخة أحياناً التي حصلوا عليها فجعلتهم يأملون بالعودة إلى الحظوة. وفيما يتعلق بحادثة إرسال الدواج من قبل الخليفة في فترة البرد القارس. انظر بالإضافة إلى الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٦ ــ ٢٤٨؛ ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢٥٦ ــ ٢٥٩، أمّا بالنسبة لرواية السكباجة انظر بالإضافة للجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٥؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٨.

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٨.

(٢) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤٢٥، (عند خروج الرشيد إلى الري سنة ١٨٩هـ)؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٧، (خلال سنة)؛ الدينوري ص ٣٨٧، (قبل الخروج إلى خراسان سنة ١٨٩هـ)، وفيما يخص نفقات حرق الجثة. انظر تنوخي: **نشوار** ج ٨ ص ١١٧؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٩٢.

(٣) جاء في **العقد الفريد**: إن الرشيد نضح عليه بالناضحات حتى احترق عن آخره وهو يقول: لئن ذهب أثرك لقد بقي خبرك، ولئن حط قدرك لقد علا ذكرك: ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٦١.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩٩؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٤؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٩٢.

وقـال سلام الأبـرش: لمّا دخلت على يحيـى في ذلـك الوقت ـ وقـد هتكت الستور ورجـع المتاع ـ قال لي: يا أبا سلمة: هكذا تقوم الساعة[1].

وقُتـل جعفر بن يحيـى في ليلة السبت أول ليلة من صفـر سنة سبـع وثمـانين ومائة، وهو ابن سبـع وثلاثين سنة، وكانت الوزارة إليهم سبـع عشرة سنـة[2].

وفي ذلك يقول الرقاشي:

أيـا سبت يـا شـرّ السبـوت صبيحـة ويـا صفـر المشؤوم مـا جئت أشـأمـا

أتى السبت بـالأمـر الـذي هـدَّ ركننـا وفي صَفـر جـاء البـلاء مصممـا[3]

وهـذه المأسـاة التاريخيـة أخفت على الرشيـد صورة جـديـدة، حملت بعض المستشـرقين أمثال أسبـورن[4] (Osborne) وموييـر[5] (Muir)، على وصفـه الجـور والخيانة وعدم الأمانة.

وروى اليعقـوبـي في «تـاريخـه» أنَّ يحيـى البـرمكي كتب إلى الـرشيـد من الحبس يستعـطله ويذكـر له حـرمتـه وتـربيتـه فـوقَّـع على ظهـر رقعتـه: إنمـا مثلك يا يحيـى ما قال الله عز وجل: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجـوع والخوف بمـا كانـوا يصنعون﴾[6].

---

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٩؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٣٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠.

(٤) Osborne, Robert: *Islam under the Khalifs of Baghdad* p. 203.

(٥) Muir, William: *The Chaliphate* p. 476.

(٦) اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٤٢٣؛ البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٥٣٨، مع ذكر هذه الأبيات عن لسان الرشيد: =

وقد طلب الرشيد من يحيى بن خالد الاعتراف بأن عبد الملك بن صالح طمع في الملك مقابل إعادته إلى حاله، ولكن يحيى أنكر ذلك ففرق الرشيد بينه وبين ابنه الفضل مدة ثلاثة أيام ثم جمعهما. وقد حدَّثنا الطبري[1] عن ذلك، فقال:

ذكر أن الرشيد بعث في بعض أيامه إلى يحيى بن خالد: أن عبد الملك بن صالح أراد الخروج ومنازعتي في الملك، وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه فإنك إن صَدَقتني أعدتك إلى حالك، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك، لأن ملكك كان ملكي وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه عليَّ ولي، فكيف لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني، وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل أكثر من فعلك! أعيذك بالله أن تظن بي هذا الظن ولكنه كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله فولَّيته، لِما أحمدت من مذهبه ومِلت إليه لأدبِه واحتماله، قال: فلما أتاه الرسول بهذا أعاد إليه، فقال: إن أنت لم تقرّ عليه قتلت الفضل ابنك، فقال له: أنت مسلط علينا فافعل ما أردت، على أنه إن كان من هذا الأمر شيء. فالذنب فيه لي فيمَ يدخل الفضل في ذلك، فقال الرسول للفضل: قم، فإنه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك أنه قاتله فودَّع أباه وقال له: ألست راضياً عني؟ قال: بلى، فرضي الله عنك، ففرَّق بينهما ثلاثة أيام، فلمَّا لم يجد عنده من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا.

=

يا آل برمك إنما	كنتم ملوكاً عادية
فطغيتم وبغيتم	وكفرتم نعمائية
هذه عقوبة من عصى	مَن فوقه وعصانية
كنتم كشيء قد مضى	أحلام نوم سارية

ونشير هنا إلى أن عبد ربه الأندلسي ذكر في كتابه «العقد الفريد» أن يحيى لم يكن له جواب من الرشيد على كتابه، **العقد الفريد** ج ٥ ص ٦٨ ــ ٦٩.

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٥ ــ ٣٠٦.

ولم يزل يحيى وابنه الفضل محبوسَين حتى ماتا بالرقة[1]، إذ مات يحيى في المحرَّم سنة تسعين ومائة فجأة من غير علَّة، وصلى عليه ابنه الفضل ودُفن في شاطىء الفرات[2]، ووُجد في جيبه رقعة فيها مكتوب بخطه: قد تقدم الخصم، والمدعى عليه في الأثر والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يحتاج إلى بيِّنة. فحملت الرقعة إلى الرشيد فلم يزل يبكي يومه كله وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه[3]، أما الفضل فقد مات في المحرَّم سنة ثلاث وتسعين ومائة قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر وهو في خمس وأربعين سنة وجزع الناس عليه وصلى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه قبل إخراجه، ثم أُخرج فصلَّى الناس على جنازته[4].

أما بالنسبة لابني يحيى الآخرين: محمد وموسى، فقد بقيا في الحبس بالرقة حتى تولَّى الخلافة محمد الأمين، فأطلق سراحهما.

وبينما التحق محمد بالمأمون، بقي موسى يقاتل في صفوف الأمين وبذل نفسه في الدفع عنه، ولم يفارقه حتى قتل وانضم إلى هرثمة واجتمع معه على حرب أبي السرايا، وخاض تلك الفتن المشهورة فلما ورد المأمون العراق صار إليه فبرَّه وأكرمه وقدَّمه وانبسط إليه في المشورة والرأي حتى غلب عليه[5].

---

(١) ابن قتيبة: **المعارف** ص ٣٨٢؛ المقدسي: **البدء والتاريخ** ج ٦ ص ١٠٥، ونشير إلى أنَّ ابن خلكان ذكر أن الرشيد أمر بحبس يحيى والفضل في «حبس الزنادقة» في مدينة المنصور: ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٧.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٩٨؛ **معجم الأدباء** المجلد العاشر ج ٢٠ ص ٩؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٨؛ ابن خلدون: **تاريخ** ج ٣ ص ٢٢٤، وقد ذكر المسعودي أن يحيى بن خالد مات بالرقة في سنة تسع وثمانين ومائة: **مروج** ج ٤ص ٢٦٠.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦٨؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٨.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٣٤١؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٢١٠.

(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨.

وهكـذا ــ كما رأينـا ــ ما كـاد التاريـخ أن يعبق بـأخبار البـرامكة ومـآثـرهم، ويطال جودهم وإحسانهم القاصي والداني حتى فاجأتهم هذه الضـربة القـاسية على يد الرشيد فأودت بحيـاة الكثيرين منهم[1] وشتت شملهم في البـلاد «ولم يقدر أحـد منهم على كسـرة خبز[2]. فبعـد أن كثر الـزوار على أبـوابهم وأثنى عليهم الشعـراء وانتجعهم النـاس، انحرفت عنهم الـدنيا وصـار شأنهم إلى الفقـر والـذل والإهـانـة ووصـل الأمر بهم إلى درجـة أن عتـابـة أم جعفـر بن يحيـى البـرمكي ــ في ثيـابهـا البالية ــ قصدت والي الكوفة محمد بن غسان في يوم عيد أضحى طالبـة منه جلدي شاة لتجعل «أحدهما شعاراً والآخر دثاراً»[3].

وذكر الجهشياري[4] أن الرشيد ندم على ما كان منه في أمـر البرامكـة وتحسَّر على مـا فرط منـه في أمرهم وخـاطب جماعـة من إخوانـه بأنـه لو وثق بصفـاء النيـة لأعادهم إلى حالهم، وكذلك جاء في الأغاني[5]:

أن الرشيد بعـد قتله البرامكـة كان شـديد الأسف عليهم والتنـدُّم على ما فعله بهم ففطن لذلك الزبير بن دحمان، فكان يغنيه في هـذا المعنى ويحرِّكـه فغنّاه يـوماً ــ والشعر لامرأة من بني أسد ــ :

من للخصــوم إذا جــدَّ الخصـام بهم	يــوم النـــزال ومن لـلضـمَّـر الـقــود
ومــوقف قــد كفيت النـاطقين بـه	في مجمـع من نـواحي الناس مشهـود
فــرجــتــه بـلســان غــيــر مـلتـبس	عنــد الحفــاظ وقــول غيـر مــردود

---

(١) مـع دخول يوم السبت (أوقـع الرشيد بالبرامكـة ليلة السبت لانسلاخ المحـرم) كان قـد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان وترك من بقي منهم لا يرجـع إلى وطنه: الأتليـدي: **أعلام الناس** ص ١٤٨.

(٢) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٨.

(٣) نفس المصدر ص ١٥٣.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٨.

(٥) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ١٥٣.

فقال له الرشيد: أعِدْ، فأعاد، فقال له: ويحك كان قائل هذا الشعر يصف به يحيى بن خالد وجعفر بن يحيى. وبكى حتى جرت دموعه ووصل الزبير صلة سنيّة.

ومن الأدلة على ندم الرشيد قوله (عندما بلغه نبأ وفاة يحيى): «اليوم مات أعقل الناس وأكملهم»[1]. وقوله: «مات والله يحيى ومات الجود والكرم والسخاء، والله لو كان حياً لفرجت عنه»[2]. وقوله: «اضربوا عنق ياسر فإني لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر»[3]. وقوله أيضاً: «يا أسفي عليك يا جعفر» بعد أن أكَّد له أحد كتابه (ابن يزدانيروذ) أن جعفراً لم يكن حائداً عن طاعته ولا مقصراً في موالاته (بعد أن سأله الرشيد عن إخلاص جعفر له)[4]. وحتى الفضل بن الربيع (عدوّ البرامكة) لمّا حضر جنازة حمدونة بن علي (بعد نكبة البرامكة) ذكر البرامكة فأطراهم وقرظهم ووصفهم ثم قال: كنا نعتب عليهم فقد صرنا نتمناهم ونبكي عليهم[5].

ونظراً للدور الكبير الذي لعبه البرامكة في الدولة العباسية فإن إيقاع الرشيد بهم ترك فراغاً كبيراً في معظم إدارات الدولة. وفي هذا الصدد ذكر الجهشياري[6] أنه لمّا انقضى أمر البرامكة اختلّت الأمور. وقعد الفضل بن الربيع لحفظ خدمة الرشيد في حضرته وأضاع ما وراء بابه؛ وأبلغ دليل على اضطراب الأمر بعد سقوط البرامكة ما ذكره الفضل بن مروان[7]، حيث قال: «إن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد كانت مهملة، وإن مسروراً الخادم كان يتقلّد البريد والخرائط! ويخلفه عليه ثابت الخادم. قال: فحدَّثني ثابت: أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦١.
(٢) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥١ ـ ١٥٢.
(٣) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥١.
(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦٢.
(٦) نفس المصدر ص ٢٦٥.
(٧) نفس المصدر ص ٢٦٥.

لم تفض». وكثيراً ما كان الرشيد يقول: «حملونا على نصائحنا وكُفاتنا وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا عنا شيئاً، وينشد:

أقلوا عليـنا لا أباً لأبيكم   من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا[1]

ويؤيِّد ذلك ما ذكره المسعودي[2]، حيث يقول: «إن الرشيد دفع خاتم الخلافة بعد إيقاعهم بهم (أي بالبرامكة) إلى علي بن يقطين[3]، وغلب عليه الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح إلى أن مات واختلّت أموره بعد البرامكة وبان للناس قبح تدبيره وسوء سياسته».

وثمة كلمة أخيرة على رواية الجهشياري (أول مؤرِّخ ذكر ندم الرشيد واختلال الأمور بعد الإيقاع بالبرامكة الذين تربّى بين أحضانهم والذين ساهموا في وصوله إلى عرش الخلافة، ولكن هارون الرشيد رجل الدولة، فإن الندم لم يخطر على باله لا من بعيد ولا من قريب لأنه لا يريد إعادة مراكز القوى وربما قتلهم مرة ثانية لو قدِّر لهم الظهور من جديد، بدليل قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك لأنه كان كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة ويبكي عليهم[4] ولطمه ابن مناذر الشاعر لمدحه إياهم[5]، وأمره «أن لا تذكر البرامكة في مجلس ولا يستعان بمن بقي منهم في المدينة أبداً»[6]، واستدعائه مرة الفضل بن يحيى من السجن «وضربه سياطاً حتى كاد أن يهلكه، وزاد في حديده وأغلاله ثم استدعي بيحيى وكان شيخاً كبيراً وزاد

(١) نفس المصدر ص ٢٥٨؛ الكتبي: **فوات الوفيات** م ٤ ص ٢٢٦، وقد ذكر ابن خلكان بأن هذا البيت للحطيئة؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٥.

(٢) المسعودي: **التنبيه والإشراف** ص ٢٩٩.

(٣) ذكر ابن الطقطقي أن الرشيد ــ بعد نكبة البرامكة ــ استوزر الفضل بن الربيع وكان حاجبه، وكان قبل ذلك حاجباً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢١٠ ــ ٢١١.

(٤) ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٨٦ ــ ١٨٧.

(٥) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ٤٩.

(٦) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٨.

في حديده وأغلاله أيضاً»[1]. وأما الدليل الأكبر على عدم ندمه هو إبقائه البرامكة في السجن حتى بعد مماته.

وأما بالنسبة لظهور اختلال في دولة الرشيد بعد التنكيل بالبرامكة، فمن المسلَّم به أن الأمور تضطرب بعد غياب مديريها ولا بد من ظهور نوع من الإهمال والتقصير في البداية، ولكن سرعان ما تعود هذه الأمور إلى سيرتها الأولى بعد سد الفراغ الحاصل.

وإذا لم نعزو رواية الجهشياري إلى ميله للبرامكة من ناحية الانتماء، فللرواية تفسير آخر، وهو أن إنصاف الأعداء من أخلاق الملوك المتبعة.

* * *

(١) نفس المصدر ص ١٤٩.

الفصل الرابع

مما قيل في البرامكة

١- في مدح البرامكة
٢- في رثاء البرامكة
٣- في هجاء البرامكة

١

في مدح البرامكة

على الرغم من الاتهامات التي وُجِّهت ضدّ البرامكة[1]، تلك الاتهامات التي كانت من الأسباب الرئيسية التي أدَّت إلى نكبتهم المشهورة، فإننا نجد عدداً كبيراً من الشعراء والمغنين والأدباء الذين نظموا القصائد الكثيرة الغرّاء في مدحهم، وسنورد فيما يلي أهم ما قيل في البرامكة من شعر:

كتب بعض الشعراء إلى خالد بن برمك في يوم نوروز، وقد أهدى الناس إلى خالد هدايا فيها جامات من فضة وذهب:

ليت شعري أما لنا منك حظ	يا هدايا الوزير في النوروز
ما على خالد بن برمك في الجو	د نوال ينيله بعزيز
ليت لي جام فضة من هدايا	ه سوى ما به الأمير مجيزي
إنما أبتغيه للعمل المـ	ـزوج بالمال لا لبول العجوز[2]

وقد مدح الشاعر بشّار بن برد خالد بن برمك، فقال فيه:

لعمري قد أجدى عليَّ ابن برمك	وما كل من كان الغنى عنده يجدي
حلبت بشعري راحتيه فدرَّتا	سماحاً كما درَّ السحاب مع الرعد
إذا جئته للحمد أشرق وجهه	إليك وأعطاك الكرامة بالحمد

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

لـه نـعم فـي الـقـوم لا يـسـتـثـيبـهـا　　جـزاء وكـيـل الـتـاجـر الـمـد بـالـمـد
مـفـيـد ومـتـلاف سـبـيـل تـراثـه　　إذا مـا غـدا أو راح كـالـجـزر والـمـد
أخـالـد أن الـحـمـد يـبـقـى لأهـله　　جـمـلاً ولا تبقى الـكـنـوز على الـكـد
فـأطـعم وكـل مـن عـارة مسـتـردة　　ولا تـبـقـهـا إن الـعـواري لـلـرد[1]

ووفد بشّار إلى خالد بن برمك وهو على فارس، فأنشده:

أخـالـد لـم أخط إلـيـك بـذمـة　　سـوى أنـنـي عـاف وأنـت جـواد
أخـالـد بين الأجـر والحمـد حـاجتي　　فـأيـهـمـا تـأتـي فـأنـت عـمـاد
فـإن تعطي أفـرغ عليـك مـدائحي　　وإن تـأب لـم يضـرب علـيَّ سـداد
ركـابـي عـلى حـرف وقلبي مـشيـع　　ومـا لـي بـأرض الـبـاخـلين بـلاد
إذا أنـكـرتـنـي بـلدة أو نـكـرتـهـا　　خـرجت مـع الـبـازي علـيَّ سـواد[2]

ولمّا سمي خالد الوافدين على بابه «زواراً»، بعد أن كانوا يسمون «سؤالاً»، قال في ذلك بعض زواره:

حـذا خـالـد في جـوده حـذو بـرمـك　　فـجـود لـه مـسـتـطـرف وأثـيـل
وكـان بنـو الإعـدام يـدعـون قبـله　　بـاسـم عـلى الإعـدام فيـه دلـيـل
يسمّـون بـالـسؤال فـي كـل مـوطن　　وإن كـان فـيـهـم تـافـه وجلـيـل
فـسـمّـاهـم الـزوّار سـتـراً عـلـيـهم　　فـأسـتـاره في المجتـدين سـدول[3]

وممن كان يختص بالبرامكة، الشاعر نصيب الأصغر، فقد مدح يحيى بن خالد، فقال:

---

(١) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٣ ص ٨٥ ــ ٨٦.
(١) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٣ ص ٩٥ ــ ٩٦.
(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٥٠ ــ ١٥١؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ٣ ص ٦٨ ــ ٦٩، مع الإشارة إلى أن صاحب الأغاني قد نسب هذه الأبيات الشعرية إلى الشاعر بشار بن برد.

عـنـد الـمـلوك مضـرة ومـنـافـع | وأرى الـبـرامـك لا تـضـر وتـنـفـع
إن العـروق إذا استسـر بهـا الثـرى | أيسـر النبات بهـا وطـاب المـزرع
وإذا جـهـلت مـن امـرىء أعـراقـه | وقـديمـه فـانـظر إلى مـا يصنـع[1]

وصحب الشاعر كلثوم بن عمرو العتابي البرامكة[2]، وقد أنقذه يحيى البرمكي من الموت بعد أن كان قد نقل إلى الرشيد عنه ما أهدر به دمه، فقال فيه شعراً:

ما زلت في سكرات الموت مطرَّحاً | قد غاب عني وجوه الأمر من حيلي
فلم تـزل دائمـاً تسعى لتنقـذني | حتى استللت حياتي من يدي أجلي[3]

وقد صوَّر أحد الشعراء جود يحيى بن خالد وكرمه تصويراً بديعاً، فقال:

لا تـراني مصـافـحـاً كف يـحـيى | إنـني إن فـعـلت ضـيـعـت مـالي
لـو يـمسّ البـخـيـل راحـة يـحـيى | لـسخـت نـفـسـه بـبـذل الـنـوال[4]

وفيه يقول أحدهم:

سألت الندى هل أنت حر فقـال لا | ولـكـنني عبـد ليحيى بن خـالـد
فـقـلـت شـراء قـال لا بـل وراثـة | تـوارثـني عـن والـد بـعـد والـد[5]

---

(١) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ١٥٦ (وهي قصيدة طويلة)؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٣؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص ٨، وكان الفضل بن يحيى يقول للشعراء: إذا قلتم قولوا مثل هذه الأبيات، وإذا مدحتم فامدحوا بمثل هذا الشعر: ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ١٥٦.

(٢) لقد شهد يحيى بن خالد شهادة طيبة بهذا الشاعر عندما قال لولده: إذا قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلاً عن رسائله وشعره، فلن تروا أبداً مثله: الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٢ ص ٨ ـ ٩.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٣؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٢ ص ١٣، مع تغيير في بعض الألفاظ.

(٤) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٨.

(٥) ابن اعبد ربه: **العقد الفريد** ج ١ ص ٢٦٨؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٢.

وقد مدحته الشاعرة عنان في قصيدة قالت في مطلعها:

نفى النـوم من عيني حرك القصـائـد ... وآمـال نـفس هـمـهـا غيـر نـافـذ
إذا مـا نفى عني الكـرى طـول ليلة ... تعـوذت منهـا بـاسم يحيى بن خـالـد
وزيـر أميـر الـمـؤمـنيـن ومـن لـه ... فـعـالاً من حـمـد طـريف وتـالـد
من البـرمـكيين الـذين وجـوههـم ... مصابيح يطفي نـورهـا كـل واقـد[1]

وللشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري في يحيى بن خالد:

أجـدك هـل تـدريـن أن رب لـيـلة ... كـأن دجـاهـا من قـرونـك ينشـر
صبـرت لهـا حتى تـجـلّت بـغـرة ... كغـرَّة يحيى حين يـذكـر جعفـر[2]

ولمَّا غاب يحيى بن خالد وجاور بمكة قال أشجع:

قـد غـاب يحيى فمـا نـرى أحـداً ... يـأنس إلَّا بـذكـره الـحـسـن
أوحـشـتِ الأرض حـيـن فـارقـهـا ... مـن الأيـادي الـعـظام والـمـنـن
لـولا رجـاء الإيـاب لانـصـدعـت ... قـلوبنـا بـعـده مـن الـحـزن[3]

وقـال أيضـاً:

أبـت نفسُ يـحيـى أن يـدبـر دولـة ... تـزول أواخـيهـا ويـفنى سـرورهـا
ولـمّـا رأى الأيـام تـنـقـضـي مـرة ... وتثقـل أخـرى وهـي واهٍ مـريـرهـا
تجـافي عن الـدنيـا وقـد فتقت بـه ... حـواضـرهـا واستقبلته أمـورهـا[4]

وقال يمدح يحيى بن خالد:

يـا راكـب الـعـيس الـتـي ... أفنى عـريكـتـهـا ابتـكـاره

---

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٦.
(٣) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١١٧.
(٤) نفس المصدر ص ١٢٧.

أرحل إلى يحيى واد ... قن إن دار الجود داره
يحيى امرؤ ترجى منا ... فعه ولا يخشى ضراره
يعفو عن الذنب العظيـ ... ـم وليس يعجزه انتصاره[1]

ومن أشاد بيحيى وفضائله، الشاعر أبو قابوس عمر بن سليمان الحيري، إذ قال:

رأيت يحيى أتم الله نعمته ... عليه يأتي الذي لم يأته أحد
ينسى الذي إن من معروفه أبداً ... إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد[2]

وقد جذب البرامكة الشاعر سلم الخاسر إليهم، فقال في إحدى قصائده المشهورة مادحاً يحيى بن خالد:

بلوت الناس من عجم وعرب ... فما أحد يسير كما تسير
فكل الأمر من قول وفعل ... إذا علقت يداك به صغير
وفي كفيك قدرجة المنايا ... ومن جدواهما الغيث المطير
وأنت العز في حرب وسلم ... يضاف إلى مناكبك الطهور[3]

وعندما شاب يحيى قال فيه سلم الخاسر:

وفتى خلا من ماله ... ومن المروؤة غير خال
وإذا رأى لك موعداً ... كان الفعال مع المقال
لله درك من فتى ... ما فيك من كرم الخلال
أعطاك قبل سؤاله ... فكفاك مكروه السؤال[4]

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٧.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٩؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٥.

(٣) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٠٠ وما بعدها.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٩.

وفيه يقول مروان بن أبي حفصة:

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد ... أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
سمت نحوه الأبصار منا ودونه ... مفاوز تغتال النياق بها السفر
فإن نشكر النعمى التي عمنا بها ... فحق علينا ما بقينا له الشكر[1]

وبعد أن سكنت الفتنة في الشام بين النزارية واليمانية في سنة ١٧٦هـ عفا يحيى البرمكي عن أهلها وعما كان بينهم، فقال فيه إسحاق بن حسان الخزيمي:

من مبلغ يحيى ودون لقائه ... زأرات كل خنابس همهام
يا راعي الإسلام غير مفرط ... في لين مغتبط وطيب مشام
تغذي مشاربه وتسقي شربه ... ويبيت بالربوات والأعلام
حتى تنخنخ ضارباً بجرانه ... ورست مراسيه بدار سلام
فلكل ثغر حارس من قلبه ... وشعاع طرف ما يفتر سام[2]

وقد انقطع الشاعر أشجع بن عمرو السلمي للبرامكة وأضفاهم مدحه، فمن مدحه ليحيى بن خالد:

كفاني صروف الدهر يحيى بن خالد ... فأصبحت لا أرتاع للحدثان
كفاني ـ كفاه الله كل ملمة ـ ... طلاب فلان مرة وفلان
فأصبحت في رغد العيش واسع ... أقلب فيه ناظري ولساني[3]

وبعد شفاء يحيى بن خالد من علة أصابته، دخل أشجع الشاعر ليهنئه بالسلامة، فأنشده:

لقد قرعت شكاة أبي عليٍّ ... قلوب معاشر كانوا صحاحا

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٧٩.
(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥١.
(٣) الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٧٧؛ الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٨٨.

فإن يدفع لنا الرحمن عنه ... صروف الدهر والأمل المتاحا
فقد أمسى صلاح أبي عليٍّ ... لأهل الدين والدنيا صلاحا
إذا ما الموت أخطأه فلسنا ... نبالي الموت حيث غدا وراحا[1]

وعن يحيى وأولاده الأربعة، قال أبو الغول الشاعر:

أولاد يحيى بن خالد وهم ... أربعة: سيد ومتبوع
الخير فيهم إذا سألت بهم ... مفرق فيهم ومجموع

وقد وصف الشاعر نصيب الأصغر جود الفضل بن يحيى في قصيدة طويلة، منها:

إني سأمتدح الفضل الذي حنيت ... منا عليه قلوب البر والضلع
جاد الربيع الذي كنا نؤمِّله ... فكلنا بربيع الفضل مرتبع
كانت تطول بنا في الأرض نجعتنا ... فاليوم عند أبي العباس ننتجع[3]

وعندما مرَّ هذا الشاعر بباب الفضل بن يحيى قال:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ... ترك الناس كلهم شعراء[4]

فاستجيد البيت واستحسن وعيب بأنه بيت مفرد، فقال أبو العذافر ورد بن سعد العمّي:

---

(١) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ١٠٤؛ الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٨٠.

(٢) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٣٣.

(٣) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٤) الجاحظ: **الحيوان** ج ٣ ص ١١٧؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٥، وقد ذكر هذا الشعر دون تسمية ناظمه، أما صاحب الأغاني فقد نسب هذا البيت إلى الشاعر نصيب الأصغر: الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص ٨١؛ الكتبي: **فوات الوفيات** المجلد الرابع ص ٢٠٥.

علم المفحمين أن ينطقوا الأشعار منا والباخلين السخاء[1]

وقد مدح سعيد بن وهب الفضل بن يحيى، فقال:

مدح الفضل نفسه بالفعال فعلا عن مديحنا بالمقال[2]

ومدحه أبي الخطاب البهدلي، فقال:

تشاغل الناس ببنيانهم والفضل في بنا العلا جاهد
كل ذوي الرأي وأهل النهي للفضل في تدبيره حامد[3]

وصاغ إسحاق بن إبراهيم الموصلي لحناً في شعر غنّى به الفضل، فقال:

وقائل قال لي لمّا رأى زمني يبري عظامي بري القدح بالسفن
هل كان بينكما فيما مضى ترة فصار يبغيك بالأوتار واللحن
لو كان بيني وبين الفضل معرفة فضل ابن يحيى لأعداني على الزمن
هو الفتى الماجد الميمون طائرهُ والمشتري الحمد بالغالي من الثمن[4]

ومدح الشاعر أبو النواس الفضل البرمكي بقصائد عديدة، قال في بعضها:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننا
أمير رأيت المال في حجراته مهيناً ذليل النفس بالضيم موقنا[5]

وقال فيه أيضاً:

أوحده الله فما مثله لطالب ذاك ولا ناشد
وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد[6]

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٥؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص٣٦.
(٢) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢١ ص ١٦٧.
(٣) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ١٣٥.
(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩١.
(٥) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢١٦ ــ ٢١٧.
(٦) الجاحظ: **الحيوان** ج ٣ ص ٦٣ ــ ٦٤.

وفي إحدى روائعه قال الشاعر مروان بن أبي حفصة في الفضل بن يحيى:

إذا أُم طفل راعها جوع طفلها دعته[1] باسم الفضل فاستعصم الطفل
ليحيا بك الإسلام إنك عزّة وإنك من قوم صغيرهم كهل[2]

وفيه يقول:

تخيرت للمدح ابن يحيى بن خالد فحسبي ولم أظلم بأن أتخيرا
له عادة أن يبسط العدل والندى لمن ساس من قحطان أو من تنزرا
إن المنبر الشرقي سار ولم يزل له والد يعلو سريراً ومنبراً
يعدو يحيى البرمكي ولا يرى لدى الدهر إلاّ قائداً أو مؤمّرا[3]

وعندما تمكن الفضل من حمل يحيى العلوي على قبول الصلح قال فيه (مروان بن أبي حفصة) أيضاً:

ظفرت فلا شلّت يد برمكية رتقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً لكم كلما ضمّت قداح المساهم[4]

وللشاعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي في ذكر أمر الفضل بن يحيى وما صنعه في أمر يحيى بن عبد الله بن حسن أشعار كثيرة، منها:

بالفضل يحسن لفظ كل مقال وبه تسير غرائب الأمثال
وبه تكشف مظلم الفتن التي يمسي العباد بها على زلزال
حُسنُ التي بالفضل رد مخوفها باد لئن كانت بغير قتال

---

(١) في كتاب الجهشياري: غذته: الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٩٠.
(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٨؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٩٠ ـ ١٩١.
(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٨.
(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٤٣.

أعـطى ابـن عبـد الله يـحـيـى ذمـة ... وصـل الـوفـاء حبالهـا بحبـالي[1]

ومنها قصيدة، أولها:

إن شمـل الـشـيـب قـنـاع البـلى ... مـفـارقـاً مـنـي وأصـداغـاً
فـقـد أرى أشـوس ذا مـرة ... وحـيـة أربـد لـداغـاً[2]

ومنهـا أيضـاً:

لقد برَّز الفضـل بن يحيى ولم يـزل ... يسـامي من الغـايـات مـا كـان أرفعـا
رآه أمـيـر الـمـؤمـنـيـن لـمـلكـه ... كفيـلاً لما أعـطى من العهـد مقنعاً[3]

وقـال أبـان يخـاطب الـرشيـد ويهنئه بمـا فعـل الفضـل في أمـر يحيى بن عبد الله بن حسن:

هنيئـاً أميـر المؤمنـين لـك الـظفـر ... قـد تمت النعمى وقـد سـاعـد القـدر

وفـيـهـا:

أتـاك بيحيى الفضـل سلمـاً يقـوده ... مـقـراً ولـولا يُمن جـدك مـا أقـر
لئن كـان يـوم الفضـل فيـه مشهـراً ... لا كـرم بيـوم منه أفنى بـه الخـزار[4]

وقـال أيضـاً:

أطـال الله فـي عـز ونـصـر ... بـقـاءك يـا أمـيـر الـمـؤمـنـيـنـا
إذا مـا الـحـرب شب لـهـا ضـرام ... تـقـلب فـيـه أيـدي الـنـاكـبـيـنـا
فـول مـهـمهـا الـفـضـل بـن يـحـيـى ... وقـد رجمت فـي يحيى الـظنـونـا
مـقـراً بـالـذي قـد كـان يـأتـي ... ويـفـعـل خـزيـة الـمـتـشـيـعـونـا

---

(١) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٢١.
(٢) نفس المصدر ص ٢٠.
(٣) نفس المصدر والصفحة.
(٤) نفس المصدر ص ١٩.

لئن خصتك نعمتها بفضل لقد عمَّت جميع المسلمينا[1]

ولمّا جنَّد الفضل بن يحيى في خراسان جيشاً مؤلفاً من خمسماية ألف رجل، مدحه الشاعر مروان بن أبي حفصة بقصيدة، قال في مطلعها:

ما الفضل إلاَّ شهاب لا أفول له عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
حام على ملك قوم عز سهمهم من الوراثة في أيديهم سبب
أمست يد لبني ساقي الحجيج بها كتائب ما لها في غيرهم أرب
كتائب لبني العباس قد عرفت ما ألف الفضل منها العجم والعرب[2]

ولمّا أراد الفضل بن يحيى من خراسان، مدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة، قال في مطلعها:

حمدنا الذي أدى ابن يحيى ما صبحت بمقدمة تجري لنا الطير أسعد
وما هجعت حتى رأته عيوننا وما زلن حتى آب بالدمع حشدا[3]

ولمّا أراد الفضل بن يحيى الخروج إلى خراسان، ودَّعه الشاعر إسحاق الموصلي، ثم أنشده:

فراقك مثل فراق الحياة وفقدك مثل افتقاد الديم
عليك السلام فكم من وفا أفارق فيك وكم من كرم[4]

وفيه يقول الشاعر أبو بصير:

نام الخليون من همّ ومن سقم وبت من كثرة الأحزان لم أنم
يا طالب الجود والمعروف مجتهداً أعمد ليحيى حليف الجود والكرم[5]

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢.
(٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٥٧.
(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٥٩.
(٤) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ١٢٨.
(٥) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٣.

وفي الفضل يقول الشاعر أشجع السلمي يمدحه:

وما قدم الفضل بن يحيى مكانه على غيره بل قدمته المكارم
لقد أرهب الأعداء حتى كأنما على كل ثغر بالمنية قائم[1]

ولأبي النضير في مدح الفضل بن يحيى:

وللناس معروف وفيهم صنائع ولن يجبر الأحزان إلّا جدّا الفضل
إذا ما العطايا لم تكن برمكية فتلك العطايا ما تمر وما تحلى[2]

وفيه وفي آله يقول أبو النضير أيضاً:

إذا كنت في بغداد منقطع الندى وجدت نسيم الجود من آل برمك[3]

وقد مدح الشاعر منصور النمري الفضل بن يحيى يوماً، فقال:

رأيت الملك مذ آزر ت قد قامت محانيه
هو الأوحد في الفضل فما يعرف ثانيه[4]

ولمّا أظهر الفضل بن يحيى البيعة لمحمد بن الرشيد وبايع الناس له، قال في ذلك النمري:

أمست بمرو على التوفيق قد صفقت على يد الفضل أيدي العجم والعرب
بيعة لولي العهد أحكمها بالنصح منه وبالإشفاق والحدب
قد وكد الفضل عقداً لا انتقاض له لمصطفى من بني العباس منتخب[5]

ولأبي قابوس الحيري في مدح الفضل:

---

(١) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٣) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٠ ص ٢٠٦.
(٤) الكتبي: **فوات الوفيات** م ٤ ص ١٦٨.
(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

رأى الله تفضيل ابن يحيى بن خالد   فضله والله بالناس أعلم
له يوم بؤس فيه للناس أبؤس   ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الغني   ويمطر يوم البؤس من كفه الدم[1]

ودخل الشاعر سلم الخاسر على الفضل بن يحيى في يوم نيروز والهدايا بين يديه، فأنشده قصيدة، منها:

رأيت مكارم الأخلا   ق ما ضمت حمائله
فلست أرى فتى في النا   س إلَّا الفضل فاضله
يقول لسانه خيراً   فتفعله أنامله
ومهما يرج من خير   فإن الفضل فاعله[2]

وقد صوَّر هذا الشاعر شجاعة الفضل بن يحيى وجُوده، فقال:

وكيف تخاف من بؤس بدار   تكنفها البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى   نفير ما يوازنه نفير
له يومان: يوم ندى وبأس   كأن الدهر بينهما أسير
إذا ما البرمكي غدا ابن عشر   فهمته وزير أو أمير

إلى أن يقول:

أقام الندى والجود في كل منزل   أقام فيه الفضل بن يحيى بن خالد[3]

وفيه يقول القائل:

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة   رأيت بها عشب السماحة ينبت
فليس بسعال إذا سيل حاجة   ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت[4]

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٠.
(٢) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢١ ص ١٩٠ ــ ١٩١.
(٣) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٨.
(٤) الأتليدى: **أعلام الناس** ص ١٥٢.

ومدحه أحد الشعراء، فقال:

إلى الفضل فارحل بالمديح فإنه ... منيع الحمى معروفه ليس يمنع
وزرة تزر علماً وحلماً وسؤدداً ... وبأساً به أنف الحوادث يجدع
وأبدع إذا ما قلت في الفضل مدحه ... كما الفضل في بذل المواهب يبدع
إذا ما حياض الجود قلت مياهها ... فحوض أبي العباس بالجود مترع[1]

وكان الأصمعي يردِّد في أشعاره مدح جعفر بن يحيى، وخير ما يمثل ذلك قوله:

إذا قيل: من للندى والعلا ... من الناس؟ قيل الفتى جعفر
وما أن مدحت فتى قبله ... ولكن بنو برمك جوهر[2]

وفيه تقول عنان، جارية الناطفي:

بديهته وفكرته سواء ... إذا التبست على الناس الأمور
وصدر فيه للهم اتساع ... إذا ضاقت من الهم الصدور
وأحزم ما يكون الدهر رأياً ... إذا عجز المشاور والمشير[3]

ولمّا أصلح جعفر بن يحيى بين أهل الشام بعد أن هاجت العصبية بها، مدحه الشاعر منصور النمري بقصيدة طويلة، منها:

لقد أُوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليها، خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
رماها بسيسون النقيبة ماجد ... تراضى به قحطانها ونزارها[4]

---

(١) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٤٢.
(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٠٦.
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥.
(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٢.

وفي جعفر يقول مسلم بن الوليد في قصيدة طويلة:

استفسد الدهر أقواماً فأصلحهم　　　محمّل نكبات الدهر محتمل
به تعارفت الأحياء وأتلفت　　　إذ ألفتهم إلى معرفه السبل
كأنه قمر أو ضيغهم هصر　　　أو حية ذكر أو عارض عطل[1]

وفيه يقول أبو نواس:

ذاك الوزير الذي طالت علاوته　　　كأنه ناظر في السيف بالطول[3]

وفي جعفر يقول أشجع السلمي يمدحه:

ذهبت مكارم جعفر وفعاله　　　في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه　　　والعقل خير سياسة النفس[2]

وله فيه:

يحب الملوك ندى جعفر　　　ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم في الغنى　　　ولكن معروفه أوسع
وكيف ينالون غاياته　　　وهم يجمعون ولا يجمع[3]

وقال أشجع في جعفر البرمكي:

إذا أخذت أنامله　　　تبين فضله القلما
تطأطأ كل مرتفع　　　لفضل الكتب مذ نجما[4]

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٥.

(٣) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ٦٤؛ الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٧٨.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٥؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ٧٢ ـ ٧٣، مع تغيير في بعض الألفاظ.

(٥) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٣.

ولمّا خرج جعفر ليصلح أمر الشام (عام ١٨٠هـ)، قال فيه أشجع:

فئتان باغية وطاغية ... حلّت أمورها عن الخطب
قد جائكم بالخيل شاربه ... ينقلن نحوكم رحى الحرب
لم يبقَ إلاّ أن تدور بكم ... قد قام هاديها على القطب[1]

ولمّا عرض جعفر قال فيه أشجع:

لمّا اشتكى جعفر بن يحيى ... فارقني النوم والقرار
ومرَّ عيشي عليَّ حتى ... كأنما طعمه المرار
حزناً على جعفر بن يحيى ... لا حُقق الخوف والحذار
أن يعفه الله لا نبالي ... ما أحدث الليل والنهار[2]

ولمّا عزل الرشيد جعفر عن خراسان قال أشجع السلمي:

أمست خراسان تعزي بما ... أخطأها من جعفر المرتجى
كان الرشيد المعتلى أمره ... ولي عليها المشرق الأبلجا
ثم أراه رأيه أنه ... أمسى إليه منهم أحوجا
كم فرق الدهر بأسبابه ... من محصن أهلاً وكم زوجا
وكم به الرحمن من كربةٍ ... في مدة تقصر قد فرجا[3]

وقال أشجع يمدح جعفر بن يحيى في قصيدة، منها:

أحيا ابن يحيى النوال مغترباً ... فكل مجد إليه مجلوبُ
وكل بذل زكَت مناسبه ... فهو إلى البرمكي منسوب

---

(١) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ٦٦؛ الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٧٩.

(٢) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٧٩.

(٣) نفس المصدر ص ٨٧.

تـرب معـروفـة عـوائـده والعـرف عنـد الكـرام مـربـوب[1]

وفي قصيدة ثانية، قال فيه:

خـلق الله ابـن يـحـيى للـحـجـا والـمـكـرمـات
وصـل الله يـديـه بـالـمـنـايـا والـصـلات
فـهـو يـعـطيـك ابـتـداء قـبـل نـوب الـنـائـبـات
قـصـر الله بـإيـجـا زٍ لـه عـمـر الـغـداة
بـأبـي الـفـضـل بـن يـحـيى ذي الأيـادي الـسـابـغـات[2]

وفي قصيدة أخرى قال فيه:

أصـبـحـت مـحـسـوداً عـلى مـوضـع مـنـك ومـثـلي بـك مـحـسـود
وكـيـف لا أحـسـد مـن ظـلـه عـلى جـمـيـع الـنـاس مـمـدود
يـا فـاخـراً بـالـجـود مستـعـلـيـاً بـجـعـفـر يـفـتـخـر الـجـود
أغـر صـنـديـد إذا مـا بـدا أطـرقـت الـصـيـد الـصـنـاديـد[3]

وقال يمدحه في قصيدة، منها:

رأيت ابن يحيى في الأمور إذا التوت يشيـر على الجُلى ولا يستشيـرهـا
غني بفضـل الحـزم عن رأي غيـره يسـدي الأمـور نحـوهـا وينيـرهـا[4]

وقال يمدحه أيضاً في قصيدة أولها:

تـغـيـرت الـمـنـازل والـربـاع وقـيـعـان الأراكـة والـشـلاع
ديـار الـحي مـالـك بـعـد سـلـمى تـعـلاك اكـتـئـاب واخـتـشـاع[5]

(١) نفس المصدر ص ٩٢.
(٢) نفس المصدر ص ٩٣.
(٣) نفس المصدر ص ٩٦.
(٤) نفس المصدر ص ١٠٢.
(٥) نفس المصدر ص ١٠٣.

ومدحه في قصيدة أخرى، جاء في مطلعها:

أرى بارقاً نحو الحجاز تطلعا ... تحدر في شرقيها وترفعا
أمات وأحيا أنفساً بوميضه ... سقى الله مغناه وإن كان بلقعا[1]

وقال يمدحه أيضاً:

أسعد فؤاداً دائم الخفق ... وكفاك ما ألقى من العشق
لا تندبن طلول منزلة ... أنحى عليها الدهر بالمحق[2]

قال لجعفر بن يحيى:

بأكناف الحجاز هوىً دفين ... يؤرقني إذا هدت العيون
أحن إلى حنين إلف ... قرين الحب فارقه القرين[3]

وقال يمدح جعفر بن يحيى:

عجبت لما رأتني ... أندب الربع المحيلا
واقفاً في الدار أبكي ... لا أرى إلاّ طلولا[4]

وفيه يقول:

أذاق الموت أقواماً ... بظلمهم وما ظلما
وقوماً ألبستهم را ... حتاه العفو والنعما
بسيف يخفض النجوى ... وجود يرفع الهمما
أمات اللؤم نائلة ... وأحيا الجود والكرما
وما حفظ الحقوق كجعـ ... ـفر أحد ولا الذمما[5]

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٤.
(٢) نفس المصدر ص ١٠٥.
(٣) نفس المصدر ص ١١٥.
(٤) نفس المصدر ص ١١٩.
(٥) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ١١٤.

وقال فيه أيضاً:

ما كان يدرك بالرجال ولا	بالمال ما أدركت بالرفق[1]

وقال فيه أيضاً:

وثقت بجعفر في كل خطب	فلا هلك يخاف ولا ضياع[2]

وقد وصف أشجع السلمي لجعفر قصور البرامكة بحي الصالحية، فقال:

قصور الصالحية كالعذارى	لبسن ثيابهن ليوم عرس
مطلّات على روض كسته	أيادي الماء وشياً نسج غرس
إذا ما الطل أثّر في ثراه	تنفّس نوره من غير نفس
فتغبقه السماء بصبغ ورس	وتصبحه بأكؤس عين شمس[3]

وفي الرشيد وجعفر بن يحيى يقول الشاعر:

ليهن الرشيد خلافاته	وأمر الذي قد وهى عقده
أضاف إلى بيعه بيعة	فقام بها جعفر وحده
بنو برمك أسسوا ملكه	وشدّوا لوارثه عهده[4]

وقد أبدع الشاعر الكوفي مسلم بن الوليد في تصوير كرم الفضل بن جعفر وبلاغته، حين قال:

تساقط يمناه الندى وشماله الـ	ـردى وعيون القول منطقة الفضل
عجول إلى ما يودع الحمد ماله	يعد الندى غنماً إذا اغتنم البخل

---

(١) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٣٦٠.

(٢) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٧ ص ٨٣.

(٣) نفس المصدر ج ١٧ ص ٦٤؛ الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٧٨.

(٤) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤، ص ٢٣٦.

بكف أبي العباس يستمطر الغنى وتستنزل النعمى ويسترعف النصل
متى شئت رفعت الستور عن الغنى إذا أنت زرت الفضل أو أذن الفضل[1]

وكان الرقاشي منقطعاً إلى البرامكة يمدحهم ويعيش بهم[2]، وله فيهم:

قالت بنو برمك وقد صدقت إن قريع السماء موساها
خالدها في الوغى إذا استعرت وفي التقى والعفاف يحياها[3]

وقد مدح هذا الشاعر موسى بن يحيى بن خالد في قصيدة طويلة، منها:

كتبت عند ما مقامك عنا لك حول مذ أنت عنا مقيم
قلت لا أستطيع ترك بلاد حل فيها موسى بن يحيى الكريم[4]

ولمّا أصلح موسى بن يحيى ذات البين في سنة ١٧٠هـ بين العصبيتين المتناحرتين (النزارية واليمانية) في الشام، مدحه أحد الشعراء في قصيدة، جاء في مطلعها:

قد هاجت بالشام هيجا يشيب رأس وليده
فغضب موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام كما أتى نسيج وحيده
هو الجواد الذي بذّ كل جود بجوده[5]

ولمّا حجّ الرشيد ومعه ابناه محمد وعبد الله، وحجّ معه يحيى بن خالد ومعه ولداه الفضل وجعفر، فأعطى البرامكة في تلك السنة ثلاثة أعطيات، وسمي ذلك عام «الثلاثة أعطية»، ولم يروا مثل ذلك قط إلاّ في أيام البرامكة[6].

---

(١) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢٣٧.
(٢) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢٤٧.
(٣) نفس المصدر ص ٤٣٥.
(٤) نفس المصدر ص ٤٣٦.
(٥) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥١ ــ ٢٥٢.
(٦) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٢.

وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن مناذر:

أتانا بنو الآمال من آل برمك ... فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كل عام إلى العدا ... وأخرى إلى البيت العتيق المطهر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى ... بمكة ما حجّوا ثلاثة أقمر
فما خلقت إلاّ لجود أكفهم ... وإقدامهم إلاّ لأعواد منبر
إذا راضي يحيى الأمر ذلّت صعابه ... فناهيك من راع له مدبر
ترى الناس إجلالاً له كأنهم ... غرانيق ماء تحت باز مصرصر[1]

وقال بعضهم في البرامكة:

إن البرامكة الكرام تعلّموا ... فعل الكرام فعلّموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لم يهدموا مما بنوه أساسا
وإذا همو صنعوا الصنائع في الورى ... جعلوا لها طول البقاء لباسا
فعلام تسقيني وأنت سقيتني ... من مر هجر في جنابك كاسا
آنستني متفضلاً أفلا ترى ... أن انقطاعك يوحش الإيناسا[2]

* * *

(١) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ١٢٥؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٤؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠١، مع تغيير في بعض ألفاظ الأبيات الشعرية.

(٢) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٢.

٢

في رثاء البرامكة

ولمّا نكب الرشيد البرامكة واستأصل شأفتهم، حرَّم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة على ذلك. ولكن على الرغم من هذا التحريم فقد بكتهم العامة وقيل الشعر الكثير في رثائهم فأذن الرشيد لجميع الناس في رثائهم[١].

وقد رثتهم الشعراء بمرات كثيرة تضيق دونها المجلدات. وذكرت أيامهم وأسفت عليهم. فما استحسن من مراثيهم قول الرقاشي، وقد ذكر أن هذا الشعر لأبي نواس:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من كان يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد آمنت من السرى ... وطي الفيافي فدفداً بعد فدفد
وقل للمنايا: قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفري من بعده بمسوَّد
وقل للعطايا بعد فضل تعطّلي ... وقل للرزايا كل يوم تجدَّدي
ودونك سيفاً برمكياً مهنَّداً ... أصيب بسيف هاشمي مهنَّد[٢]

وفيهم يقول في شعر له طويل:

---

(١) ابن الطقطقي: **الفخري في الأداب السلطانية** ص ١٩٩ ــ ٢٠٠.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٣٠٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٦؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٩؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٤٦؛ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٦٠؛ أبو الفداء: **المختصر** ج ٣ ص ٢٤.

إن يغـدر الزمن الخئـون بنـا فقـد | غـدر الـزمـان بـجعـفـر ومحمَّـد
حتى إذا وضح النـهـار تـكشَّفـت | عن قتـل أكـرم هـالـك لـم يلحـد
والـبـيض لـولا أنـهـا مـأمـورة | مـا فـلَّ حـد مـهـنَّـد بـمـهـنَّـد
يـا آل بـرمـك كم لكم من نـائـل | ونـدى، كعـد الـرمـل غيـر مصـرد
إن الخليفـة ــ لا يشـك ــ أخـوكم | لـكـنـه فـي بـرمـك لـم يـولـد
نـازعـتـمـوه رضـاع أكـرم حـرة | مـخلوقـة مـن جـوهـر وزبـرجـد
مـلك كـانـت لـه يـد فـيَّـاضـة | أبـداً تـجـود بـطارف وبـمـتـلد
كـانـت يـداً لـلجـود حتـى غـلهـا | قـدر فـأضحى الجـود مغلول اليد[1]

وفي جعفر يقول:

كم هـاتف بـك مـن بـاك وبـاكيـة | بـأطيب للضيـف إذ تـدعى ولـلجـار
أن يعـدم المـطر كنت المـزن بـارقـة | لمـع الـدنانيـر لا ما خيـل الساري[2]

وقـولـه:

فـلا يـبعـدنـك الله عـني جـعـفـراً | بـروحـي ولـو دارت عليَّ الـدوائـر
فـآليت لا أنفـكُّ أبكـيـك مـا دعت | على فنـن ورقـاء أو طـار طـائـر[3]

وورد في «الأغاني» أن الرقاشي غنَّى في حبِّ البرامكة حتى ضيق عليه[4].

ولأشجع السلمي فيهم أيضاً:

---

(١) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٣٠٠ ــ ٣٠١.
(٢) الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٥ ص ٧٩.
(٣) نفس المصدر ج ١٥ ص ٧٩ ــ ٨٠.
(٤) نفس المصدر ج ١٥ ص ٨٠، وكان الفضل الرقاشي منقطعاً إلى آل برمك مستغنياً بهم عمن سواهم، وكانوا يصولون به على الشعراء ويروون أولادهم ويدونونها القليل والكثير منها تعصباً له وحفظاً لخدمته وتنويهاً باسمه وتحريكاً لنشاطه، فحفظ ذلك لهم فلما نكبوا صار إليهم في حبسهم فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا، ثم رثاهم فأكثر من رثائهم: الأصبهاني: **الأغاني** ج ١٥ ص ٧٨ ــ ٧٩.

كأن أيامهم من حسن بهجتها ... مواسم الحج والأعياد والجمع[1]

وقال:

ولّى عن الدنيا بنو برمك ... فلو توالى الناس ما زادا

كأنما أيامهم كلّها ... كانت لأهل الأرض أعيادا[2]

وقال أيضاً:

قد سار دهر ببني برمك ... ولم يدع فيهم لنا بقيا

كانوا أولي الخير وهم أهله ... فارتفع الخير عن الدنيا[3]

وممن قال فيهم فأجاد، سيف بن إبراهيم، حيث يقول:

هوت أنجم الجدوى وشلت يد الندى ... وغاصت بحور الجود بعد البرامك

هوت أنجم كانت لأبناء برمك ... بها يعرف الحادي طريق المسالك[4]

وممن قال فيهم أيضاً فأجاد، صالح الأعرابي، حيث يقول:

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك ... وأي ملوك لم تخنها دهورها؟

ألم يكُ يحيى والي الأرض كلها ... فأضحى كمن وارته منها قبورها؟[5]

ولابن أبي كريمة فيهم:

كل معير أعير مرتبة ... بعد فتى برمك على غرر

صالت عليه من الزمان يد ... كان بها صائلاً على البشر[6]

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٥.

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٥٦.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٣٠١؛ المسعودي: إنما نسب هذه الأبيات للشاعر سلم الخاسر: المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٤.

(٥) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٤.

(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٣٠١.

وللشاعر منصور النمري فيهم:

أندب بني برمك لدينا تبكي عليهم بكل واد
كانت بهم برهة عروساً فأضحت اليوم في حداد[1]

وقال العطوي أبو عبد الرحمن:

أما والله لولا قول واشٍ وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام
على الدنيا وساكنها جميعاً ودولة آل برمك السلام[2]

وفي قتل جعفر قال أبو العتاهية:

قولا لمن يرتجي الحياة أما في جعفر عبرة ويحياه
كانا وزيري خليفة الله ها رون هماماً هما خليلاه
فذاكم جعفر برمَّته في حالق رأسه ونصفاه
والشيخ يحيى الوزير أصبح قد نحاه من نفسه وأقصاه
شتِّت بعد التجميع شملهم فأصبحوا في البلاد قد تاهوا
كذلك في سخط الإله بما يرضى به العبد يُجزِه اللَّه
سبحان من دانت الملوك له أشهد أن لا إله إلَّا هو
طوبى لمن تاب بعد غرَّته فتاب قبل الممات طوباه[3]

وقد رثاهم ابن أبي معاذ في قصيدة طويلة، قال في مطلعها:

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٥.

(٢) الطبري تاريخ ج ٨ ص ٣٠١، وينسب الجهشياري هذه الأبيات إلى الرقاشي: الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٣٦؛ كذلك الأصبهاني: الأغاني ج ١٥ ص ٨٠؛ الخطيب البغدادي: ج ٧ ص ١٥٨؛ الدميري: حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١١٢، مع تغيير في بعض الألفاظ.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

يا أيها المغتر بالدهر ... والدهر ذو صرف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصولاته ... وكن من الدهر على حذر[1]

وممن أحسن في مرثيتهم أبو حرزة الأعرابي، وقيل أبو نواس، حيث يقول:

ما رعى الدهر آل برمك لما ... إن رمى ملكهم بأمر بديع
إن دهراً لم يرع حقاً ليحيى ... غير راعٍ حقاً لآل الربيع[2]

وقال فيهم بعض الشعراء فأحسن:

يا بني برمك واهاً لكم ... ولأيامكم المقتبلة
كانت الدنيا عرساً بكم ... وهي اليوم ثكول أرملة[3]

وممن قال فيهم فأحسن، دعبل الخزاعي، حيث يقول:

ألم ترَ صرف الدهر في آل برمك ... وفي ابن نهيك والقرون التي تخلو
لقد غرسوا غرس النخيل تمكناً ... فما حصدوا إلاَّ حصد البقل[4]

وقال دعبل، يرثي بني برمك:

ولمّا رأيت السيف جلل جعفراً ... ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت إنما ... قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا[5]

---

(١) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣.
(٢) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٤ ــ ٢٥٥، وذكر ابن خلكان بأن هذه الأبيات هي للشاعر صالح بن طريف: ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٤١.
(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٦، المسعودي **مروج** ج ٤ ص ٢٥٥، وقد نسب ابن خلكان هذين البيتين من الشعر إلى الشاعر صالح بن طريف؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٤١.
(٤) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٥٥.
(٥) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٧٠؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٤٠.

وقد رثى سليمان الأعمى البرامكة في قصيدة، قال في مطلعها:

هدا الخالون عن شجوي وناموا وعيني لا يلائمها المنام
وما سهري بأني مستهام إذا سهر المحب المستهام[1]

وبعد وفاة الفضل، قال بعض الشعراء:

ليس نبكي عليكم يا بني بر مك إن زال ملككم فتقضّى
بل نبكيكم لنا ولأنا لم نرَ الخير بعدكم أرضا[2]

وفي محمد بن يحيى يقول القائل:

سألت الندى والجود مالي أراكما تبدلتما عزاً بذل مؤبد
وما بال ركن المجد أمسى مهدماً فقالا أصبنا في أبن يحيى محمد
فقلت مهلاً مُتُمَا بعد موته وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقالا أقمنا كي نعزي بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد[3]

ورغم الكبت فقد تسرَّب إلينا أيضاً عبر الكتب التاريخية بعض الروايات التي قيلت في رثاء البرامكة، فقد قال سهل بن هارون في التفجُّع عليهم:

فلو انكفأت السماء على الأرض ما زاد، فتبرأ منهم الحميم واستبعد عن نسبهم القريب وجحد ولاءهم المولى، ولقد اعتبرت لفقدهم الدنيا، فلا لسان يخطر بذكرهم ولا طرف ناظر يشير إليهم[4].

وقال أبو يزيد الرياحي: كنت قائماً عند خشبة جعفر بن يحيي البرمكي أتفكر

---

(١) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٧، كذلك ابن خلكان لكنه نسب هذين البيتين إلى الرقاشي؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٤٠.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٣) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٢.

(٤) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٦٠.

في زوال ملكه وحاله التي صار إليها، إذ أقبلت امرأة راكبة، لها رواء وهيئة، فوقفت على جعفر فبكت فأحزنتْ وتكلَّمت فأبلغتْ، فقالت: أما والله لئن أصبحت للناس آية لقد بلغت فيهم الغاية، ولئن زال ملكك وخانك دهرك ولم يطل عمرك، لقد كنت المغبوط حالاً، الناعم بالاً، يحسن بك الملك، وينفس بك الهلك أن تصير إلى حالك هذه، ولقد كنت الملك بحقه، في جلالته ونطقه فاستعظم الناس فقدك، إذ لم يستخلفوا ملكاً بعدك، فنسأل الله الصبر على عظيم الفجيعة وجليل الرزية التي لا تُستعاض بغيرك، والسلام عليك وداع غير قال ولا ناس لذكرك.. ثم أنشأت تقول:

العيش بعدك مرّ غير محبوب ومذ صلبت رمقنا كل مطلوب
أرجو لك الله ذا الإحسان إن له فضلاً علينا وعفواً غير محسوب

ثم سكتت ساعة وتأملته، ثم أنشأت تقول:

عليك من الأحبة كل يوم سلام الله ما ذكر السلام
لئن أمسى صداك برأي عين على خشب حباك بها الإمام
فمن ملك إلى ملك برغم من الأملاك أسلمك الهمام[1]

هذا غيض من فيض مما قيل في مدح هؤلاء الناس.. والآن نتساءل: هل في هذا المدح إفراط ومبالغة؟ وما هي بالحقيقة الإيجابيات التي يجب أن يسجلها التاريخ في حق البرامكة؟

* * *

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٩.



في هجاء البرامكة

مع كثرة المديح الذي قيل في البرامكة، فلا بدَّ للمليحة من ذام ــ كما يقولون ــ فقد هجاهم بعض الشعراء بأبيات شعرية قليلة، منها:

قال بعضهم في البرامكة:

لعن الله آل برمك إني ... صرت من أجلهم أخا أسفار

إن يك ذو القرنين قد مسح الأر ... ض فإني موكل بالعيار[1]

وقال أبو الهول في جعفر بن يحيى:

أصبحت محتاجاً إلى الضرب ... في طلب العرف إلى الكلب

إذا اشتكى صب إليه الهوى ... قال له ما لي وللصب

أعني فتى يطعن في دينه ... يشب معه خشب الصلب[2]

وقال رجل من أهل الشام:

أبعد مروان وبعد مسلمة ... وبعد إسحق الذي كان لمة

صار على الثغر فرنج الرخمة ... إن لنا بفضل يحيى نقمة

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٧.

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤٧؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٥٤، مع تغيير في الألفاظ.

مـهـلكـة مـبـيـرة مـنـذ أكـل بني بـرمـك أكـل الحـطمـة
إن لـهـذا الأكـل يـومـاً تـخـمـةً أيسـر شيء فيـه حـز الغـلصمـة[1]

وقال سهل بن هارون في يحيى بن خالد:

عـدو تـلاد المـال فيمـا ينـوبـه منـوع إذا مـا منعـه كـان أحـزمـا
مـذلـل نفس قـد أبت غيـر أن تـرى مكـاره مـا تـأتى من الحق مغنمـا[2]

وقال الحسن بن هانىء:

عـجبت لهـرون الإمـام ومـا الـذي يـروّي ويـرجـو فيك يـا خلقـة السلق
قفـا خلف وجـه قـد أطيـل كـأنـه قفـا ملك يقضي الحقـوق على ثبق[3]
وأعـظم زهـواً من ذبـاب على خـرا وأبخـل من كلب عقـور على عـرق
أرى جـعـفـراً يـزداد بـخـلاً ودقـة إذ زاده الـرحمـن في سعـة الـرزق
ولـو جـاء غيـر البخـل من عنـد جعفـر لمـا وضعته النـاس إلاّ على الحمق[4]

ولأبـي نواس في هجاء جعفر بن يحيى:

لقـد غـرّني من جعفـر حسن بـابـه ولـم يـدر أن الـلوم حـشـو إهـابـه
ولست وإن بـالغت في مـدح جعفـر بـأول إنسـان خـري في ثـيـابـه[5]

ولـه فيـه:

إذا مـا مـدحـت فـتـى من خـيـرا ألـيس جـزائي أن أعـطى الـخـرا[6]

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨.
(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٩. وقد ذكر ابن قتيبة البيتين الثالث والأخير من هذه الأبيات التي أوردها الجاحظ ـ ونسبهما كالجاحظ إلى ابن نواس؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٢٧٣.
(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢١٥.
(٥) في الحيوان: «ثقا مالك يقضي الهموم على بثق»: الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٦٣.
(٦) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٣٩.

ولأبي الينبغي الشاعر في آل برمك:

إنـمـا الـدنـيـا كـبـيض عـمـلوه نـيـمـرش
فـحـشـاه الـبـرمـكـيـو ن وقـال الـنـاس كش[1]

وبعد أن ذكرنا ما روي من الشعر القليل في هجاء البرامكة، نستطيع القول إنه شعر تافه ركيك الألفاظ والمعاني، نُسب أحياناً إلى أشخاص غير معروفين، وأحياناً أخرى إلى شعراء غير مرموقين. ومن الممكن أن نعزوه لأفول دولة البرامكة ورواج سوق ذمّهم عند الخليفة بعد نكبهم.

* * *

(١) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ١٣١.

الفصل الخامس

مآثر البرامكة

١- العلم والأدب

٢- الترجمة

٣- الطب

٤- التواضع والتقرب إلى الناس

٥- دورهم المعماري

٦- الكرم

مآثر البرامكة

وأُناس كهؤلاء بلغوا هذه الذرى من المجد والسؤدد، لا بد أن يكونوا قد خاطبوا عصرهم باللغة التي كان يفهمها، فقد كان الأدب والشعر والغناء سمة المجتمع في تلك الفترة، وكان على البرامكة حتى يصلوا إلى مجدهم الذي يتطلَّعون إليه أن يكونوا أدباء شعراء كرماء متواضعين، يرعون المجالس الأدبية والفكرية والفنية والمناظرات المختلفة.. فهل كانوا كذلك؟

أحياناً يبدو لقارىء تاريخ شعب من الشعوب قراءة سابرة متأنية، أن ذلك الشعب على الدوام ذو سنام يُعتلى وزمام يقتاد به، وقد يكون القارىء من الألمعية بحيث تنكشف له الطريق إلى السنام والزمام فيشعر بأنه لا بد قادر على الاعتلاء والاقتياد لو كان له حظ المعاصرة.

والسؤال بعد هذا: هل وصل الأمر بالبرامكة إلى حد اكتشاف الطريق، إلى سنام مجتمعهم وزمامه وأخذوا للأمر عدته وشمَّروا عن الساق؟

إذا كان الأمر كذلك، فمن حق الناقد الحديث أن ينظر إلى أية مأثرة برمكية على أنها مجرَّد طعم مغرٍ لاقتناص خطوة إلى الأمام حيث الأمل المنشود، ألا وهو اعتلاء سدة الخلافة للعودة بها عرشاً كسروياً يعيد المجد القومي التليد.

فقد تمتَّع البرامكة، والشواهد كثيرة، بكل الشروط الذاتية التي تؤهِّلهم لذلك، فكانوا طموحين أذكياء مرنين، وتحت كل فرع من فروع هذا الثالوث تنطوي كل الأخبار التي مرت وستمرّ بنا عن مآثرهم. وأما المجتمع العباسي فقد كان وكأنه زجاجة صنعت لها خصيصاً تلك السدادة.. ألم تكن عروبة العباسيين مخففة بحيث احتاجت للبرامكة في وجه العروبتين المكثفتين: الأموية والعلوية.

هنا لا بد لنا من الإقرار بأننا أكثر ميلاً إلى الاحتمال الأخير، وهو مجرد احتمال لا يمكن أن يصل إلى حد الواقعة التاريخية الثابتة ما دام الرشيد بضربته القاضية قد قطع الطريق أمام كل تقرير وتأكيد.

إن مجال التاريخ ما حدث لا ما لم يحدث، حتى ولو كان قاب قوسين أو أدنى من الحدوث.

والآن، وقبل أن نورد ما أتاحته لنا المصادر والمراجع من أخبار عن مآثر القوم، لا بد أن نذكِّر القارىء بذلك الثالوث البرمكي: الطموح ـ المرونة ـ الذكاء. ليجعله معياراً يحك بها تلك الأخبار، عساه يصل ـ كما وصلنا ـ إلى ذلك الترجيح الذي مهما كان وزنه، لن يصل إلى مستوى الحقيقة التاريخية.

* * *



العِلمُ وَالأدَب

لقد استند ياقوت[1] إلى كل من الطبري والجهشياري والمسعودي وابن عبد ربه الأندلسي والخطيب البغدادي وغيرهم، حتى جاء رأيه في يحيى بن خالد بن برمك كما يلي:

كان يحيى من أكمل زمانه أدباً وفصاحةً وبلاغة، فمما روي عنه أنه قال: ما رأيت رجلاً إلاَّ هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظُم في عيني وصدري، وإن قصَّر سقط من عيني[2]. وحدَّث محمد بن صالح الواقدي، قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي، فقلت: إن ههنا قوماً جاؤوا يشكرون لك معروفاً، فقال: يا محمد، هؤلاء جاؤوا يشكرون معروفنا فكيف لنا شكر شكرهم[3].

وقال: مسألة الملوك عن حالها من سجية النوكي، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؛ فقل: صبَّح الله الأمير بالنعمة والكرامة.. وإذا كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله؛ فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة، فإن الملوك لا تسأل ولا تشمت ولا تكيف، وأنشد:

---

(١) ياقوت: **معجم الأدباء** ج ١ ص ٥ ــ ٩.

(٢) كذلك ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠١، مع تغيير في بعض الألفاظ.

(٣) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ١ ص ٢٧٨، مع تغيير طفيف في النص.

إن الـمـلوك يـخـاطـبـونـا ... ولا إذا مـلّوا يـعـاتـبـونـا
وفـي المـقـال لا ينـازعـونـا ... وفـي العـطاس لا يـشمـتـونـا
وفـي الخـطاب لا يـكيـفـونـا ... يـثـنـى عـليـه ويـبـجـلونـا
وإنهم وصاتي لا تكن مجنونا[1]

ويضيف ياقوت قائلاً: قيل له (أي يحيى بن خالد): أي الأشياء أقل؟ قال: قناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع، وسكون النفس إلى المدح. وقيل له: ما الكرم؟ فقال: ملك في زي مسكين[2]. قيل له: فما اللؤم؟ قال: مسكين في بطش عفريت[3].

قيل: فما الجود؟[4] قال: عفو بعد قدرة[5]. وقال: من وُلي ولاية فتاه فيها فقدره دونها. وقال: إذا فتحت بينك وبين أحد باباً من المعروف، فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة. وقال: إذا أردت أن تنظر إلى مروءة المرء فانظر إلى مائدته، فإن كانت حسنة فاحكم له بالشرف، وإن رأيت تقصيراً فما وراءها خير. وقال: أحسن جبلة الولاة إصابة السياسة، ورأس إصابة السياسة العمل لطاعة الله وفتح بابين للرعية، أحدهما رأفة ورحمة وبذل وتحنُّن؛ والآخر غلظة ومباعدة وإمساك ومنع. وقال: ما سقط غبار موكبي على أحد إلَّا وجب عليَّ حقه[6].

وقال الفضل له: يا أبت، ما لنا نسدي إلى الناس المعروف فلا يتبيَّن فيهم كتبيُّنه ببر غيرنا؟ قال: آمال الناس فينا أعظم من آمالهم في غيرنا، وإنما يسر

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٢٤.
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٧٣.
(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٧٣.
(٤) **في العقد الفريد**: الفرعنة: ابن عبد ربه **العقد الفريد** ج ٢ ص ٢٧٣.
(٥) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٢٧٣.
(٦) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٢، مع تغيير في بعض الألفاظ.

الإنسان ما بلغه أمله[1]. وقال: أنا مخيَّر في الإحسان إلى من أحسن إليه، ومرتهن بالإحسان إلى من أحسنت إليه لأني إن وصلته فقد أتممته، وإن قطعته فقد أهدرته[2]. وقال: الخط صورة، روحها البيان، ويدها السرعة، وقدمها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول[3].

وركب يوماً مع الرشيد، فرأى الرشيد في طريقه أحمالاً فسأل عنها، فقيل له: هذه هدايا خراسان بعث بها علي بن عيسى بن هامان. وكان ابن هامان وليَّها بعد الفضل بن يحيى، فقال الرشيد ليحيى: أين كانت هذه الأحمال في ولاية ابنك؟ فقال يحيى: كانت في بيوت أصحابها. فأفحم الرشيد وسكت.

ولما كان الفضل بن يحيى والياً على خراسان، كتب صاحب البريد إلى الرشيد كتاباً يذكر فيه: أن الفضل تشاغل بالصيد واللذّات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأ الرشيد رمى به ليحيى وقال: يا أبت، إقرأ هذا الكتاب واكتب إلى الفضل كتاباً يردعه عن مثل هذا. فمدَّ يحيى يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى ابنه على ظهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد: حفظك الله يا بني، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذّات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاوِد ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه

---

(١) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٣٤، ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٨، مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٢؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢، مع تغيير في النص.

(٣) وقد ورد قول يحيى هذا في كتاب المحاسن والمساوىء على الشكل التالي: الخط صورة روحها البيان ويدها السرعة وقدماها التسوية وجوارحهما معرفة الفصول، وقال في مثله، رحمه الله تعالى:

تقول وقد كتبت دقيق خطي ... فديتك مم تجتنب الجليلا؟
فقلت لها: نحلت فصار خطي ... دقيقاً مثل صاحبه نحيلا

البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٤٠.

لم يعرفه أهل زمانه إلّا به والسلام، وكتب تحته هذه الأبيات:

انصب نهاراً في طلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا مقبلاً ... وغاب فيه عنك وجه الرقيب
فبادرالليل بما تشتهي ... فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً ... يستقبل الليل بأمر عجيب
ألقى عليه الليل أستاره ... فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة ... يسعى بها كل عدوّ مريب[1]

ويتابع ياقوت كلامه فيقول بأن يحيى كان يقول لولده: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدَّثوا بأحسن ما تحفظون[2]. وقال: أنفق من الدنيا وهي مقبلِة، فإن الإمساك لا يُبقي منها شيئاً[3]. وقال: الدنيا دول، والمال عارية، ولنا فيمن قبلنا أسوة ونحن لمن بعدنا عبرة[4].

قال القاضي يحيى بن أكثم: سمعت المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في البلاغة، والكفاية، والجود والشجاعة، وكان يحيى يجري على سفيان الثوري ــ رضي الله عنه ــ ألف درهم في كل شهر، فكان إذا صلّى سفيان يقول في سجوده: اللهم إن يحيى كفاني أمر دنياي فاكفِه أمر آخرته. فلما

---

(١) المسعودي: **مروج** ج ٤ ص ٢٣٤؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٨ ــ ٢٩.

(٢) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٥ ص ١٣٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٠، ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ١ ص ٣، الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٤ ص ١٢٩؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢١.

(٣) وقد ورد قول يحيى هذا على الشكل التالي: إذا أقبلت الدنيا فانفق فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت فانفق فإنها لا تبقى: الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٤ ص ١٣١؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٦.

(٤) الطبري: **تاريخ** ج ٦ ص ١٨٦؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٣؛ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٤ ص ١٢٩؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٧٩؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢١.

مات يحيى رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان[1]. (انتهى كلام ياقوت).

وذكر أن يحيى بن خالد بن برمك ولّى أحدهم بعض أعمال الخراج، فدخل إلى الرشيد يودعه وعنده يحيى وجعفر بن يحيى، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه، فقال له يحيى: وفِّر وأعمر. وقال له جعفر: إنصف وانتصف. فقال له الرشيد: إعدل وأحسن[2].

ولمّا زوَّج يوسف بن القاسم ابنه بابنة الحسن بن سليمان ويُعرف بالشيعي، وكان من كتّاب البرامكة، كتب إلى يحيى بن خالد: «عرضت حاجة فكرهت أن أعدل بها عن الوزير، فأبخسه (هكذا) مع معرفتي بمحبتي لرب نعمته والزيادة في صنيعته حظاً ولزمني حق لا يمكن دفعه ولا تأخيره وهو نقد مهر عن أحمد إلى ابنة الحسن بن سليمان، فإن رأى الوزير أن يوقع مع ما استحقته من أرزاقي بشهرين سلفاً لشهرين فعل، فإني أرجو أن أبلغ بذلك لعبده أحمد محبته وأنال بغيته إن شاء الله».

فوقع يحيى إليه: هذه فضيلة في أوليائنا وحقوق في ضيافتنا، فنحن بالقيام منهما دونك حريون، وبخط نقلها عن مالك جديرون، وقد أمرت لأحمد ما سألت من المال بمسئلتك (هكذا) فيه وزيادة الضعف استظهاراً مني له ومؤكداً وأمرت باستحقاقك لشهرين من مال السلطان أعزّه الله ومثله صلة من مالي وأنفذت إليك بذلك كله رقاعاً بخطي إلى من يقبض ذلك منه، فأما السلف من مال السلطان فلا سبيل إليه، ولا أعرف جعفراً بتارك أحمد إليك ولا إلينا كما لم يترك الفضل قاسماً إن شاء الله، وفي أسفل الرقعة من شعر يحيى:

---

(١) الخطيب البغداد: **تاريخ بغداد** ج ١٤ ص ١٣٠؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ص ٢٢١ ــ ٢٢٢، مع تغيير في النص.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٢؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٢١٨.

عـنـدي لمثلك إحسـان وتكـرمـة فثق بـذلـك مـني وأبسط الأمـلا
إعـمـل عـلى ثـقـة إنـي أنـا رجـل لا أمـنـع الـمـرء مـوجـوداً إذ سـألا
وإن عـنـدي لـك الحسنى ونـافلة بنصح غيبك إذ لم تبغِ بي بدلا[1]

وقد روى الجهشياري بعض المأثور من كلام يحيى من مثل قـوله: «التعـزية بعد ثلاث: تجديد للمصيبة.. والتهنئة بعد ثلاث: استخفاف بالمـودة»[2]. وقولـه: «رسائل المرء في كتبه أدلّ على مقدار عقله وأصدق شاهداً على عيبـه لك ومعتقـده فيـك، من إضعاف ذلـك على المشافهـة والمواجهـة»[3]. وقولـه: «مطلك الغـريم أحسن من مـطلك الكريم، لأن الغـريم لا يسلف إلاّ من فضل، والكـريم لا يـطلب إلاّ من جهـد»[4]. وقولـه: «البلاغـة أن تكلِّم كـل قـوم بمـا يفهمـون»[8]. وقـولـه: «لا أرحام بين الملوك وبين أحد»[5]. وقوله: «لو كلّف الله العباد الجـزع دون الصبر كان قد كلَّفهم أشد المعنيين على القلوب»[6]. وقوله: «الدالة تفسد الحرمة القديمة وتضرّ بالمحبة المتأكدة»[7]. وقولـه: «المعجب للسلطان كيف يحسن ولو أسـاء لك الإساءة لوجد من يزكيه ويشهد بأنه محسن»[8]. وقوله لولده: «لا بـدّ لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس، فـإن النعمة على الأشـراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهـر، والشكر منهم أكثـر»[9]. وقولـه

(١) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ١٥٦.
(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٠.
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٠.
(٤) نفس المصدر ص ٢٠٠.
(٥) نفس المصدر ص ٢٠١.
(٦) نفس المصدر ص ٢٠١.
(٧) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠١.
(٨) نفس المصدر ص ٢٠٢.
(٩) نفس المصدر ص ١٧٩.

لجعفر ابنه: يا بني، انتقِ من كل علم شيئاً، فإنه من جهل شيئاً عاداه، وأنا أكره أن تكون عدواً لشيء من الأدب[1].

وقيل له: ألا تؤدب غلمانك؟ قال: هم أمناؤنا على أنفسنا، فإذا أخفناهم فكيف نأمنهم»[2]. ووقَّع يحيى إلى رجل ظن به تغيراً عليه: «ينبغي أن تكون على يقين أني بك ضنين، أريدك ما أردتني، إن نبوت عني ما كان ذلك بي وبك جميلاً، فإن وقعت المقادير بخلاف ذلك لم أعد ما يجب، والذي هاجني على الكتاب إليك أن أبا نوح معروف بن راشد سألني أن أبوح لك بما عندي والله يعلم أني ما تبدَّلت ولا حِلت عن عهد، جمعنا الله وإياك على طاعته ومحبة خليفته بجوده وقدرته»[3].

وكتب يحيى بن خالد إلى صديق له وهو في السجن، وقد كتب إليه يسأله عن حاله فوقع في كتابه: «أفضل الناس حالاً في النعمة مَن استدام مقيمها بالشكر واسترجع فائتها بالصبر»[4].

وكتب أيضاً إلى أخيه محمد من الحبس: «أنكرت صديقي، وعرفت عدوي»[5].

واحتاج يحيى إلى شيء، فقيل له: «لو كتبت إلى صديقك فلان؟ قال: دعوه يكن صديقاً»[6]. ومن قوله لابنه جعفر: «يا بني، ما دام قلمك يرعف فأمطره معروفاً»[7].

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣.

(٢) نفس المصدر ص ٢٠١؛ ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٣ ص ٢٨٤.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٢.

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٨.

(٥) نفس المصدر ص ٢٤٨.

(٦) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٨.

(٧) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٣.

وكان يحيى أعلم الناس بالنجوم[1].

وذكر ابن خالكان بأن يحيى كان من العقلاء الكرماء البلغاء، ومن كلامه: «ثلاثة أشياء تدل على عقول الرجال: الكتاب والرسول والهدية»[2]. وقوله: «المواعيد شباك الكرام يصيدون بها محامد الأحرار[3]. وقوله: «النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النجاح»، وقال: «إذا أدبر الأمر كان المطلب في الحيلة»[4]. وقوله: «الكلام ذو فنون وخيره ما وفق له القائل وانتفع به السامع»[5]. وقوله: «دخلنا في الدنيا دخولاً أخرجنا منها»[6]. وقوله: «الحاسد عدو مهين، لا يدرك وتره إلاَّ بالتمني»[7].

وعندما قال له رجل: والله لأنت أحلم من الأحنف بن قيس، قال له: «لا تقرب إليَّ من أعطاني فوق حقي»[8]. ومن توقيعاته لمتظلم من بعض الولاة: «أنصف من ولِّيت أمره وإلاَّ أنصفهم من ولى أمرك»[9].

ولما عاتب أحد الشعراء يحيى بن خالد، لأنه لم يعده في علته، كتب إليه يحيى يعتذر:

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٩.

(٢) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٢٢١.

(٣) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٣ ص ٢٨١؛ البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٥٦؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٢٢١، وقد ورد هذا القول في «العقد الفريد» على النحو التالي: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها: ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٢٥١.

(٤) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠١.

(٥) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٦.

(٦) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٢٦٦.

(٧) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٦ ص ٣٢٩.

(٨) نفس المصدر ج ٤ ص ١٠.

(٩) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٧.

دفع الله عنك نائبة الدهر وحاشاك أن تكون عليلا
أشهد الله ما علمت وماذا ك من العذر جائزاً مقبولا
ولعلي لو قد علمت لعاود تك شهراً وكان ذاك قليلا
فاجعلن لي إلى التعلق بالعذ ر سبيلاً إن لم أجد لي سبيلا
فقديماً ما جاء ذو الفضل بالفضل وما سامح الخليل خليلا[1]

وكان موسى بن عمران يقول: لم أَرَ أنطق من أيوب بن جعفر ويحيى بن خالد[2]. وعندما سجن يحيى وجَّه إلى الرشيد رسالة استعطاف بليغة، قال فيها: «من الحبس لأمير المؤمنين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمته عيوبه وأوبقته ذنوبه، وخذله شقيقه ورفضه صديقه، وزال به الزمان ونزل به الحدثان، وحل به الضيق بعد السعة، والشقاء بعد السعادة، وعالج البؤس بعد الدعة ولبس البلاء بعد الرخاء، وافترش السخط بعد الرضى واكتحل السهود وفقد الهجود، ساعته شهر وليلته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت، جزعاً يا أمير المؤمنين قد منَّى الله قبلك من موجدتك وأسفاً على ما حرمته من حربك لا على شيء من المواهب، لأن الأهل والمال إنما أنا لك وعارية في يدي منك، والعارية لا بد مردودة، فأما ما اقتصصته من ولدي فبذنبه وعاقبته بجرمه وجريرته على نفسه، فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ في أمره ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ولا كان مع ذلك بقاؤه أحب إليَّ من موافقتك، فتذكر يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك وحجب عني فقدك، كبر سني وضعف قوتي وارحم شيبتي وهَب لي رضاك عني، ولتمل إليَّ بغفران ذنبي، فمن مثلي يا أمير المؤمنين الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر إليك بما تحب الإقرار به حتى ترضى، فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمري، وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمك معه ما مننت به من رأفتك بي وعفوك عني ورحمتك لي، زاد الله في عمرك يا أمير المؤمنين

(١) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٤٤٩.
(٢) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٧٥.

وقدِّمني للموت قبلك. . وكتب في أسفله قصيدة طويلة، قال في مطلعها:

قـل لـلخـليـفـة ذي الـصـنـا ئـع والـعـطـايـا الـفـاشـيـة
وابـن الـخـلائـف مـن قـريـ ـش والـمـلـوك الـهـاديـة
مـلك الـمـلوك وخـيـر مـن سـاس الأمـور الـمـاضـيـة
إن الـبـرامـكـة الـذيـ ـن رمـوا لـديـك بـداهـيـة
عـمـتـهـم لـك سـخـطة لـم تـبـق مـنـهـم بـاقـيـة[1]

ولمّا دنت وفاته كتب ــ وهو في السجن ــ أبياتاً من الشعر وأوصى ابنه الفضل أن يُنفذها إلى الرشيد، جاء في هذه الأبيات:

سـتعـلم في الـحسـاب إذا التقـينـا غـداً يـوم الـقيـام مَـن الـمـظلوم؟
ويـنـقـطـع الـتـلذُّذ عـن أنـاس مـن الـدنيـا وتـنـقـطـع الـهـمـوم
تـنـام ولـم تـنـم عـنـك الـمـنـايـا تـنـبـه لـلـمـنـيـة يـا نـئـوم
تـروم الـخـلد فـي دار الـمـنـايـا وكـم قـد رام غـيـرك مـا تـروم
إلـى ديـان يـوم الـديـن نـمـضـي وعـنـد الله تـجـتـمـع الـخـصـوم[2]

وقد ذكر النديم اسم يحيى مع أسماء الفلاسفة الذين تكلّموا في الصنعة[3].

وكذلك جعفر، فإنه كان من ذوي الفصاحة والمذكورين باللسن والبلاغة، ويقال إنه وقع ليلة بحضرة هارون الرشيد زيادة على ألف توقيع ونظر في جميعها فلم يخرج شيء منها عن موجب الفقه[4]، إذ كان من أبرع أسماء الموقعين من

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٥٣٥ ــ ٥٣٧؛ ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٥ ص ٦٩؛ الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٤٩.
(٢) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥١.
(٣) النديم: **الفهرست** ص ٤١٩.
(٤) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩.

الكتّاب والوزراء، قال عنه الجهشياري[1]: كان جعفر بليغاً كاتباً، وكان إذا وقَّع نُسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته، وكان يقول لكتّابه: إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا[2].

وقال عنه ابن خلدون: «كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل أنها كانت تباع كل قصة منها بدينار[3].

ومن أمثله توقيعاته توقيعه على رقعة لمحبوس متظلِّم من حبسه: «العدوان أوبقة والتوبة تطلقة»[4]. وتوقيعه على كتاب لعلي بن عيسى بن هامان، وقد كتب إليه رقعة معتذراً من أشياء بلغته عنه:

كأنا وقد كنا صديقاً مصافياً ... تباعد بيننا فدام إلى الحشر[5]

ووقَّع على كتاب آخر لعلي بن عيسى: «حبَّب إلينا الوفاء الذي أبغضته، وبعض الغدر الذي أحببته كما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غدراتها

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٤، وقد ذكر القلقشندي: أن جعفر بن يحيى كان فرداً في زمانه بحيث يُضرب به المثل في أمثاله في التوقيع: القلقشندي: **صبح الأعشى**. ج ١ ص ٤٥٣ ــ ٤٥٤.

(٢) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٧٥ ــ ٧٦؛ ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٢٧٢؛ القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ٢ ص ٣٣٥، مع تغيير طفيف في النص وقد نسب الجهشياري هذا القول إلى يحيى بن خالد، وقد ورد على الشكل التالي: إن استطعتم أن تكون كتبكم التوقيعات اختصاراً فافعلوا: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠١.

(٣) ابن خلدون: **المقدمة** ص ٢٤٧.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٥، وقد ورد هذا التوقيع في **«العقد الفريد»** على الشكل التالي: العدل يوبقه والتوبة تطلقه؛ ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٤ ص ٢١٩، ونسب ابن الأثير هذا التوقيع إلى يحيى بن خالد؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٨٠.

(٥) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٥.

ووقعاتها عياناً وأخباراً والسلام»[1].

ووقّع أيضاً في رقعة رجل متحرم به: «هذا فتى له حرمة الأمل فامتحنه بالعمل، فإن كان كافياً فالسلطان له دوننا، وإن لم يكن كافياً فنحن له دون السلطان»[2].

وجاء في العقد الفريد[3] أن جعفر بن يحيى وقّع في رقعة محبوس: «لكل أجل كتاب. وفي رقعة متنصح: بعض الصدق قبيح. وإلى بعض عماله: قد كثر شاكوك وقلَّ شاكروك فإما عدلت وإما اعتزلت»[4].

وفي قصة رجل شكا بعض خدمه: خُذ بأذنه ورأسه فهو مالك وإلى عامل فارس في رجل كتب إليه بالوصاة: كن له كأبيه لو كان مكانك. وإلى عامل مصر في رجل من بطانته يوصيهُ: إنه رغب إلى شعبك فارغب في اصطناعه. وفي قصة متظلم من بعض عماله: إني ظلمتك دونه. وفي قصة محبوس: الجناية حبسته والتوبة تطلقه. وإلى قوم: عين الخليفة تكلؤكم، ونظره يعمكم. وفي رقعة صارورة استأذنه في الحج: من سافر إلى الله أنجح. وفي قصة رجل شكا عزوبه: الصوم لك وجاء. وفي رقعة رجل سأل ولاية: لا أولى بعض الظالمين بعضاً. وفي قصة رجل سأله أن ينقل ابنه فقد طالت غيبته عنه: غيبة يوسف ـ ﷺ ـ كانت أطول. وفي قصة رجل تكلّم عن بعض عماله: إنا لمثله حتى ينصفك. وفي قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابته: يرحل عنكم. وفي قصة مستمنح قد كان وصله مراراً: دع الضرع يدرّ لغيرك كما درَّ لك. وإلى الفضل بن الربيع وجاءه منه كتاب غمّه وأكربه: كثرة ملاحات الرجال ربما أراقت الدماء. وإلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه: لم نزرعك لنحصدك. وإلى بعض عماله: اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٥.

(٢) ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة** ج ٥ ص ٥١.

(٣) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٤ ص ٢١٩.

(٤) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٩.

عندنا. وإلى بعض ندمائه: لا تبعد عمن ضمك. ووقع إلى متنصل من ذنب: حكم الفلتات خلاف حكم الأحرار. (انتهى كلام ابن عبد ربه).

ودفع رجل إلى جعفر رقعة ذكر فيها قصده إياه بأمل طويل ورجاء فسيح، فوقَّع على ظهرها: «هذا يمت بحرمة الأمل، وهي أقرب الوسائل، وأثبت الوصائل، فليجعل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم وليمتحن ببعض الكفاية، فإن وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقاً، وإلى حرمته حرمة، وإن قصر عن ذلك فعلينا معوله، وإلينا موئله، وفي أمالنا سعة له»[١]. ورفع رجل إلى جعفر قصة يسأله الاستعانة به وكان يعرفه ويخبره. فوقَّع:

قد رأيناك فما أعجبتنا وبلوناك فلم نرضَ الخبر[٢]

ووقَّع جعفر في رقعة رجل تنقل إليه من ذنب: «تقدمت لك طاعة وظهرت منك نصيحة، كانت بينهما نبوة، ولن تغلب سيئة حسنتين»[٣].

وكان أبوه يحيى بن خالد قد ضمه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي حتى علَّمه وفقَّهه[٤]. وقيل بأنه كان أبلغ أهل بيته[٥]، وقد وصفه ابن الطقطقي[٦] بأنه كان فصيحاً لبيباً وذكياً فطناً كريماً، ووصفه ثمامة بن أشرس، فقال: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس قد جمع الهدوء والتمهُّل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لا يستغني جعفر عن الإشارة لما استغنى عن الإعادة[٧]. وقال ثمامة مرة: «ما رأيت أحداً كان لا يتحبَّس

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٥.
(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٥.
(٣) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٢ ص ٢٧٢.
(٤) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٩.
(٥) نفس المصدر ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٩.
(٦) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠٥.
(٧) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٧١؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٤.

ولا يتلجلج، ولا يتنحنح ولا يرتقِ لفظاً قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى. وقال ثمامة أيضاً: «قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ قال: أن يكون يحيط بمسناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة. والذي لا بدَّ منه: أن يكون سليماً من التكلُّف، بعيداً من الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل[1]. ويمضي ثمامة، فيقول: «ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون»[2].

ولمّا ناظر أحمد بن يوسف الكاتب إبراهيم بن المهدي في دار المأمون في أمر بني هاشم تفوق إبراهيم عليه فصاحة وحجة، فقال أحدهم لإبراهيم: «قد رأيت هذا الذي لا يطاق منحطاً في يدك، فقال إبراهيم: والله لو رأيتني في يد جعفر بن يحيى لرأيت دون هذا في يدي، وما رأيت أكمل من جعفر قط»[3].

وحين اجتمع الكتاب عند أحمد بن إسرائيل وتذاكروا الماضين من الكتاب أجمعوا أنَّ أزكى كتاب الدولة وأجمعهم لمحاسن الكتابة من ذكاء وخط وفطنة جعفر بن يحيى وإسماعيل بن صبيح[4].

وجاء في تاريخ اليعقوبي[5] أنه عندما استخلف الرشيد على الشامات والجزيرة جعفر بن يحيى بن خالد وظهرت العصبية بحمص فصعد جعفر بن يحيى منبرها فخطب وحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد، وقال: يا أهل الشام! أحذركم عواقب البطر، ووبال ما لا يُشكر من النعم، وملمَّة كل خطب يدفع إلى

---

(١) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٧١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٨٠، مع تغيير في النص.

(٢) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٢.

(٣) الصولي: **أشعار أولاد الخلفاء في كتاب الصولي** ص ٣٤.

(٤) الصولي: **أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق** ص ٢٠٧.

(٥) اليعقوبي: **تاريخ** م ٢ ص ٤١٠.

نـدم. . فـإن السعيـد من سعـد بغيـره، والشقي من شقي بنفسـه واتعظ بـه غيـره، والمغبون من غبن عقله، والمفتون من فتن في دينـه، والمحزوم من حـزم خطه من ربـه، والخاسـر من باع آخـرته بـدنيـاه وآجله بعـاجله، وإنمـا يخشى الله من عبـاده العلماء ولم يعطِ الله من عباده إلاَّ أولي البهاء. . . في كلام كثير.

وقد ذكر الجهشياري لجعفر خطبة أخرى بعد أن أصلـح أمـور الشام في سنـة ثمـانين ومائـة، جاء فيهـا: الحمد لله الـذي لم يمنعه غنـاه عن الخلق من العـائـدة عليهم، ولم تمنعـه إساءتهم من الـرحمـة لهم، دعـاهـم مـن طـاعتـه لمـا ينجيهم، وذادهم من معصيته عما يـرديهـم كلَّفهم من العمل دون طـاقتهم وأعطاهم من النعم فـوق كفـايتهم، فهم فيمـا حمّلوا مخفف عنهم، وفيمـا خـوَّلـوا مـوسَّـع عليهم، وصلى الله على محمـد نبـي الرحمـة والمبعـوث إلى كـافـة الأمـة وعلى أهـل بيتـه الطاهرين وسلَّم تسليماً.

أمـا بعد، فـإني أوصيكم بالألفـة، وأحذركم الفـرقـة، وآمـركم بـالاجتمـاع، وأنهـاكم عن الاختـلاف، قـال الله جـل وعـز: **﴿واعتصمـوا بحبـل الله جميعـاً ولا تَفَرَّقوا﴾**، فأمر بـالجماعـة في أول الآية، ثم لم ينقص حتى نهى فيهـا الفرقـة، تـوكيداً للحجـة وقطعـاً للمعذرة. إن الفـرقة تنشىء بينكم إحنـاً يطلب بهـا بعضكم بعضاً، وإن الجماعة تمتد بينكم ذمماً يحمي بها بعضكم بعضاً، حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم، فمتى يطمـع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمّكم؟ إن غفل بعضكم حرسه بقيتكم، وإن غربت طائفة منكم صنعها تآلفكم. إنه لم يجتمـع ضعفاء قط إلاَّ قووا حتى يمتنعـوا، ولم يفترق أقـوياء قط إلاَّ ضعفـوا حتى يخضعوا، واجتمـاع الضعيفين قوة، وافتـراق القويين مهـانة، تمكن منهمـا غافـل، والجماعـة لا تضره غفلته، لكثرة من يحفظه، ومتيقظ الفرقة لا ينفعـه تيقظه لكثـرة من يطلبـه، وصاحب الجماعة يدرك أرشه في الخدش والشجة، وصاحب الفرقة يذهب حقه في النفس والحرمة[1].

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩.

وهكذا نجد أن خطب جعفر ــ ومعظم كتابات البرامكة ــ كانت مبنية على السجع الذي كان جعفر يؤثره في كتاباته المختلفة مبالغة منه في التأنق والتنميق، وهو تنميق كان يطلب في كل ما يتصل به حتى في ثيابه[1].

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن البرامكة أشاعواالسجع في الكتابة الديوانية، وإن لم يطّرد في جميع رسائلهم وآثارهم، ولكن نحس ميلهم الواضح له هم وبعض كتّابهم ومن كانوا يكتبون إليهم[2].

وأيام كان الرشيد حسن الرأي في جعفر بن يحيى كان يحلف بالله أن جعفراً أفصح من قسّ بن ساعدة، وأشجع من عامر بن الطفيل، وأكتب من عبد الحميد بن يحيى، وأسيس من عمر بن الخطاب، وأحسن من مصعب بن الزبير[3].

وإسحاق الموصلي شهد أيضاً بذكاء جعفر وفطنته وفصاحته وأبدى إعجابه من سعة علمه بالألحان والأشعار. هذا ما رواه الحسين بن يحيى عندما قال: سمعت إسحاق بن إبراهيم الموصلي يحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو، أنه ما رأى أذكى من جعفر بن يحيى قط، ولا أفطن ولا أعلم بكل شيء، ولا أنصح لساناً، ولا أبلغ مكاتبة! قال: ولقد كنا يوماً عند الرشيد فغنى أبي لحناً في شعر طريح بن إسماعيل، وهو:

قد طلب الناس ما بلغه فما   نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا

فاستحسن الرشيد اللحن والشعر واستعاده ووصل أبي عليه. فقال: جعفر بن يحيى: قد والله يا سيدي أحسن، ولكن اللحن مأخوذ من لحن الدلاّل الذي غنّاه في شعر أبي زبيد:

---

(١) نفس المصدر ص ٢١٥.

(٢) شوقي ضيف: **تاريخ الأدب العربي** ج ٣ ص ٤٧٦.

(٣) ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة** ج ٥ ص ٢٧٤.

من يسر العير لابن أروى على ظهر المروري حداتهن عجال

وأما الشعر فنقله طريح من قول زهير:

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم فلم يفعلوا ولم يلموا ولم يألوا

قال إسحق: فعجبت والله من علمه بالألحان والأشعار، وإذا اللحن يشبه لحن الدلّال، قال: وكذلك الشعر: فاغتممت أني لم أكن فهمت اللحن، وكان ذلك أشهر عليَّ من ذهاب أمر الشعر عليَّ وأنا والله مع ذلك أغنّي الصوتين وأحفظ الشعرين[1].

ومما ينسب إليه من الفطنة أنه بلغه أنَّ الرشيد مغموم لأن منجماً يهودياً زعم أنه يموت في تلك السنة (يعني الرشيد) وأنَّ اليهودي في يده، فركب جعفر إلى الرشيد، فرآه شديد الغم، فقال لليهودي: أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوماً؟ قال: نعم، قال: وأنت كم عصرك؟ قال: كذا وكذا أمداً طويلاً، فقال للرشيد: اقتله حتى تعلم أنه كذب في أمده، فقتله. وذهب ما كان بالرشيد من الغم وشكره على ذلك وأمر بصلب اليهودي، فقال أشجع السلمي في ذلك:

سل الراكب الموفّى على الجذع هل رأى لراكبه نجماً بدا غير أعور

ولو كان نجم مخبراً عن منية لأخبره عن رأسه المتحير

يعرفنا موت الإمام كأنه يعرفنا أنباء كسرى وقيصر

أتخبر عن نحس لغيرك شؤمه ونجمك بادي الشر يا شر مخبر

ومضى دم المنجم هدراً بحمقه[2].

وعندما تكلَّم جعفر بشيء قاله للفضل (الفضل بن الربيع)، فقال الفضل: إشهد عليه يا أمير المؤمنين، فقال جعفر: فضَّ الله فاك يا جاهل إذا كان

---

(١) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٤ ص ١٦٤.

(٢) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٩.

أمير المؤمنين الشاهد فمن الحاكم المشهود عنده؟ فضحك الرشيد وقال: يا فضل لا تمارِ جعفراً، فإنك لا تقع منه موقعاً[1].

ومن مليح كلامه قوله: الخط سمط الحكمة، به تفضل شذورها وينظم منثورها[2].

وقوله: الخراج عمود الملك، وما استعزز بمثل العدل، وما استنزر بمثل القلم[3].

وقوله أيضاً: «إذا أحببت إنساناً من غير سبب فأرج خيره، وإذا أبغضت إنساناً من غير سبب فتوقَّ شره[4].

وقال إبراهيم الموصلي: «سمعت جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل من تأخر حاجة ضمنها له وهو يقول: احتج إليك بغالب القضاء، واعتذر إليك بصادق النية[5].

وقد حدَّثنا أحدهم عن بصر الفضل بن يحيى بقول الشعر، فقال: كنا عند الفضل بن يحيى، فخضنا في الشعر، فإذا هو من أروى الناس له، وأجودهم صلباً فيه، فقلت له: أصلحك الله! لو قلت شيئاً من الشعر، فإنه يزيد في الذكر، وينبِّه، فقال: هيهات شيطان الشعر أخبث من أن أسلطه على عقلي[6].

---

(1) ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة** م ٤ ج ١٨ ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٦؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٨، مع تغيير طفيف في النص.

(2) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٥؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٨٠؛ القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ٣ ص ٢.

(3) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ١ ص ١٣؛ ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ١ ص ٣١.

(4) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٣.

(5) نفس المصدر **العقد الفريد** ج ٢ ص ١٤١.

(6) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٧.

وخير دليل على حسن بديهة الفضل بن يحيى في الشعر، وما حدَّثنا به عبد الله بن سلام، إذ قال: لمّا وُلد العباس بن الفضل دخل الناس على الفضل بن يحيى يهنِّئون به وفيهم أبو النصير، فوقف بين يديه وهو يقول:

ويفرح بالمولود من آل برمك   بغاة الندى والسيف والرمح والنصل
وتستنبط الآمال فيه لفضله   ....

فارتجَّ عليه، فوقف لا يمكنه أن يجيزه، فقال له الفضل: يا أبا النضير! تمم. قال: أعزَّ الله الأمير، قال: ويحك فقل:

....   ولا سيما إن كان من ولد الفضل

قال: هذا والله، أصلح الله الأمير، طلبته فلم أقدر عليه وتعلَّلت بغيره[1].

وللفضل بن يحيى شعر في نكبتهم قاله في محبسه:

إن العزاء على ما ناب صاحبه   في راحة من عناء النفس والتعب
والصبر خير معين يستمعان به   على الزمان ومن ذا فيه لم يصب
لو لم تكن هذه الدنيا لها دول   بين البرية بالآفات والعطب
إذا صفت لأناس قبلنا وبهم   كانت تليق ذوي الأخطار والحسب
ولم تنلها وفيما قد ذكرت أسى   فارضوا وإن أسخطتكم نوبةُ العقب
نضواً لحوادث نضواً ليس ينفعه   شيء سوى الصبر من كد ومن تعب
والله ما أسفي إلّا لواحدة   ألّا أكون تقدمت المنون أبي
فكان يؤجر في ثكلي وتبعني   دعاؤه لي دعاء الوالد الحدب[2]

وله أيضاً:

إذا ملكت كفي منالاً ولم أنل   فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي

---

(1) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٤١٦ ــ ٤١٧؛ الأصبهاني: الأغاني ج ١٠ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، مع تغيير طفيف في النص.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٦٠.

على الله إخلاف الذي قد بذلته فلا مسعدي بخلي ولا متلفي بذلي
أروني بخيلاً نال مجداً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل[1]

وجاء في «مروج الذهب»[2]: أنه لمّا قتل جعفر وقبض على يحيى والفضل وضيّق عليهما المحابس واشتدّ بهما الجهد وترادف عليهما البلاء، قال الفضل بن يحيى يذكر ما هما فيه:

إلى الله فيما نابنا نرفع الشكوى ففي يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلا نحن في الأموات ولا الأحيا
إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة حجنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

وجاء في «الفهرست»[3]: فممن عمل شعر أبي نواس على غير الحروف يحيى بن الفضل راويته، وجعله عشرة أصناف. وذكر ابن النديم[4] اسم الفضل بن يحيى مع أسماء البلغاء، ومن أقواله: عز الشريف أدبه[5].

وعن الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها خالد بن برمك، قال المسعودي[6] ما حرفيته: «لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جوده ورأيه وبأسه وعلمه وجميع خلاله: لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل بن يحيى في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحة لسانه، ولا محمد في سروه وبُعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه».

وكان خالد البرمكي أول من نظم دواوين الدولة العباسية في خلافة

---

(١) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٦ ــ ١٥٧.
(٢) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ١٥٥؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٥.
(٣) النديم: **الفهرست** ص ١٨٢.
(٤) نفس المصدر ص ١٣٩.
(٥) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٣٢٩.
(٦) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٣٣.

أبو العباس السفاح[1]، وقد وصف سهل بن هارون البرامكة، فقال: «والله إن كانوا سجعوا الخطب، وقرضوا القريض لعيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور دراً، أو يحيله المنطق السري جوهراً، لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما. ولقد كان مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه فدمين عيين، وجاهليين أميين، ولقد عمرت معهم وأدركت طبقة المتكلّمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلاَّ فيهم، ولم تكن مقصورة إلاَّ عليهم، ولا انقادت إلاَّ لهم، وإنهم محض الأنام، ولباب الكرام، وملح الأيام، عتق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم، كثير أيام سواهم، من لدن آدم أبيهم إلى النفخ في الصور، وانبعاث أهل القبور، حاشى أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلاَّ بهم، ولا عوَّلت إلاَّ عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورونق سياقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال الخير فيهم، في جنب محاسن الرشيد كالنقطة في البحر، والخردلة في المهمة الفقر[2].

وقد اتخذ البرامكة كتّاباً بلغاء عملوا في دواوينهم، ومن أبرزهم إسماعيل بن صبيح، الذي قلَّده الرشيد ديوان الخراج ثم ديوان الرسائل[3]، كما قلَّده إبراهيم الحراني زمام الشام يليها بشفاعة يحيى بن خالد إليه، لأن إسماعيل كان كاتبه[4] وورد اسمه مع أسماء البلغاء[5].

ومن كتّاب البرامكة أيضاً يوسف بن صبيح، الذي كان كاتباً للمنصور ثم قرَّبه

---

(١) عبد الجبار الجومرد: **داهية العرب أبو جعفر المنصور** ص ٣٢٣.

(٢) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ٥ ص ٥٨؛ ابن قتيبة: **الإمامة والسياسة** ج ٢ ص ١٩٩.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٧.

(٤) نفس المصدر ص ١٦٨.

(٥) النديم: **الفهرست** ص ١٣٩.

البرامكة إليهم وعمل في دواوينهم. وذكر الجهشياري بأن يحيى أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد[1]. وروى ابن المعتز أن الليث بن نصر بن سيار كان من أكتب الناس في زمانه، وكان بارع الأدب بصيراً بالنحو والشعر والغريب، وكان يكتب للبرامكة ويطير معهم في دولتهم بجناحين، وكانوا به معجبين[2].

ومن الكتّاب الذين اشتهروا بالبلاغة والفقه في ذلك الوقت: محمد بن الليث، وفيه يقول النديم[3]: «كتب ليحيى بن خالد...»، ومن بين كتبه كتاب إلى يحيى بن خالد في الأدب، ومن آثاره الهامة رسالة رائعة كتب بها إلى جعفر بن يحيى في الخط والقلم بعد أن كتب إليه (جعفر) يستوصفه الخط، وفيها يقول: «أما بعد، فليكن قلمك بحرياً لا سميناً ولا رقيقاً ما بين الرقة والغلظ، ضيق الشعب، فأبره برياً مستوياً كمنقار الحمامة واعطف قطنه ورقّق شعرته، وليكن مدادك صافياً خفيفاً إذا استمددت منه فأنقصه ليلة ثم صفّه في الدواة، وليكن قرطاسك رقيقاً مستوي النسج، تخرج السحاة مستوية من أحد الطرفين إلى الآخر، فليست تستقيم السطور إلاّ فيما كان كذلك وليكن أكثر تمطيطك في طرف القرطاس الذي في يسارك وأقلّه في الوسط، ولا تمط في الطرف الآخر، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة، ولا تترك الأخرى بغير مط، فإنك إذا فرقت القليل كان قبيحاً وإذا أجمعت الكبير كان سمجاً.. ثم ابتدىء الألف برأس القلم كله واخططه بعرضه واختمه بأسفله.. واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مرسل برأس القلم.. واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم.. وامطط بعرض القلم.. والمط نصف الخط ولا يقوى عليه إلاّ العاقل.. ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضاً

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٥.

(٢) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٩٦.

(٣) النديم: **الفهرست** ص ١٣٤.

إلّا بالنظر إلى اليد في استعمالها الحركة، والسلام»[1].

ومما لا شك فيه فإن هـذه الرسـالة تـدلّنا عـلى اهتمام الكتـاب الكبير بـاختيار الأقلام وبجودة الخط.

ومن كتاب البرامكة البلغاء أيضاً أنس بن أبي شيـخ، قد سلكـه النديم[2] في البلغـاء العشرة الأول في العـصر، وفيـه يقـول الجـاحظ: «كـان أنس بن أبـي شيـخ يكتب لجعفر بن يحيـى، وكان واليـاً مهماً نقي الألفاظ جيد المعاني حسن البلاغـة، فقتل مـع جعفر»[3].

ومما حُفظ من كلام أنس: «إن الله جـل ثناؤه جعـل الدنيـا دار بلوى والآخرة دار عقبـى، فجعل بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ما يأخذ ممـا يعطي، ويبتلي مـا يبتلي به ليجزي»[4].

وبالإضافـة إلى هؤلاء الكتاب، فقـد كتب في دواوين البرامكـة عدد آخـر من الكتّاب الذين برزوا فيما بعد مثل الفضـل بن سهل وأخيـه الحسن بن سهل، ومثـل سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة وغيرهم.

ذو الرياستين[5] الفضـل بن سهل وأخـوه الحسن بن سهل كـانا من أهـل بيت الرياسة في المجوس، وأسلما هما وأبـوهما سهـل في أيام هـارون الرشيـد واتصلوا بـالبرامكـة، وكان سهـل يتقهـرم ليحيـى بن خـالـد بن بـرمـك وضم يحيـى الحسن والفضل ابني سهل إلى ابنيـه الفضل وجعفـر يكونـان معهما فضم جعفـر الفضل بن

---

(1) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ٤ ص ١٩٥ ــ ١٩٦.

(2) النديم: **الفهرست** ص ١٤٠.

(3) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٩.

(4) نفس المصدر ص ٢٤٠.

(5) سُمي ذا الـريـاستين لجمعـه بين السيف والقلم: ابن الأثيـر: **الكـامـل** ج ٦ ص ١٩٧؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٢١.

سهل إلى المأمون[1] فأسلم على يديه[2].

كان الفضل بن سهل سخياً سرياً نبيل النفس كثير الأفعال، يذهب مذاهب البرامكة في ذلك، وكان غليظ العقوبة إذا عاقب، مقدماً إذا أنكر، حسن الرجوع إذا استعطف، وكان حسن البلاغة ولا ينصرف أحد من عنده إلّا وهو راضٍ[3].

وكان يقال له الوزير الأمير[4]. وقد أثنى عليه يحيى بن خالد يوماً، فقال له: في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت عندي منهم[5].

وكان الحسن بن سهل من أسمح الناس وأكرمهم[6]، وجاءه يوماً رجل يستشفع به في حاجة فقضاها فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: علام شكرنا ونحن نرى أن للجاه زكاة كما أن للمال زكاة؟ ثم أنشأ الحسن يقول:

فرضت على زكاة ما ملكت يدي ... زكاة جاهي أن أعين وأشفعا
فإذا ملكت فَجُدْ وإن لم تستطع ... فاجهد بوسعك كله أن تنفعا[7]

ولمّا مات الحسن بن سهل قال أحدهم: والله لئن أتعب المادحين لقد أطال بكاء الباكين، ولقد أصيبت به الأيام وخرست بموته الأقلام، ولقد كان بقية وفي الناس بقية، فكيف اليوم وقد بادت البرية[8]؟

وأما سهل بن هارون فقد وصفه الجاحظ فقال: «كان سهل سهلاً في نفسه

---

(1) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ٣٢٠.
(2) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣١، قيل أسلم الفضل بن سهل وأخوه الحسن على يد يحيى بن خالد: ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ١٩٧.
(3) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٣٠٧.
(4) ابن الطقطقي: **الفخري في الأداب السلطانية** ص ٢٢١.
(5) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٢.
(6) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ٣٢٢.
(7) نفس المصدر ج ٧ ص ٣٢٢.
(8) نفس المصدر ج ٧ ص ٣٢٢.

عبق الوجه حسن الشارة بعيداً عن الغدامة، تقضي لـه بالحكمـة قبل الخبـرة وبرقّـة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف»[1].

وفيـه يقول أيضـاً: «ومن الخطبـاء الشعـراء الـذين جمعـوا الشعـر والخـطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسِّيَر الحِسان المجلدة والأخبـار المدوَّنة: سهـل بن هارون بن راهيبـوني، الكاتب صـاحب كتاب «ثعلة وعفـرة» في معـارضة كتـاب «كليلة ودمنة»، وكتـاب «الإخـوان»، وكتـاب «المسـائـل»، وكتـاب «المخزومي والهزلية»، وغير ذلك من الكتب»[2].

واتخذ جعفر بن يحيـى عمر بن مسعدة كـاتباً للتـوقيـع بين يديـه، وكان بليغـاً شاعراً مترسِّلاً، وله كتاب رسائل كبير[3].

وهكذا، وبعد أن لمسنا ما كان يتمتـع به البرامكة من بيان وبلاغة وفصاحـة، وبعد أن رأينا ما اصطنعوه من كتّاب وبلغاء مشهورين، لم يعد من المبالغـة أن نقول إنهم كانوا طليعة لنهضة أدبية طبعت عهد الرشيد ومن بعده بقليل بطابعها الخـاص، فقد كانت لهم مجالسهم الأدبية والعلمية التي يتجادل فيهـا كبار العلمـاء ويتحاورون في مختلف المسائل التي تعترضهم، فقد روى المسعـودي[4] عن جلساء يحيـى بن خـالد وهم يتحـدثون عن العشق وأسبـابه، فقـال: «كـان يحيـى بن خـالـد ذا علمٍ ومعرفة وبحث ونظر، وكان لـه مجلس يجتمـع فيه كثيـر من أهل البحث والنـظر من متكلمي الإسـلام وغيرهم من أهـل الآراء والنحـل، فقـال لهم يحيـى يـومـاً، وقـد اجتمعـوا عنده: «قـد أكثرتم الكـلام في الكون والـظهور والقـدم والحدوث والنفي والإثبات والحركة والسكون والحماسة والمباينة والموجود والمعدوم والجزء والـطفرة والأجسـام والأعراض والتعـديـل والتجـريـح ونفي الصفـات وإثبـاتها والاستـطاعـة

(١) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٦٢.

(٢) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٤٢.

(٣) النديم: **الفهرست** ص ١٣٦.

(٤) المسعودي: **مروج الذهب** ج ٤ ص ٢٣٦ ـ ٢٤١.

والأفعال والجوهر والكمية وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع، فأشرعوا في الكلام في العشق على غير منازعة منكم، وليورد كل واحد منكم ما سنح له الوقت فيه وخطر إيراده بباله».

وقد ذكر المسعودي أطرافاً من هذه المناظرة بين اختلاف وجهات نظر العلماء في العشق وأسبابه.

ومن تلك المناظرات أيضاً المناظرة التي جرت بين سيبويه والكسائي في مجلس يحيى بن خالد، وكان ذلك عندما قدم سيبويه إلى العراق قاصداً يحيى بن خالد فجمع بينه وبين الكسائي والأخفش فناظراه وخطياه في مسائل وحاكماه إلى فصحاء العرب وكانوا قد وفدوا على السلطان وهم أبو فقعس وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان، فكان الكسائي على الصواب وكلّم الكسائي يحيى بن خالد فأجازه بعشرة آلاف درهم، فأخذها وعاد إلى البصرة، ومنها إلى فارس[1].

وكان يحيى بن خالد يحضر الأدباء ويطرح عليهم الأسئلة المختلفة، فقد قال الفراء أنه رأى الكسائي يوماً كالباكي، فسأله عما يبكيه، فأجابه: هذا الملك يحيى بن خالد، يوجه إليَّ فيحضرني فيسألني عن الشيء فإن أبطأت في الجواب لحقني منه عتب وإن بادرت لم آمن من الزلل[2].

وقيل إن جابر بن حيان كان في جملة البرامكة ومنقطعاً إليها ومتحققاً بجعفر بن يحيى[3] وألَّف للبرامكة كتاب أسطقس الأس الأول، وكتاب أسطقس الأس الثاني، وكتاب الكمال؛ كما ألَّف كتاب إعراض الصنعة إلى جعفر بن يحيى البرمكي[4].

(١) النديم: **الفهرست** ص ٥٧؛ القفطي: **إنباه الرواة** ج ٢ ص ٣٤٨، مع تغيير في النص.
(٢) القفطي: **إنباه الرواة** ج ٢ ص ٢٦٦.
(٣) النديم: **الفهرست** ص ٤٢٠.
(٤) نفس المصدر ص ٤٢١.

وألَّف أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن هبته) ليحيى بن خالد كتاب الجوامع، الذي يحتوي على أربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به[1]، كما عمل له الخياط (أبو علي يحيى بن غالب) كتاب المنثور[2]. وكان الفرخان الطبري ـ العالم الحكيم ـ منقطعاً إليه[3].

* * *

(1) نفس المصدر ص ٢٥٧.

(2) نفس المصدر ص ٣٣٥.

(3) القفطي: إخبار العلماء ص .



التـرجمة

وللبـرامكة الفضـل الكبير في تنشيط التـرجمة، فقـد بـذلـوا الجهـود الكبيـرة لتشجيـع نقـل العلوم القديمـة (الروميـة واليونـانية والفـارسية والهنـديـة) إلى اللغـة العـربية، من ذلـك طلب يحيى بن خالـد إلى بطريـرك الإسكندريـة أن يتـرجم في الزراعة كتاباً عن الرومية، وقد ترجمه برسمه[1]. وكان يحيـى البرمكي أول من عني بتفسير كتاب المجسطي (هذا الكتـاب ثلاث عشـرة مقالـة) وإخراجـه إلى العربيـة، ففسَّره جماعة فلم يتقنوه، ولم يرضَ ذلك فندب لتفسيره أبـا حسان، وسلَّم صـاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا في تصحيحـه بعد أن أحضـرا النَقَلة المُجوِّدين فـاختبرا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحِّه[2].

وقد اعتنى البرامكة عناية واسعة بترجمة التـراث الفارسي، ونـرى جيلاً كبيـراً ينهض في عصــرهم والعصر الــذي تـلاهم بهــذه التـرجمـــة، نـذكــر من بينهم آل نوبخت[3] وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك[4] والفضـل بن سهل الـذي ترجم ليحيى البـرمكي كتـابـاً من الفـارسيـة إلى العـربيـة

(١) عبـد الرحمن البـدوي: التراث اليـوناني (مقـال ماكس مـايرهـوف عن مدرسـة الإسكندريـة وانتقالها إلى بغداد)، عن الدكتور شوقي ضيف (**العصر العباسي الأول** ص ١١٢).

(٢) النديم: **الفهرست** ص ٣٢٧.

(٣) النديم: **الفهرست** ص ٣٠٥.

(٤) نفس المصدر ص ٣٣٣.

فأعجب بفهمه وبجودة عبارته[1].

ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي حينئذ محمد بن الجهم البرمكي، وزادويه بن شاهويه الأصفهاني، وبهرام بن مردان شاه، وموسى بن عيسى الكروي، وعمر بن الفرخان[2]. وسلم صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون[3].

ولمّا استقدم يحيى بن خالد بعض أطباء الهند كان من بينهم «منكة»[4]، الذي كان ينقل من اللغة الهندية إلى العربية[5] فأمره يحيى بتفسير كتاب سرد وعشر مقالات في البيمارستان[6].

وكان أبان بن عبد الحميد اللاحقي نقل للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة»[7] فجعله شعراً ليسهل حفظه عليهم، وهو معروف، أوله:

هذا كتابُ أدبٍ ومحنة ... وهو الذي يُدعى كليلة ودمنة
فيه احتيالات وفيه رشد ... وهو كتابٌ وضعته الهند[8]

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ولم يعطه جعفر شيئاً، وقال: ألا يكفيك أن أحفظه فأكونَ راويتك[9].

---

(1) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٣٠.
(2) النديم: **الفهرست** ص ٣٠٥.
(3) نفس المصدر ص ١٣٤.
(4) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٦٤.
(5) النديم: **الفهرست** ص ٣٠٥.
(6) نفس المصدر ص ٣٦٠.
(7) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢٤٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١١؛ النديم: **الفهرست** ص ١٣٢؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص ١٧٩؛ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ٤٤.
(8) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢٠ ص ١٧٩.
(9) نفس المصدر ج ٢٠ ص ١٨٠؛ الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ٤٤ ــ ٤٥.

ويقال إن أبان قَلَبَ كتاب كليلة ودمنة في ثلاثة أشهر إلى الشعر، وهو أربعة عشر ألف بيت، وقد ألزمه يحيى بن خالد داراً لا يخرج منها حتى ينقل هذا الكتاب من الكلام إلى الشعر فنقله[1]. ويقال: إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام منه إلاَّ كتاب كليلة ودمنة[2].

وقد فسَّر أيوب وسمعان أزيج بطليموس لمحمد بن خالد بن يحيى بن برمك[3]، وكان سلام والأبرش من النَقَلَة القدماء (من اللغات إلى اللسان العربي) في أيام البرامكة، ويوجد بنقلهما السماع الطبيعي[4].

وبعد انتصار الرشيد على سمالو[5] سألوه الأمان، فأجابهم إلى ذلك، فأُنزلوا ببغداد في محلة الشماسية فسُمي موضعهم سمالو، أو دار الروم، وبنوا هناك كنيسة، كما نزل قسم من رهبانهم في دير خارج باب الشماسية سُمِّي بـ «دير سمالو». وإذا لاحظنا أنه في نفس الفترة نشطت حركة الترجمة على يد ابن البطريق فنطرح السؤال: هل كان ابن البطريق من روم سمالو الذين أسكنهم البرامكة في دار الروم أم لا؟ فإذا كان الردّ إيجابياً فباستطاعتنا القول أن البرامكة كانوا الأساس في قيام حركة الترجمة، وبالتالي كانوا النواة الأولى في إنشاء خزينة الحكمة التي دُعيت فيما بعد «بيت الحكمة». وبذلك يتبيَّن لنا فضل البرامكة الكبير على الترجمة.

وقد ذكر «ابن خلدون» في مقدمته أن الفضل بن يحيى هو أول من أشار بصناعة الكاغد وصنعه، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذه الناس من

---

(١) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ٤٤؛ الصولي: **أخبارالشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٢.

(٢) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٢.

(٣) النديم: **الفهرست** ص ٣٠٥.

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٤.

(٥) البلاذري: **فتوح البلدان** ص ٢٣٤؛ الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ١٤٦ ـ ١٤٧؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٦ ص ٦٠ ـ ٦١؛ ياقوت الحموي: **معجم البلدان** ج ٢ ص ٥١٦.

بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية[1]. وكان خالد بن برمك أول من جعل الحساب في دفاتر، وكان قبل ذلك في أدراج من كاغد ورق[2].

ومما لا شك فيه أن هذه الأعمال التي قام بها البرامكة كانت من أهم الأسباب التي ساعدت على انتشار العلم وعلى ازدهار حركة الترجمة.

* * *

(١) ابن خلدون: **المقدمة** ص ٤٢١ ــ ٤٢٢.

(٢) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ١ ص ٤٢٣.



الطِّبُّ

كان للبرامكة رغبة في طب الهند وأطبائه، فأنشأوا مارستاناً باسمهم وولّوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن، وهو ممن نقل إلى العربي من اللسان الهندي[1].

واعتنى البرامكة في استقدام أطباء الهند إلى بغداد، فقد ذكر الجاحظ في «بيانه» أن يحيى بن خالد اجتلب أطباء الهند، مثل منكة، وبازيكر، وقلبرقل، وسند باز وغيرهم[2].

وجاء في «الفهرست»[3]: حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وأن يكتب له أديانهم، فكتب له هذا الكتاب، ويضيف صاحب «الفهرست» أن محمد بن إسحق قال: الذي عني بأمر الهند في دولة العرب، يحيى بن خالد وجماعة البرامكة (ويوشك أن تكون هذه الحكاية صحيحة إذا أضفناها إلى ما نعرف من أخبار البرامكة)، واهتمامهم بأمر الهند وإحضارهم العلماء من الأطباء والحكماء.

ولمّا مرض الرشيد في سنة إحدى وسبعين ومائة من صداع لحقه، طلب من يحيى بن خالد طبيباً ماهراً، لأن هؤلاء الأطباء ليس يحسنون شيئاً.. فأشار عليه

---

(١) النديم: **الفهرست** ص ٣٠٥.

(٢) الجاحظ: **البيان والتبيين** ج ١ ص ٦٤.

(٣) النديم: **الفهرست** ص ٤٠٩.

يحيى ببختيشوع، فقال له الرشيد: إرسل بالبريد حتى يحملوه إن كان حياً[1].

وبعد مرور أربع سنوات طلب يحيى البرمكي من بختيشوع أن يختار له طبيباً ماهراً فأهداه على ابنه جبرائيل. هذا ما ذهب إليه فيثيون الترجمان، إذ قال: لمّا كان في سنة خمس وسبعون ومائة مرض جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك فتقدَّم الرشيد إلى بختيشوع أن يتولّى خدمته ومعالجته، ولمّا كان في بعض الأيام قال له جعفر: أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه، قال له بختيشوع: «ابني جبرائيل أمهر مني وليس في الأطباء من يشاكله»، فقال له: أحضرنيه. ولمّا أحضره عالجه في مدة ثلاثة أيام وبرأ، فأحبه جعفر مثل نفسه وكان لا يصبر عنه ساعة ومعه يأكل ويشرب[2].

وهكذا أصبح جبرائيل (الذي نبغ في حياة أبيه) طبيباً لجعفر بن يحيى البرمكي، ثم ما لبث أن «قدَّمه إلى الخليفة هارون الرشيد فصار طبيبه الخاص ونزل لديه منزلة ممتازة وجعله رئيساً للأطباء»[3].

وعندما اشترى جبريل بن بختيشوع الطبيب ضيعة بسبع مائة ألف درهم وتعذَّر عليه دفع كامل ثمنها، سكب عليه البرامكة العطايا الجزيلة التي فاقت كثيراً المبلغ المطلوب. وهذا ما أشار إليه جبرائيل نفسه، إذ قال: اشتريت ضيعة فنقدت بعض الثمن وتعذَّر عليَّ بعضه، فدخلت على يحيى وعنده ولده وأنا أفكر، فقال لي: ما لي أراك مفكِّراً؟ فقلت: أنا في خدمتك وقد اشتريت ضيعة بسبع مائة ألف ونقدت بعض الثمن وتعذَّر عليَّ بعضه، فدعا بالدواة وكتب: يُعطي جبريل سبع مائة ألف درهم، ثم دفع الكتاب إلى ولده، فوقَّع فيه كل واحد منهم بثلاثمائة ألف درهم، فقلت: جُعلت فداك! قد أدَّيت عامة الثمن وإنما بقي عليَّ أقلّه. فقال: اصرف ذلك في بعض ما ينوبك. ثم صرت إلى الرشيد، فقال: «ما أبطأ

---

(١) ابن أبي أصيبعة: **طبقات الأطباء** ص ١٨٦ ــ ١٨٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٨٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة: **طبقات الأطباء** ص ١٨٨.

بك؟ قلت: يا أمير المؤمنين كنت عند أبيك وإخوتك فقولوا بي كذا وكذا. قال: فما حالي أنا؟ ثم دعا بدابته فركب إلى يحيى، فقال: يا أبتِ! خبرني جبريل بما كان فما حالي أنا؟ من بين وِلدِكَ؟ فقال: يا أمير المؤمنين مُر له بما شئت يحمل إليه، فأمر بحمل مال إلى جبريل[1].

وكان يصير إليه (جبرائيل بن بختيشوع) من البرامكة في كل سنة من الورق ألف ألف وأربعمائة ألف درهم. وتفصيل ذلك: يحيى بن خالد ستماية ألف درهم، جعفر بن يحيى الوزير ألف ألف ومائتا ألف درهم، الفضل بن يحيى ستماية ألف درهم.. يكون في مدة ثلاث عشرة سنة: أحد وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف درهم. يكون جميع ذلك مدة أيام خدمته للرشيد وهي ثلاث وعشرون سنة، وخدمته للبرامكة وهي ثلاث عشرة سنة، سوى الصلات الجسام، فإنها لم تُذكر في هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانين ألف درهم وثمانمائة ألف درهم[2].

وهكذا نرى أن البرامكة استقدموا الأطباء إلى بلادهم فأكرموا وفادتهم وجادوا عليهم بالأموال الهائلة حتى أُثروا ثراءً فاحشاً، وأبلغ دليل على ذلك ما جاء على لسان الجهشياري[3]: حيث يقول: إن جبريل بن بختيشوع كان صنيعة البرامكة، وكان يقول للمأمون كثيراً: هذه النعمة لم أفدها منك ولا من أبيك، هذه أفدتها عن يحيى بن خالد ووِلدِه.

* * *

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٨١؛ ابن أبي أصيبعة **طبقات الأطباء** ص ١٩٢، مع تغيير طفيف في النص.

(٢) القفطي: **أخبار العلماء** ص ١٤٣؛ ابن أبي أصيبعة: **طبقات الأطباء** ص ٢٠٠.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧.



التواضع والتقرب إلى الناس

عامل البرامكة الناس معاملة حسنة اتّسمت بالتواضع والعطف والعدل والإحسان، فأحبهم الجميع وتقاطروا إليهم من مختلف الجهات.

لقد وضع البرامكة نصب أعينهم كسب مرضاة الناس ومودّتهم، فكان خالد أول من سمي المستميحين، ومن يقصد من العمال لطلب البرّ الزوار، وكانوا يُسمّون قبل ذلك السُّؤّال، فقال خالد: أنا أستقبح لهم هذا الأسم وفيهم الأحرار والأشراف[1].

لقد استمال البرامكة النفوس إليهم وتجمّع الناس أمام أبوابهم، فيُحكى أن أصحاب الحوائج كانوا يكثرون القعود على دكان على باب يحيى بن خالد وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم ولقيهم ببشر وطلاقة، وأنه خرج يوماً مبكّراً فلم يرَ منهم أحداً، فأنشد متمثلاً:

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيت على وجل[2]

وكان يحيى لا يقضي حاجة إلاّ بوعد، ويقول: «من لم يبت على سرور

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٥٠؛ الأصبهاني: **الأغاني** ج ٣ ص ٦٨ ـ ٦٩؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الأداب السلطانية** ص ١٥٧.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٨.

الوعد لم يجد للضيعة طعماً»[1].

وكان يحيى وابناه، الفضل وجعفر، يجلسون للناس جلوساً عاماً في كل يوم إلى انتصاف النهار ينظرون في أمور الناس وحوائجهم، لا يُحجب أحد ولا يُلقى لهم ستر[2].

وقد روى الخطيب البغدادي أن يحيى البرمكي كان يقعد في بيت مجتمع صغير مكتوب عليه:

كفى بمتلمس التواضع رفعة وكفى بمتلمس العلو سفالاً[3]

ولم يكتفِ يحيى بذلك، بل نصح أبناءه بترك التكبُّر والتحلّي بالتواضع. هذا ما ذكره الواقدي، حيث قال: دخل الفضل بن يحيى بن خالد على أبيه يتبختر في مشيته وأنا عنده، فكرهَ ذلك منه، فقال لي يحيى: يا أبا عبد الله! أتدري ما بقّى الحكيم في طرسه؟ قلت: لا. قال: بقّى الحكيم في طرسه أن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء، فيا لها حسنة غطّت على عيبين عظيمين! ويا لها سيئة غطّت على حسنتين كبيرتين[4].

وكان يحيى يقول: «لست ترى أحداً تكبَّر في إمارة إلاَّ وقد دلَّ على أن الذي نال فوق قدره، ولست ترى أحد تواضع في إمارة إلاَّ وهو في نفسه أكبر مما نال في سلطانه»[5].

وقوله: «الشريف إذا نقر تواضع، والوضيع إذا نقر تكبَّر»[6].

---

(١) ابن عبد ربه: **العقد الفريد** ج ١ ص ٢٤٧.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٧.

(٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٤ ص ١٢٩.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٨.

(٥) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٣ ص ٢٦٨؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠١.

(٦) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٣ ص ٢٦٥، وقد ذكر الجهشياري هذا القول على الشكل =

وقوله: «ذكر النعمة من المنعم تكدير ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير»[1].

وقد قال له رجل: لا تنسى أيها الأمير حاجتي: فقال: «إذا قضيتها نسيتها»[2].

وقال جحظة في أماليه: كلَّم العتابي يحيى بن خالد في حاجة له كلمات قليلة، فقال يحيى: لقد نزر كلامك اليوم وقَلَّ، فقال له: وكيف لا يقلّ وقد تكنفني ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد؟ فقال له يحيى: لئن قلَّ كلامك لقد كثرت فوائده[3].

وقال عبد الصمد بن علي: ما رأيت أكرم من يحيى نفساً ولا أحلم منه، جعل على نفسه أن لا يكافىء أحداً بسوء فوفَّى[4].

لقد كان البرامكة لطفاء العشرة، يحرصون على عدم الإساءة إلى أحد، وأبلغ دليل على ذلك ما ذهب إليه البيهقي[5] في كتاب «المحاسن والمساوىء»، إذا قال: حدَّث رجل من آل أسوار بن ميمون عن عمه عبد الله بن أسوار، قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي يوماً، قال: جلست وكنت أحد كتّابه، فقلت: ليست معي دواة، فقال: ويحك، أفي الأرض صاحب صناعة تفارقه آلته؟ وأغلظ لي في حرف علمت أنه أراد به خطي وأراني بعض التشاقل في الكتاب ظهر لي به أنه أراد خطي على الأدب لا غير، ثم دعا بدواة فكتبت بين يديه كتاباً منه إلى الفضل ابنه ورأى مني بعض الضجر في ما أكتب، فتوهَّم أن ذلك من أجل الكلمة

التالي: الكريم إذا تقرأ تواضع، واللئيم إذا تقرأ تكبر، والخسيس إذا أيسر تجبر: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٠.

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٦.

(٢) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٥.

(٣) ياقوت: **معجم الأدباء** م ٩ ج ١٧ ص ٢٨.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٣.

(٥) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٨٠ ـ١٨١؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٨.

التي كلّمني بها، فأراد أن يمحو عن قلبي ما توهّمه عليّ، فقال: عليكَ دَين؟ قلت: نعم. قال: كم دَينك؟ قلت ثلاثمائة ألف درهم. فوقّع بخطه إلى الفضل في الكتاب: «وكلكم قد نال شبعاً لبطنه ــ وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه»، ثم قال: إن عبد الله ذكر أن عليه دَيناً يخرجه منه ثلاثمة ألف درهم، فإذا نظرت في كتابي هذا وقبل أن تضعه من يدك فأقسمت عليك لمّا حملت ذلك إلى منزله من أخص مال قبلك. قال: فحملها الفضل إليّ وما أعلم لها سبباً إلّا تلك الكلمة.

ولمّا رفع أحد الناس إلى يحيى بن خالد قصة يقول فيها: إنه قد توفي تاجر غريب وقد خلف جارية حسناء وولداً رضيعاً ومالاً كثيراً والوزير أحق بهذا فكتب يحيى على رأس القصة «أمّا الرجل فرحمه الله، وأما الجارية فصانها الله، وأما الطفل فرعاه الله، وأما المال فثمّره الله وأمّا الساعي إلينا بذلك فلعنه الله[1].

نشر البرامكة أفضالهم على الفقراء والمحتاجين ابتغاء التماس الثواب فيهم. هذا ما ورد على لسان يحيى بن خالد عندما ذكر له وهو مجاور بمكة أن بجدّة قوماً يصيدون السمك ويبيعونه ويشترون طعامهم به، فإن لم يجدوا صيداً مكثوا أياماً لا يأكلون يشد الرجل على بطنه حجراً ولا يسألون الناس شيئاً وربما مات أحدهم جوعاً، فقال: ولا أعجب قوم سمعت بهم ينبغي أن نلتمس الثواب فيهم، فسألهم عن عددهم وطريقة عيشهم، ثم سألهم عما يعنيهم؟ فقيل له: تحفر لنا بركة يجتمع فيها ماء السماء، فإن الماء يعز بالبلاد إلّا على من كانت له مصنعة فيشرب منها ويبيع فضلها وينتفع بثمنه. ثم سألهم أيضاً بكم يكتفي أحدهم في الشهر؟ فقيل له: بأربعة دراهم لكل رجل وللمرأة ستة دراهم، فقال: إني قد أجريت لكل رجل عشرة دراهم ولكل امرأة ثمانية عشر درهماً وأخيراً سألهم عن مهور نسائهم؟ فقيل له: أربع مائة درهم، فقال: إني آمر بإعطائكم ما أجريت عليكم لسبع سنين ولمهور نسائكم عشرين ألف درهم، وأشار إلى غلامه بدفع المال، وأمر باتخاذ

---

(١) ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٦٤.

بركة لهم بلغت النفقة عليها عشرين ألف درهم[1].

وفضَّل البرامكة المروؤة وبعد الهمة على العلم والأدب وعلى الأملاك والممتلكات، وعمدوا إلى غرس بذور الخير ومحبة الآخرين في نفوس أبنائهم. فما يُروى عن يحيى بن خالد أنه دعا ابنه إبراهيم يوماً، وكان يسمى دينار بني برمك لجماله وحسنه، ودعا بمؤدبه وبمن كان ضم إليه من كتّابه ورجاله، فقال: ما حال ابني هذا؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا وكذا ونظر في كذا وكذا. قال: ليس عن هذا سألت. قالوا: قد اتخذنا له من الضياع كذا وغلته كذا. قال: ولا عن هذا سألت، إنما سألت عن بُعد همَّته وهل اتخذتم له في أعناق الرجال مناً وحبّبتموه إلى الناس؟ قالوا: لا، قال: فبئس العُشراء أنتم والأصحاب، هو والله إلى هذا أحوج منه إلى ما قلتم[2].

والمناصب لم تُبعد البرامكة عن الناس ولم تفسد أخلاقهم وتصرفاتهم مع الآخرين، بل على العكس كانت حافزاً دفعهم نحو التواضع والتفاني في سبيل خدمة الغير.

فأثناء سير موكب يحيى بن خالد عرض له رجل من العامة ومعه كتاب، فقال: أصلح الله الأمير! اختم هذا الكتاب. فبادر إليه الشاكرية يزجرونه من حواشي موكبه، فقال لهم يحيى: دعوه قبل أن لا ننتفع به يعني خاتمه، واستدناه فختمه له. وتعجَّب مسايروه من اغتنامه المعروف وعمله بأفعال الرجال[3].

وحين علم يحيى أن الكتّاب لا يزاولون أعمالهم إلاَّ بعد قضاء حوائجهم وتناول طعام الغداء في منازلهم، وأن خدمه لا يدفعون الكتب المختومة إلى أصحابها إلاَّ بشيء يأخذونه، أمر بجعل غداء الكتّاب في داره واستلم الختم حتى

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٩٥ ــ ١٩٦.

(٢) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ١٧٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٨٠.

(٣) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٩٥.

«لا يلزم أحداً مؤنة»[1]. وليحيى يقول أبو القاسم بن يوسف:

رفع الله بالخليفة يحيى وبيحيى كسا الخلافة نورا
رجل ناصح أمين على الملك يجيد التمييز والتدبيرا
بسط الله بالعطايا يديه محبا معدماً وأغنى فقيرا
ليس يبقى على الزمان سوى الذكـ ـرى فلا زلت بالندى مذكورا
نصح الله والخليفة يحيى وبرفق منه يمشي الأمورا

وكان ليحيى بن خالد حاجب قبل الوزارة، فلمّا صار إلى الوزارة رأى كأنه تثاقل عن حجابته، فقيل له: لو اتخذت حاجباً غيره. قال: كلا، هذا يصرف إخواني القدماء، وقال الشاعر في مثله:

حسن إذا نزل الوفود ببابه سهل الحجاب مؤدب الخدام
وإذا رأيت شقيقه وصديقه لم تدر أيهما أخو الأرحام[2]

وبعد هذا نستطيع القول أن الحسن بن سهل كان على حق عندما قال: من غيَّرته الولاية لإخوانه علمنا أن الولاية أكبر منه، أخذنا ذلك عن صاحب ديوان المكارم أبي علي يحيى بن خالد بن برمك[3].

وكذلك الفضل بن يحيى فإنه لم ينسَ من كان بجانبه في أيام الفقر والشقاء فيروى عنه أنه وهب لغلامه الطباخ مائة ألف درهم، وعندما قال له والده يحيى في ذلك قال الفضل: إن هذا غلام صحبني وأنا لا أملك شيئاً واجتهد في نصيحتي، وقد قال الشاعر:

إن الكرامُ إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يؤنسهم في المنزل الخشن[4]

---

(١) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ١٥٦.
(٢) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٦٠؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٠٢.
(٣) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٦.
(٤) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٢ ص ٣٣٦.

ومن كلامه: ما سرور الموعود بالفائدة كسروري بالإنجاز[1]، وقد وقف (أي الفضل) بخراسان موقفاً لم يقفه أحد قط: فقد جاء أنه خرج إلى الميدان ليضرب بالصوالج فأمر بدفاتر البقايا التي على الناس فأُحضرت، وأمر الحاجب بالخروج إلى الناس وإعلامهم أنه قد وهبها لهم ثم أمر بها فضربت بالنار، وكان مبلغ ذلك أكثر من عشرين ألف ألف درهم[2].

وكذلك فعل خالد بن برمك عندما تولى مقاطعة فارس، فعامل سكانها معاملة حسنة وقسَّط الخراج على أهلها، ورفع عنهم خراج الشجر، وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً وأكثر خالد الصلات والجوائز والإحسان إلى كافة الناس[3].

والبرامكة كبار النفوس نجدوا المستغيثين وقضوا حاجات الناس مهما كبرت وعظمت، دون أن يبتغوا من ورائها جزاء ولا شكوراً، وسامحوا المخطئين بعد قدرتهم عليهم وكأنهم بذلك يطبقون المثل القائل: العفو عند المقدرة، فهاهو يحيى بن خالد يستعمل شتى الوسائل والأساليب لإنقاذ حياة منصور بن زياد ويعذره في النهاية على نكرانه هذا الجميل، فقد حدَّث صالح صاحب المصلّى أن الرشيد دعاه يوماً وقال له: إذهب الساعة فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم، فإن لم يوردها بينك وبين المغرب فاضرب عنقه وجئني برأسه وأنا نفي من المهدي لئن أنت دافعت عنه لأضربن عنقك، علم منصور بذاك وتأكّد بأن الخليفة يريد المال أو رأسه، فهاله الأمر، وقال: ما أراد إلاَّ قتلي لأنه يعلم أن مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبتي، فودَّع وكأنه سيموت بعد ساعات، ثم استأذن في المصير إلى يحيى البرمكي ليوصيه بولده وأهله، فسمع له. وما أن علم يحيى بقصته حتى بدأ باستيفاء بعض ديونه وطلب من دنانير الجوهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين ومنع ابنه الفضل من ابتياع ضيعة نفيسة وأخذ منه مالها البالغ ألفا

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٣٠.

(٢) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٠.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٥١.

ألف درهم، ووجَّه إليه ابنه جعفر ألف ألف درهم، وبذلك تمَّ جمع المبلغ المطلوب وسُلِّم للشريد قبل المغرب. وعندما علم بالخبر، قال: قد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم، وأمر برد المبلغ إلى يحيى بعد قبوله عن منصور.

وعلى الرغم من هذا الإحسان الذي لا يوصف، فقد أخبر صالح يحيى البرمكي أنه حين حمل المال تمثَّل منصور بهذا البيت:

فما بقيا عليَّ تركتماني ولكن خفتما صرد النبال

فأكب ــ يحيى ــ على الأرض ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: اعذره فقد كان عقله عزب عنه في ذلك الوقت، قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه[1].

وما أن مدح الشاعر أبو الهول الحميري الفضل بن يحيى معتذراً من شعر كان هجاه به في السابق حتى وصله الفضل ورضي عنه. فقد رُوي أن الفضل بن يحيى غضب على أبي الهول الحميري في شيء وجده عليه وكان عنده قبل ذلك في حالة رفيعة، وكان الفضل معجباً بشعره، وكان يصله بالصلات السنية؛ فلمّا غضب عليه جفاه الناس وتنكَّروا له، فلم يدرِ بمن يتحمل عليه ويستشفع حتى يرضى عنه، فلما ضاق به ذرعاً قال:

سما نحونا من غضبة الفضل عارض
له زجل فيه الصواعق والرعد
وما لي إلى الفضل بن يحيى بن خالد
من الجرم ما يخشى عليَّ به الحقد
فجد بالرضى لا أبتغي منك غيرة
ورأيك فيما كنت عوَّدتني بعد

فلمّا قرأ الفضل وقعته، وقَّع فيها: رضاي عنك مقرون بإحساني إليك، فإن

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٥١٠ ــ ٥١١؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣.

أردت أن أفرق بينهما لم أفعل، وحمل إليه صلة واستغنى بالأبيات عن الشفيع[1].

ولمّا خرج إبراهيم بن جبريل مكرهاً مع الفضل بن يحيى إلى خراسان دعاه الفضل يوماً فدخل عليه خائفاً، فقال له: ليفرح روعك يا إبراهيم، فإن قدرتي عليك تمنعني منك.. ثم عقد له على سجستان ووهبه خراجها وزاده خمسمائة ألف درهم، فلما انصرف منها كان عنده من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم، فلما قدم بغداد وبنى داره في البغيين استزار الفضل لبرية نعمته عليه وأعدَّ له الهدايا والطرف وآنية الذهب والفضة وأمر بوضع الأربعة الآلاف ألف في ناحية الدار. فلما تغدّى الفضل بن يحيى قدَّم إليه الهدايا والطرف، فأبى أن يقبل منها شيئاً وقال له: لم آتك لأسلبك! فقال: إنها نعمتك أيها الأمير. قال: ولك عندنا مزيد. قال: فلم يأخذ من جميع ذلك إلَّا سوطاً سجزياً، وقال: هذا من آلة الفرسان، فقال له: هذا المال من مال الخراج، فقال: هو لك. فأعاد عليه، فقال: أما لك بيت يسعه! فسوَّغه ذلك وانصرف[2].

وكان جعفر بن يحيى يكره الوعد ويقول: الوعد من العاجز، وأما القادر فالنقد[3].

ولمّا اعتذر رجل إليه قال له: قد أغناك الله بالعذر منا عن الاعتذار إلينا، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك[4].

والمغفرة المتأصلة في نفس جعفر جعلته يعفو عن أحد الناس، وكان قد زوَّر

---

(١) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ١٥٣؛ ابن الطقطقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٨٢.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩، البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٨٢؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٢.

(٣) ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة** ج ٥ ص ٦٢٩.

(٤) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٣؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٩.

عن لسانه كتاباً، إلى صاحب مصر، مضمونه: «إن حامل هذا الكتاب من أخص أصحابنا وقد آثر التفرُّج في الديار المصرية، فأريد أن تحسن الالتفات إليه وبالغ في الوصية». . فأكرمه صاحب مصر وأنزله في دار حسنة. وبما أنه كان بين جعفر وصاحب مصر عداوة ووحشة، فقد شكَّ صاحب مصر في الكتاب وأرسله إلى وكيله ببغداد ليتأكد من صحته، فلما اطلع جعفر عليه علم أنه مزوَّر، فشرح القصة لجماعة من ندمائه ونوّابه، فتأملوا الكتاب وأنكروه كلهم، وقالوا: هذا مزوَّر على الوزير، فاستشارهم جعفر في كيفية معالجة الأمر: فمنهم من أشار بقتله، ومنهم من أشار بقطع يمينه، ومنهم من أشار بضربه، وأحسنهم محضراً أشار بإخبار صاحب مصر بحاله ليحرمه فيعود إلى بغداد خائباً.

فلمّا فرغوا من حديثهم قال جعفر: سبحان الله! أليس فيكم رجل رشيد؟ قد علمتم ما كان بيني وبين صاحب مصر من العداوة والمجانبة، وأن كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس أن يفتح باب الصلح فقد قيَّض الله لنا رجلاً فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة وأزال بيننا تلك العداوة، فكيف يكون جزاؤه ما ذكرتم من الإساءة؟ ثم أخذ القلم وكتب على ظاهر الكتاب إلى صاحب مصر: سبحان الله! كيف حصل لك الشك في خطي؟ هذا خط يدي والرجل من أعز أصحابي وأريد أن تُحسن إليه وتُعيده إليَّ سريعاً، فإني مشتاق إليه محتاج إلى حضوره.

فلمّا وصل الكتاب وفي ظاهره خط الوزير إلى صاحب مصر كاد يطير من الفرح وأحسن إلى الرجل غاية الإحسان وواصله بمال كثير وتحف جميلة.

فلمّا رجع الرجل دخل على جعفر وسلَّم عليه ووقع يقبِّل الأرض ويبكي، فقال له جعفر: من أنت يا أخي؟ قال: يا مولانا أنا عبدك وصنيعتك المزوِّر الكذّاب المتجرِّىء! فعرفه جعفر وبشَّ به وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله وقال له: كم وصل إليك منه؟ فقال: مائة ألف دينار. فاستقلها جعفر وقال: لازمنا حتى نضاعفها لك. فلازمه مدّة، فكسب معه مثلها[1].

(١) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.

ولم يقف إحسان البرامكة عند حدود معيَّنة، بل تخطَّى الموالي والأنصار حتى بلغ الأعداء. هذا ما أشار إليه ثمامة، الذي كان يحدِّث بسؤدد يحيى بن خالد وابنه جعفر ويقول: إن الرشيد نكب علي بن عيسى بن هامان وألزمه مائة ألف دينار أدّى منها خمسين ألفاً وبلغ بالباقي، فأقسم الرشيد إن لم يؤدِّ المال في بقية هذا اليوم وإلّا قتله، وكان علي بن عيسى عدواً للبرامكة مكاشفاً، فلما علم أنه مقتول سأل أن يُمكَّن من السعي إلى الناس يستنجدهم، ففسح له في ذلك، فمضى ومعه وكيل الرشيد وأعوانه إلى باب يحيى وجعفر، فأسبلا عليه وصححا من صلب أموالهما خمسين ألف دينار في باقي نهار ذلك اليوم بديوان الرشيد باسم علي بن عيسى[1].

نرى مما تقدم أن تقرُّب البرامكة إلى الناس كان عامّاً شاملاً، وكان في قلوبهم عاطفة حب تغمر الجميع، حتى أن الرشيد قال بعد نكبة البرامكة: «أريد أن أستعمل قوماً لم يعملوا معهم؟ فقيل له: لا تجد أحداً لم يخدمهم»[2].

* * *

(١) ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة** ج ٥ ص ٦٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٥٤.



دورهم المعماري

كان خالد بن برمك ينزل باب الشماسية في الموضع المعروف بسويقة خالد، وهي إقطاع من المهدي، وبنى يحيى بن خالد قصراً يُعرف بقصر الطين، ثم بنى فيه الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى قصران كانا يُعرفان بهما(١).

وقد روى عمر بن مسعدة أنه عندما مرَّ مع جعفر بإزاء قصره، نظر جعفر إلى البناء، وقال له: يا أبا الفضل! والله إني لأعلم أنه ليس من بناء مثلي ولكن قلت: إن بقي لي فهو قصر جعفر، وإن شره السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر ويبقى اسمه وذكره، ولعله أن يمر به بعض من لنا عنده إحسان فيترحَّم علينا(٢).

وإليك ما ذكره ياقوت في «معجمه» عن قصر جعفر بن يحيى في مادة التاج، قال: «كان أول ما وضع من الأبنية بهذا المكان [أي التاج وهو ــ حسب ياقوت ــ اسم لدار مشهورة جليلة المقدار، واسعة الأقطار ببغداد من دور الخلافة المعظمة] قصر جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، وكان السبب في ذلك أن جعفراً كان شديد الشغف بالشرب والغناء والتهتك، فنهاه أبوه يحيى، فلم ينته، فقال: إن كنت لا تستطيع الاستتار، فاتخذ لنفسك قصراً بالجانب الشرقي وأجمع فيه ندمائك

(١) نفس المصدر ص ١٨٩.
(٢) نفس المصدر ص ٢١٦.

وقيانك وقضِّ فيه معهم زمانـك وابعد عن عين من يكـره ذلك منـك، فعمد جعفـر، فبنى بالجانب الشرقي قصراً موضـع دار الخلافة المعظمـة اليوم، وأتقن بنـاءه وأنفق عليـه الأموال الجـمَّـة، فلما قـارب فراغـه سـار إليـه في أصحـابـه وفيهم مؤنس بن عمران، وكان عاقلاً، فطاف به واستحسنـه، وقال كـل من حضر في وصفـه ومدحـه وتقـريظه مـا أمكنه وتهيـأ له هـذا ومؤنس ساكت، فقـال له جعفـر: مـا لـك سـاكت لا تتكلم وتـدخل معنـا في حديثنـا؟ فقال: حسبـي مـا قـالـوا، فعلم أن تحت قـول مؤنس شيئاً، فقال: وأنت إذا فنك، فقد أقسمت لتقـولن، فقال: أمـا إذا أبيت إلَّا أن أقول فيصير علي الحق، قال: نعم، واختصر فقال: أسألك بالله إن سررت الساعـة بدار بعض أصحابـك وهي خير من دارك هـذه ما كنت صـانعاً؟ قـال: حسبك فقـد فهمت، فمـا الرأي؟ قـال: إذا صرت إلى أميـر المؤمنين وسألـك عن تأخـرك فقل: سرت إلى القصر الـذي بنيته لمـولاي المأمـون. فأقـام جعفر في القصـر بقية ذلـك اليـوم، ثم دخل على الـرشيد فقـال له: من أين أقبلت ومـا الذي أخَّـرك إلى الآن؟ فقال: كنت في القصر الـذي بنيته لمـولاي المأمـون بالجـانب الشرقي على دجلة، فقال له الـرشيد: وللمـأمون بنيتـه! قال: نعم يـا أميرا لمؤمنين، لأنـه في ليلة ولادته جُعل في حجري قبل أن يجعل في حجرك واستخدمني أبـي له، فدعـاني ذلك إلى أن اتخـذت له بـالجانب الشـرقي قصراً لمـا بلغني من صحة هـوائه ليصـح مـزاجه ويقوي ذهنـه ويصفو، وقد كتبت إلى النواحي باتخاذ فرش لهـذا الموضـع وقـد بقي شيء لم يتهيأ اتخاذه وقد عولنا على خزائن أمير المؤمنين، إما عـارية أو هبـة، قال: بـل هبة وأسفـر إليـه بـوجهـه ووقـع منـه بمـوقـع، وقـال: أبـى الله أن يقـال عنـك إلَّا ما هو لك أو يطعن عليك إلَّا يرفعك، ووالله لا سكنه أحد سواك ولا تممَّ ما يعوزه من الفـرش إلَّا من خزائننـا وزال من نفس الرشيـد مـا كـان خـامـره وظفـر بـالقصـر بطمأنينة، فلم يزل جعفر يتردد إليه أيام فرجه ومتنزهاتـه إلى أن أوقـع بهم الرشيـد، وكـان إلى ذلك الـوقت يسمى القصر الجعفـري ثم انتقل إلى المـأمون، فكـان من أحب المواضـع إليه وأشهاها لديه. . وابتنى مثله قريباً منـه برسم خـاصته وأصحـابه سمِّيت المـأمونيـة. . . وكان قـد أسكن فيه الفضـل والحسن ابني سهل، ثم تـوجـه

المأمون والياً بخراسان. . . فأنفذ الحسن بن سهل خليفة له على العراق فوردها في سنة ١٩٨هـ، ونزل في القصر المذكور، وكان يُعرف بالمأموني، وشفع ذلك أن تزوَّج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل. . . وطلبه الحسن من المأمون، فوهبه له وكتبه باسمه وأضاف إليه ما حوله وغلب عليه اسم الحسن، فعُرف به مدة وكان يُقال له القصر الحسني. فلما طوت العصور. . . بتعويضها منه فاستمهلته ريثما تفرغ من شغلها وتنقل مالها وأهلها. . . ثم انتقلت إلى غيره وراسلت المعتمد باعتماد أمره، فأتاه فرأى ما أعجبه وأرضاه واستحسنه واشتهاه وصار من أحب البقاع إليه. . . ثم توفي المعتمد بالقصر الحسني سنة ٢٧٩هـ. . . ثم استولاه المعتضد بالله. . . فوسَّعه وكبَّره وأدار عليه سوراً. . . وابتنى على نحو ميلين منه الموضع المعروف بالثريا، ووصل بناء الثريا بالقصر الحسني. . . وما زال باقياً إلى الغرق الأول الذي صار ببغداد فعفا أثره»(١).

وحُكي عن سبب بناء هذا القصر، إن متظلماً من أهل أصبهان تظلَّم إلى يحيى بن خالد من عامله بها، فقال له: ظلمني وأساء معاملتي وأخذ ما لا يجب مني وهدم شرفي، فقال يحيى: قد عرفت جميع ما تظلَّمت خلا قولك «هدم شرفي»، ففسِّر لي ذلك. فقال له المتظلِّم: أنا من بنيَّ رجل كان بَنَى القصر المهدوم، وكان يُنسب إليه وكان الرائي إذا رأى القصر وجلالته وعلم أني من وِلدِ الباني له، عرف بذلك قديم نعمتي وجلالة أوَّلي. فاستحسن ذلك يحيى منه وقال للفضل وجعفر: لا شيء أبقى ذكراً من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً، فاتخذ جعفر قصره، وكذلك الفضل، وأمر يحيى بإنفاذ مستحث مع المتظلِّم يطالب العامل بإعادة بناء قصره وإنصافه من ظلامته(٢).

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر حين اختط داره ليبنيها: هي قميصك، فإن

---

(١) ياقوت: **معجم البلدان** ج ٢ ص ٣ ــ ٤.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٦ ــ ٢١٧.

شئت فوسّعه وإن شئت فضيِّقه[1]. وأتاه وهو يبني داره التي ببغداد بقرب الدور، وإذا هم يبيِّضون حيطانها، فقال: إعلم أنك تغطي الذهب بالفضة. فقال جعفر: ليس في كل مكان يكون الذهب أنفع من الفضة ولكن هل ترى عيباً؟ قال: نعم، مخالطتها دور السوقة[2].

وكانت قصور البرامكة في الجانب الشرقي من بغداد، وعاشوا في سعة ونعمة ورخاء، وكان القصر الجعفري في وسط تلك البقعة تحيط به طائفة من المساكن الفخمة. وقد أُنشئت هذه القصور على شاطىء دجلة، وأُنشئت خلفها البساتين الرحبة، وفيها كثير من الأبنية الصغيرة[3].

وقد شابهت قصور البرامكة قصور الرشيد، وأشرعت أنظاره، وكانت سبباً في إثارة الوشاة[4]. وكان فيها ما في قصر الرشيد من آلة ترف وبذخ حتى ربما وجد فيها ما ليس في قصره[4].

ونظراً لآراء خالد بن يحيى السديدة، ولخبرته الواسعة في مضمار البناء، نجد أول من يشير على الخليفة المنصور في قصة تخطيط بغداد في عام ١٤٦هـ. هذا ما رواه لنا الطبري[5] في حوادث سنة ست وأربعين ومائة، حيث يقول: لمّا

---

(١) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٣ ص ٣١١؛ ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة** ج ٥ ص ٦٤٢.

(٢) ابن قتيبة: **عيون الأخبار** ج ٣ ص ٣١١، وذكر الطبري أن جعفر بني دارا أنفق عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وكانت من أسباب نكبتهم: الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٩١، راجع ص ٤٠ فيما تقدم.

(٣) فيليب حتي: **تاريخ العرب** القسم الثالث ص ٣٦٠ ــ ٣٦١.

(٤) قدورة: **الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي** ص ١٩٥. عن الأموال الطائلة التي صرفها جعفر لبناء قصره، وعن سعاية الوشاة بالبرامكة عند الرشيد، بسبب ذلك راجع ص ٤٠ ــ ٤١.

(٥) عباس: **البرامكة في التاريخ** ص ١٠٣.

(٦) الطبري: **تاريخ** ج ٧ ص ٦٥٠ ــ ٦٥١؛ ابن الأثير: **الكامل** ج ٥ ص ٥٧٣؛

أراد المنصور بناء مدينة بغداد، شاور أصحابه فيها، وكان ممن شاوره فيها خالد بن برمك، فأشار بها، فذكر عن عليّ بن عصمة أنَّ خالد بن برمك خطَّ مدينة أبي جعفر وأشار بها عليه، فلمّا احتاج إلى الأنقاض، قال له: ما ترى في نقض بناء مدينة إيوان كسرى بالمدائن وحمل نقضه إلى مدينتي هذه؟ قال: لا أرى ذلك يا أمير المؤمنين. قال: ولِمَ؟ قال: لأنه عَلَم من أعلام الإسلام يستدلّ به الناظر إليه على أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا، وإنما هو على أمر دين، ومع هذا يا أمير المؤمنين فإن فيه مصلّى علي بن أبي طالب صلوات الله عليه. قال: هيهات يا خالد! أبيت إلاَّ الميل إلى أصحابك العجم! وأمر أن ينقض القصر الأبيض، فنقضت ناحية منه، وحمل نقضه فنظر في مقدار ما يلزمهم للنقض والحمل، فوجدوا ذلك أكثر من ثمن الجديد لو عُمل، فرفع ذلك إلى المنصور، فدعا بخالد بن برمك فأعلمه ما يلزمهم في نقضه وحمله وقال: ما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد كنت أرى قبل ألاَّ تفصل، فأما إذا فصلت فإني أرى أن تهدم الآن حتى تلحق بقواعده لئلا يقال: أنك قد عجزت عن هدمه، فأعرض المنصور عن ذلك وأمر ألاَّ يُهدم.

وقد خلَّف البرامكة الكثير من أعمال البناء الأخرى، فقد احتفر يحيى القاطول، واستخرج نهراً سمّاه أبا الحيل، وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم[1]، وتُعد سيحان[2] بالبصرة من أهم أعماله، ولمّا صار الفضل إلى خراسان بَنى الحياض والمساجد والربّاطات[3] وغيرها. ويقال إن الفضل هو أول من أدخل

ابن الطقطقي: **الفخري** ص ١٥٧؛ الحميري: **الروض المعطار** ص ٦٩ ـ ٧٠، وقد ذكر الجهشياري أن الرشيد هو الذي أراد هدم إيوان كسرى: الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢٩.

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٧٧.

(٢) الطبري: **تاريخ** ج ٨ ص ٢٦٦.

(٣) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩١.

استعمال المصابيح في الجوامع في شهر رمضان[1]. كما أنه بنى مسجداً جامعاً في بخاري وحضر قناة جديدة في بلخ. (دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة برامكة).

* * *

(١) فليب حتي: تاريخ العرب القسم الثالث ص ٣٦١.

٦

الكَرَم

لقد اتَّصف البرامكة بالكَرَم والسخاء، ونثروا من العطاء في مواليهم ومدّاحيهم وأتباعهم ما جعل المعدم منهم غنياً، ومُدحوا بما لم يُمدح به خليفة، وضُربت بكرمهم الأمثال. فقيل: تبرمك فلان[١]. ولا تزال إلى هذا اليوم لفظة برمكي في بعض البلدان العربية تؤدي معنى الكرم[٢]. وقد وصف الشاعر يوسف بن القاسم جود البرامكة، فقال:

لولاكم كان جود الناس مشتبهاً   لكن برعتم فأضحى جودكم مثلاً[٣]

وقد أشارت المصادر التاريخية والأدبية إلى كرمهم وروت عنهم الأخبار العديدة التي تشبه الأساطير. فالبيهقي ذكر في كتابه «المحاسن والمساوىء»، أنه كان للبرامكة في هذا الشأن (أي السخاء) ما لم يكن لأحد من الناس.. منها: أنهم كانوا يخرجون بالليل سراً ومعهم الأموال يتصدَّقون بها وربما دقّوا على الناس أبوابهم فيدفعون إليهم الصرّة فيها بين الثلاثة إلى الخمسة آلاف أو أكثر من ذلك؛ وربما طرحوا ما معهم في عتب الأبواب، فكان الناس لاعتيادهم ذلك يغدون إلى العتب إذا أصبحوا يطلبون ما أُلقى فيها[٤].

---

(١) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٢.

(٢) حتي: **تاريخ العرب القسم الثالث** ص ٣٦١.

(٣) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ١٥٧.

(٤) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٩٣.

وروى الجهشياري[1] في كتابه «الوزراء والكتّاب» أن خالد بن برمك كان سخياً جليلاً سرياً نبيلاً كثير الإحسان. وأضاف بأنه لم يكن لجليس خالد دار إلاّ وخالد بناها له، ولا ضيعة إلاّ وخالد ابتاعها له، ولا ولد إلاّ وخالد ابتاع أمه إن كانت أَمَة، أو أدّى مهرها إن كانت حرّة، ولا دابّة إلاّ وخالد حمله عليها، إما من نتاجه أو من غير نتاجه. وكان ينافسه في هذا البذل الواسع ابنه يحيى، الذي كان سيد بني برمك وأفضلهم جوداً ورأياً[2] يباري الريح كرماً وجوداً[3]، وعلى ذلك نشأ وَلَديْ يحيى: جعفر الذي كان جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه أشهر من أن يُذكر وأبين من أن يظهر[4]. والفضل الذي كان من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره[5]. وصفه ابن خالكان[6] بأنه كان من أكثرهم (أي أكثر البرامكة) كرماً مع كرم البرامكة وسعة جودهم، وقال عنه القلقشندي أنه كان بحيث يُضرب به المثل في أمثاله في الجود[7].

واقتدى بهم جميع أفراد الأسرة البرمكية، فعيَّنوا الرواتب لأصحاب الحاجات وغمروا الشعراء بهدايا سخية للغاية، حتى فاقوا الخلفاء في هذا المجال؛ إذ منحوا شاعرهم أبان اللاحقي[8] على قصيدة واحدة مبلغاً من المال يساوي ما أجاز الرشيد

---

(١) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٥٠.

(٢) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء** م ١٠ ج ٢٠ ص ٥.

(٣) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٨.

(٤) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩.

(٥) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠١.

(٦) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٤ ص ٢٧.

(٧) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج ١ ص ٤٥٣ ــ ٤٥٤.

(٨) كان يحيى بن خالد البرمكي قد جعل أبان بن عبد الحميد على الشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فما رضيه أثبته وما لم يرضه أسقطه: الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٣٣.

للشاعر مروان بن أبي حفصة طيلة عمره[1]. ووصلوا الشاعر سلم الخاسر وحده لمدائحه فيهم عشرين ألف دينار[2]، وقد رووا في أخباره أنه لمّا أفاد من الخلفاء والبرامكة بشعره ما أفاد من الأموال الجليلة، قال: أنا الرابح ولست بالخاسر[3].

وقيل بأنهم أعطوا إبراهيم الموصلي ستمائة ألف درهم وأقطعوه ضيعة بمائة ألف[4]. وأعطى يحيى يوماً لإسحاق بن إبراهيم الموصلي مائة ألف درهم ليشتري بها داراً، وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف درهم لفرشها، وأعطاه ابنه الفضل ألف درهم لإصلاحها كما يريد، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة ليصرفها في سائر نفقته[5]. وقيل أيضاً بأن يحيى كان مفرط العطاء إلى درجة أنه إذا ركب أعطي كل ما صادفه مائتي درهم[6]، وقد تعرَّض له ذات يوم أديب شاعر وأنشده:

يا سمي الحصور يحيى أتيحت	لك من فضل ربنا جنتان
كل من مرَّ في الطريق عليكم	فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمثلي قليل	هي منكم للقايس المجلان

قال له يحيى: صدقت، وأمر بحمله إلى داره. فلما رجع من دار الخلافة سأله عن حاله، فذكر أنه تزوج، وقد أخذ بواحدة من ثلاث: إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف، وإما أن يطلق، وإما أن يقيم جارياً للمرأة يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها. فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر، وبأربعة آلاف لثمن منزل، وبأربعة آلاف

---

(١) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢ ص ١٧٩؛ الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٦.

(٢) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٢١ ص ١٧٩.

(٣) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٦٩.

(٤) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ٢٦.

(٥) نفس المصدر ج ٥ ص ١٣٦.

(٦) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٤ ص ١٢٩ ـ ١٣٠؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٣٢٣؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠١.

لما يحتاج إليه المنزل، وبأربعة آلاف للبنية، وبأربعة آلاف يستظهر بها؛ فأخذ عشرين ألفاً وانصرف[1].

وكان يحيى يجري على سفيان الثوري ــ رضي الله عنه ــ ألف درهم في كل شهر، فكان إذا صلّى سفيان يقول في سجوده: اللهم إن يحيى كفاني أمر دنياي فاكفه أمر آخرته. فلما مات يحيى رُئي في المنام، فقيل له: ما فَعَل الله بك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان[2].

ويُروى بأن إبراهيم الموصلي غنّى ليحيى بن خالد بيتاً من الشعر بعد أن صنع فيه لحناً، فوهبه ألف دينار ودابته التي كانت تحته يومئذ بسرجها ولجامها، ولمّا شكَرَه الموصلي على ذلك أمر له بألف دينار أُخرى[3].

وقال عبد الله بن أحمد بن يوسف: إن يحيى بن خالد استدعى يوماً والده المريض وقال له: «إني لأرى من علّة حالك أكثر من علة جسمك، ثم انصرف فحمل إليه أربعمائة ألف درهم»[4].

نلاحظ مما تقدَّم أن يحيى بن خالد قد تمسَّك بأهداب الكرم والسخاء حتى بلغ درجة الريادة وغدا اسمه مرادفاً للعطاء والإحسان، ونعي الرشيد ــ حين علم بوفاة يحيى ــ للجود والكرم: «مات والله يحيى ومات الجود والكرم والسخاء»[5].

وكان جعفر يجري على الشاعر أشجع السلمي في كل مائة دينار[6]، ويُروى أنه وصل الأصمعي يوماً بخمسمائة ألف[7]، وكان يعطي الرقاشي في كل سنة ألف

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٣.
(٢) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء** م ١٠ ج ٢٠ ص ٩.
(٣) الأصبهاني: **الأغاني** ج ٥ ص ١٣.
(٤) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ١٦٣.
(٥) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥١ ــ ١٥٢، هو خير دليل على ذلك.
(٦) نفس المصدر ج ١٧ ص ٦٦؛ الكتبي: **فوات الوفيات** م ١ ص ١٩٦ ــ ١٩٧.
(٧) القفطي: **إنباه الرواة** ج ٢ ص ١٩٩ ــ ٢٠٢.

دينار[1].

وقد تكرّم بخمسين ألف دينار من الذهب وتكرّر منه كثيراً في ولايته كلها من غير منّ ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض، ومن كرمه أنه تكرَّم في يوم على ألف شاعر أعطى كل شاعر ألف درهم، والدرهم ثلاثة أصناف فضة[2].

وقد أعطى يوماً مروان بن أبي حفصة عن مدح له ثلاثين ألف درهم، وأعطى أبا النضيد عشرين ألفاً وأشجع ثلاثة آلاف، كان أول ما اتصل به، فكتب أشجع إليه:

أعطيت مروان الثلا ... ثين التي حلت رعاثة
وأبا النضير وإنما ... أعطيتني معهم ثلاثة
ما خانني هوك العصيـ ... ـد وما اتهمتُ سوى الحداثة

فأعطاه عشرين ألفاً[3].

وروى ابن المعتز[4] أن الفضل اشترى للشاعر نصيب الأصغر داراً تقارب داره بألف دينار، واشترى له صنيعة تغلُّ عليه غلة كثيرة، وكانوا (أي البرامكة) يجرون عليه ويعاشرونه، وكذا كانت عادة آل برمك فيمن يتصل بهم ــ رحمهم الله ــ فما خلَّفوا بعدهم من شق غبارهم في الجود والكرم والبر والعطاء والإحسان.

ولم يقف الكرم البرمكي عند هذا الحد، بل حرَّض الخلفاء على الجود والسخاء، هذا ما جرى ليحيى البرمكي يوماً مع الرشيد عندما كان يسايره فقام رجل، فقام رجل فقال: «يا أمير المؤمنين عطبت دابتي»، فقال الرشيد: «يُعطى خمسمائة درهم». فغمره يحيى، فلما نزلوا قال له الرشيد: «يا أبت، أومأت إليَّ

(١) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ٧ ص ١٥٨.
(٢) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٢.
(٣) الصولي: **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق** ص ٨٧.
(٤) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ١٥٧.

بشيء ولم أعرفه»، فقال: إذا سُئلت مثل هذا كيف أقول؟. فقال: «تقول يُشترى له دابة»[1].

فالوزراء البرامكة لم يرَ مثلهم سخاء وسروراً[2]، فقد روى الحافظ السيوطي في رسالته «مشتهى العقول في منتهى النقول»، أن منتهى الكرم للوزراء البرامكة كاد أن لا يوجد أحد من العلماء والحكماء والعظماء والندماء إلاَّ وللبرامكة عليه كرم نما كماء السماء[3]. حجَّ الرشيد وحجَّ معه ابناه محمد وعبد الله وحج معه يحيى والفضل وجعفر، فلما صار بالمدينة جلس ومعه يحيى فأعطى أهلها العطاء، ثم جلس محمد بعده ومعه الفضل بن يحيى فأعطاهم العطاء، ثم جلس بعده عبد الله ومعه جعفر فأعطاهم العطاء. . فأُعطوا في تلك السنة ثلاثة أعطية، فكان أهل المدينة يسمّون ذلك العام عام الثلاثة الأعطية، ولم يروا مثل ذلك عطاء إلاَّ في أيام البرامكة[4].

وعندما جاء يحيى ومعه ابنه جعفر إلى عبد الصمد بن علي، فسلَّم عليه وببابه فتى من وِلد عبد الله بن عليّ، فقام إلى جعفر فقبَّل يده، فقال له: ائتني وارفع إليَّ حوائجك وإلى أمير المؤمنين وقد أمرت لك بخمسة آلاف دينار، فقال يحيى: وقد أمرت لك بمثلها وأجريت عليك ثلاثة آلاف درهم في كل شهر، فأبعث بمن يقبض لك. فلما انصرف دعاه عبد الصمد، فقال: لِمَ فعلت ما فعلت؟ فقال: أنا ابن أخيك وإنما تصلني في السنة أربعة آلاف درهم، وقد أغناني هذا وأبوه في ساعة واحدة، فكيف تلومني على ذلك؟![5].

فالنفوس البرمكية جُبلت على الكرم والسخاء وعلى الجود والعطاء.

---

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ص ٢٢٧.

(٢) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** ج ١٤ ص ١١.

(٣) الأتليدي: **أعلام الناس** ص ١٥٢.

(٤) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٢١ ــ ٢٢٢؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ٦ ،ص ٢٢٤؛ ابن الطقطقي: **الفخري** ص ٢٠٠ ــ ٢٠١.

(٥) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٩٩.

والكرم البرمكي ينبوع إنساني دفّاق رقراق، نهل من مورده الفقراء والمساكين، واستقى من معينه كل محتاج.

فلما علا محمد بن إبراهيم الإمام دين مبلغه ألف ألف درهم، قصد الفضل بن يحيى ومعه حقة فيها جوهر وقال له: «قد لزمني دين أحوجني إلى احتيال ألف ألف درهم وعلمت أن التجّار لا يسمحون بإخراج مثلها وإن وثقنا الرهن، ولك معاملون وتجار مطيعون ومعي رهن، فإن رأيت أن تأمر بقبضه وحمل هذا المال إلينا فأنت أولى بذلك». ووضع الحقة بين يدي الفضل، فختمها بخاتم محمد بن إبراهيم وقال له: «السمع والطاعة ولكن، نجح الحاجة أن تقيم في منزلي الذي أنا فيه»، فأقام ونهض الفضل، فدعا وكيله وأمَره أن يحمل ألف ألف درهم مبدرة مع الحقة إلى منزل محمد، ففعل ذلك.

وانصرف محمد إلى داره مع المغزب فوجد الحقة ومعها ألف ألف درهم، فسُرَّ بذلك سروراً عظيماً، فغدا إلى الفضل ليشكره فوجده قد سبقه إلى دار الرشيد، فلم يزل واقفاً ينتظره حتى خرج الفضل من باب آخر قاصداً منزله، فمضى محمد إليه وشَكَرَه على فعله وانصرف عنه، فلما دخل منزله وجد فيه ألف ألف درهم سوى الأولى أخذها الفضل من الرشيد وبعث بها إلى محمد بعد أن عرض عليه حاله، فغدا محمد على الفضل وقال له: «لست أجد لك شكراً أقضي به حقك، غير أنه عَلَيَّ ابن محمد بن علي وعليه من الأيمان المغلّطة إن وقفت بباب أحد سواك أبداً حتى ألقَى الله جلَّ وعز، ولا أسأل أحداً حاجة ما بقيت سواك، فكان لا يركب إلى أحد سوى الفضل ولا يقف بباب أحد غيره[1].

ولمّا عجز يحيى بن معاذ عن قضاء دَين مبلغه ثلاثمائة ألف درهم توارى من غرمائه وتجمَّد في بيت، فأخبر أحد الناس الفضل بن يحيى بهذه القصة وانصرف إلى منزله، فكتب إليه الفضل: إنك دللتنا على مكرمة فشكرناك على ذلك وأمرنا

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ١٩٥ ــ ١٩٧؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ٢٠٢ ــ ٢٠٤.

لـك بمائـة ألف درهم لدلالتـك، وبعثنا إليـك بثلاثمـائـة ألف درهم لتـوصلهـا إلى يحيـى بن معاذ، فأوصلها إليه، فقضى دينه بها[1].

وقال عبد الله بن أحمد بن يوسف: «نالت جدي إضاقة فكتب إلى الفضل بن يحيـى:

أبـا العبـاس دعـوة مسـتـميح	لـجـودكَ فـاز بـالـبـيـع الـربـيـح
وأنـت كـلاكَ ربـك مـن أنـاس	بـجـودهـم عـلـت أيـدي الـمـديـح
وقـد قـصـدتـك بـي ثـقـة وود	أحـالانـي عـلى الأمـل الـنـجـيـح

فـوجَّـه إليه بثـلاثين ألف درهم، كـل بيت عشـرة آلاف درهم وكتب إليــه: «لو زدت في المقال لزدنا في المال»[2].

ولمّا أقبل الفضل بن يحيـى يوماً على نهر المهدي استقبله فتى من الأبناء قـد أملك ومعه جماعة كثيرة قد ركبوا معه في السواد والسيوف، فترجَّل الفتى وقبَّل يـده ورجله، فسأله الفضل عن شأنه فأخبره، فقال لـه: كم أصدقت أهلك؟ قـال: أربعة آلاف درهم، فـدعا كهـرمانـة وقال: إحمـل إليه السـاعة أربعـة آلاف درهم لصداق أهله، وأربعة آلاف درهم لشراء منزل ينزله، وأربعة آلاف درهم لنفقة تحويل أهله، وأربعة آلاف للنفقة على الوليمة، وأربعة آلاف درهم لينصرف بها في مشيته[3].

وعنـدما سمـع الفضـل بن يحيى أحد الـرجال يقـول: لا والله إن في منـزلي قليلاً ولا كثير، أمر غلمانه بإحضـاره إلى القصر وأعـطاه خمسة آلاف درهـم وعشـرة أثـواب، ولمّا عـاد الرجـل إلى منزله تعجَّبت امرأتـه من هذه الأمـوال والأثواب التي ملكهـا بسرعـة، فاتهمتـه بالسـرقة وتنـاهى الخبر إلى السلطان، فحبسـه. ولمّا علم الفضل بذلك أمر بإطلاقه ووصله بخمسة آلاف أخـرى وبعشرة أثـواب وقال: تعهـد

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٠٠، مـع تغيير في النص.

(٢) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٥٩.

(٣) نفس المصدر ص ٢٠١.

بما ننفعك، فلم يزل ينفعه حتى حدث من أمرهم ما حدث[1].

وتحدّى البرامكة بجودهم القدر، الذي أزال النعم عن النـاس، وجعلوا منهم أهـل نعمـة وقـدر. فمن ذلـك مـا رواه البيهقي من حـديث جـرى بين المـأمـون والمنذر بن المغيرة بعد أن وجد الحرس الأخير في خرابات البرامكة يبكي ويقول:

ولمـا رأيت السيف قـد قـدَّ جعفـراً	ونـادى منـادٍ للخليفـة فـي يحيـى
بـكيـت على الـدنيـا وأيقنـت أنـه	قصارى الفتى يـومـاً مفـارقـة الـدنيـا
أجـعفـر إن نـهلك فـربّ عـظيـمـة	كشفت ونعي قـد وصلت بهـا نعمى
فقـل للذي أبـدى ليحيـى وجعفـر	شمـاتتـه: أبشـر لتـأتيهـم العـقبـى

مـع أبيـات أطالهـا. فلما انتهى من إنشـادها قبض عليـه الحرس وأخـذه إلى المأمون الذي سأله عن سبب وروده خرابات البرامكة باكياً نادباً، فقال لـه: «يا أميـر المؤمنين! للبرامكة عندي أيادٍ خضرة، أفتأذن لي أن أحدثك؟ فقال: سديـداً. قال: أنـا يا أميـر المؤمنين المنـذر بن المغيـرة من أهـل دمشق كنت بهـا من أولاد الملوك فزالت عني نعمتي كما تـزول عن الرجـال، فلما ركبتني الـديون واحتجت إلى بيـع مسقط رأس ورؤوس آبائي، أشاروا عليَّ بالخروج إلى البرامكة فخـرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية وليس معنا ما يُباع ولا مـا يُرهن، ثم روى لـه أنه دخل بغداد ومضى في شوارعهـا حتى دخل دار يحيـى بن خـالد فحضـر احتفال زواج ابنته عائشة حيث قدِّم لكل شخص صينية فضة عليها ألف دينـار شاميـة فصبَّ الجميـع الدنانير في أكمامهم وجعلوا الصواني تحت أباطهم إلّا هو، فغمزه الخـادم حتى تجرّأ على أخذ الصينية وقام وهـو يلتفت إلى الوراء، فـلاحظ يحيـى ذلك فـرُد إليه، فأمر فسلبت الدنانير والصينية وأخبره قصته، فدعا ابنه موسى وقال لـه: «يا بني هذا رجل غريب، فخُذه إليك إخلطه بنفسـك ونعمتك». فقصف عليه يومين وليلتين (كذا)، ثم دعا بأخيه وقاصفه، فلمّا كان من غد تسلّمه أحمد وتداولتـه أيدي القـوم

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠١ ــ ٢٠٢.

عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر جاءه خادم فقال: «قُم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام». فقلت: واويلاه سلبت الدنانير والصينية. وقد تمزَّقت ثيابي واتسخت وأخرج على هذه الحالة! إنّا لله وإنّا إليه راجعون! فرُفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن يرفع السابع قال لي الخادم: تمنَّ ما شئت، ورُفع لي ستر عن حجرة كالشمس استقبلني منها رائحة العود والسند ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقلَّبون في الحرير والديباج وأنا قد حصل إليَّ ألف ألف درهم مبدرة وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين وتلك الصينية مع الدنانير والبنادق، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أَمِنَ البرامكة أنا أم مِنْ بيت نار النوبهار أو رجل غريب اصطنعوني، فلما جاء القوم البلية ونزلت بهم من الرشيد النازلة قصدني عمرو بن مسعدة وألزمني من الخراج في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليَّ الدهر كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم[1].

وعائلة أُخرى زالت النعمة عنها فباتت الليالي الطويلة جائعة توّاقة إلى الخبز والطعام، إلى أن لقاها الكرم البرمكي وكأنه رحمة من السماء أُرسلت إلى الأرض لإنقاذ النفوس البريئة. فقد روى البيهقي[2] أنَّ رجلاً كان ينزل على نهر المهدي وكانت عليه نعمة فزالت، فلم يقدر على شيء، فمطر الناس ثلاثة أيام متتابعة، فبقي في منزله لا يقدر على الخروج، فأضرَّ به ذلك وأبلغ إليه الجوع وإلى عياله، فلمّا كان في آخر الليل جاء إلى البقال بقصعة له ليرهنها عنده على خبز، فانتهره البقّال وقال: ما أصنع بهذه القصعة؟ وأبى أن يعطيه عليها شيئاً، قال: فعاد إلى منزله مغموماً لا حيلة له، فرفع يده إلى السماء وقال: أللهم، سُق إليَّ في هذه الليلة عبداً من عبادك تحبّه يفرج عني ما أمسيت فيه، فما شعرت إلَّا والباب يدقّ عليَّ، فإذا رجل على حمار قد حفَّ به خدم، فقال لي: كم عيالك؟ قلت: كذا

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١١٦ ــ ١١٩.

(٢) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٢.

وكذا، فأعطاني كيساً قدرت أن فيه خمسة آلاف درهم، فقلت: الحمد لله الذي استجاب دعائي وفرَّج عني، فقال لي: وما كان قولك ودعاؤك؟ فخبَّرته الخبر بصنيع البقال وما دعوت الله جلَّ وعزَّ به، فاستحلفني أني دعوت بهذا الدعاء، فحلفت له، فأمر لي بمائة ألف درهم، فسألت بعض أولئك الخدم عنه لأعلم هل يقدر على ما أمَر لي به أم لا، فقال: هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، فسكتّ إلى ذلك وانصرفت إلى منزلي، ومضيت إلى قهرمانة لما أصبحت فقبضت منه المال.

ولمّا طعن المأمون على البرامكة ووضع منهم قال محمد بن عبد الله: «يا أمير المؤمنين! لقد صغَّرت من البرامكة غير مصغَّر، ووضعت منهم غير موضوع، وذممت منهم غير مذموم، ولقد كانوا شفاء أسقام دهرهم، وغياث أجداب عصرهم، كانوا مفزعاً للملهوفين، وملجأ للمظلومين، وإن أذن لي أمير المؤمنين حدَّثته ببعض أخبارهم ليستدلّ بذلك على صدق قولي فيهم، ويقف على جميل أخلاقهم ومحمود مذاهبهم في عصرهم، والأفعال الشريفة والأيادي النفيسة. فأذن له المأمون بالحديث، فقال: كنت منقطعاً إلى الفضل بن يحيى، فطلب مني بحضور أبيه وأخيه جعفر، أن أستضيفه يوماً في داري، فقلت له: جُعلت فداك! شأني أصغر من ذلك، ومالي يعجز عنه، وباعي يقصر عن ذلك، وداري تضيق عنه، ومنّتي لا تقوم له. فلم يقتنع باستعفائي وأصرَّ على استضافتي، فطلبت تأجيل ذلك سنة حتى أتأهب، فوافق يحيى على إمهالي شهرين فقط، فمضيت وبدأت بإصلاح داري وشراء ما أتجمَّل به من فرش وأثاث وغير ذلك. وفي الموعد المعيَّن حضر الفضل باكراً ومعه أباه يحيى وأخاه جعفر وأولادهم وفتيانهم، فطاف الفضل في جميع أنحاء الدار ونظر إلى نعمتي، صغيرها وكبيرها، إلى أن دخل المطبخ فأكل ومن معه، ثم خرج ووقف في صحن الدار وطلب نجاراً وأمَره بفتح باب في أحد حيطان الجيران، ففتح الباب وأدخلني أمامه إلى دار جار بصري، فيها من حسنها كلها لؤلؤ تغشي العيون، وفيها من الدواب والرقيق والفرش والأواني كل جميل بديع، وقال: هذا المنزل وجميع ما فيه لك، وأخبرني بأنه لمّا سألني هذه

الدعوة اشترى الأملاك المجاورة لي وعمَّرها داراً حسنة، ونقل إليها كل ما أرى، وكنت أرى العمارة فأحسبها لبعض الجيران. . وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحدَّثهما بما جرى، فرأيت أخاه جعفراً قد أمتعض من ذلك وتغيَّر وجهه تغيراً عرفته، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ويقول: يتفرد بمثل هذه المكرمة من دوني، فلو شاركني فيها لكانت يداً أشكرها منه، فقال: يا أخي، بقي لك منها قطبها، قال: وما هو؟ قال: إن مولانا هذا لا يتهيَّأ له ضبط هذه الدار بما فيها إلَّا بدخل جليل، فأعطه ذلك، فقال: فرَّجتَ عني يا أخ، فرَّج الله عنك! فدعا من وقته بصكاك لخمس قريات واحتمل عني خراجها، فخرج عني وأنا أيسر أهل زماني. فهل تلومني يا أمير المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم؟ فقال المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم. ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم[1].

ويظهر أن البرامكة اعتبروا الإحسان واجباً إنسانياً أُلقي على عاتقهم، فكانوا يسألون في مجالسهم العامة عن ذوي الحاجات لمدّ يد العون إليهم. وفي هذا المجال يُروى عن الفضل بن يحيى أنه قال ذات ليلة: أتعرفون رجلاً كانت عليه نعمة فزالت عنه حتى أردّها إليه؟ فهداه الأشعري على رجل شريف من آل خالد بن عبد الله القسري بالكوفة وسمّاه له، فأمر بإحضاره فوراً، فلما حضر سأله عن حاله وأمر له بمائة ألف درهم وقال: أقِم بها مروءتك حتى أنظر في أمرك وأُدبِّر لك ما يصلح حالك، ثم ولّاه كرمان فصار إليها وحَسُنت حاله. ولكن بعد مدة وجيزة بلغ الفضل وفاة الكوفي، فاغتم لذلك وقال: أردت بهذا الرجل الغنى فمات قبل ذلك، وأمر بحمل جميع ما خلَّفه إلى أهله، فحُمل إليهم[2].

وجاء البرامكة وتكرَّموا حتى بالثياب التي كانوا يلبسونها، ففيما يُروى في هذا الصدد أنَّ يحيى كسا يوماً كل ثوب كان له حتى لم يبقَ عليه من كسوته إلَّا طيلسان

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٤؛ ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية** ص ١٩٩ ـ ٢٠٠، مع تغيير في النص.

(٢) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

خلق، فعلمت امرأته بحاله، فبعثت إليه طيلساناً رائعاً، ولكن خالد لم يلبس هذا الطيلسان بل أمر أحد الناس بأن يقوم الساعة على شريف من أشراف الناس أو حرّ من أحرارهم فتتحفه به فيقوم فيلبسه كل يوم عيد أو يخرج إذا خرج نحو أهله فيلبسه عند قدومه إليهم فيقول: هذا كسوة خالد، هذا والله أفضل وأشرف من لبسي إياه(١).

ولمّا دخل أبو قابوس النصراني الحيري وكان منقطعاً إلى البرامكة على جعفر بن يحيى في يوم بارد، وتبيَّن على جعفر أثر البرد ألقى إليه مطرف خز، وكان شراه جملة كبيرة، وانصرف أبو قابوس فحضره عيد لهم، فالتمس في ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف، فلم يجده، فقالت له ابنته: لو كتبت إلى جعفر فعرفته حالك لَوجَّه إليك ما تلبسه مع هذا، فكتب إليه:

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا	رأيت مباهاة لنا في الكنائس
فلو كان هذا المطرف الخز جبة	لباهيت أصحابي به في المجالس
فلا بدّ لي من جبّة من جبابكم	ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهي وثوب غلالة	ولا بأس لو اتبعت ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب في العيد خمسة	كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس
لعمرك ما أفرطت فيما سألته	ولا كنت لو أفرطت فيه بيائس
وذاك لأن الشعر يزداد جدة	إذا ما البلى أبلى جديد الملابس

فوجَّه إلى أبي قابوس من كل صنف ذكره عشر قطع(٢).

وكان الكرم صديقاً حميماً للبرامكة، وافقهم في فقرهم وقهرهم كما في غناهم وعزهم، وحين دخلوا السجن دخل معهم. والدليل على ذلك أنه عندما زار الشاعر سعيد بن وهب البرامكة في سجنهم وأنشدهم بيتين من الشعر، وهبه الفضل بن يحيى دواجاً سموراً كان مسرور قد ألقاه عليه ــ بأمر من الرشيد ــ قبل

---

(١) البيهقي: **المحاسن والمساوىء** ص ١٩٤.

(٢) الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢١٠.

الـزيارة بيـوم واحد. ولـمـا قال سعيـد: «والله لا آخذ به على هذه الحـالة»، قـال له الفضـل: «والله لتـأخـذنـه، فـإن وقـع الـرضـا كـان عـنـدنـا مثله كثيـر وإن لم يكن إلَّا ما نحن فيه أنت أحق بذلك هذا ليس مما تتغيَّر به حال[1].

ونما الكرم البرمكي وكبر حتى بلـغ مرحلة الثواب عن الأمـوات. ومما يُـروى في هـذا الصـدد أن الشـاعـر مـروان بن أبـي حفصـة دخـل على جعفـر بن يحيـى البرمكي، وقد امتدحه بهذه القصيدة، فوقف ينشد:

أبـو الفضـل سبـاق اللهـاميم جعفـر ... أبـرّ فـمـا يـرجـو جـواد لـحـاقـه
وزيـر إذا نـاب الـخـليـفـة حـادث ... أشـار بمـا عنـد الـخليـفـة يصـدر

فقال: ويحك! أنشـدتني مرثيتـك في معن: وكان النـاس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته عيالاً فأنشـده إياهـا حتى فرغ من القصيـدة وجعفر يـرسل دمـوعه، فلما سكن قـال: أثابـك أحد من ولـده وأهله على هـذه شيئـاً؟ قـال: لا. قـال جعفـر: فلو كان معن حياً ثم سمعها منك كم كان يثيبـك عليها؟ قال: أربعمـائة دينـار. قال جعفـر: لكني أظن أنه كـان لا يرضى لـك بـذاك وقـد أمرنـا لـك عن معن بضعف ما قلت، وزدنا نحن مثل ذلك فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك. فقال مروان: يذكر ذلك ويمدح جعفراً وزادها في مرثيته لمعن:

نـفـحـت مـكـارمـاً عـن قـبـر مـعـن ... لـنـا مـمـا تـجـود بـه سـجـالا
فـعـجـلـت الـعـطـايـة يـا ابـن يحـيـى ... بـتـأديـة ولـم تـرد الـمـطالا
فـكـافـي عـن هـدى مـعـن جـواد ... يـا جـود راحـة بـذلـت نُـوالا
بـنـى لـك خـالـد وأبـوك يـحـيـى ... بـنـاء في الـمـكـارم لـن يُـنـالا
كـأن الـبـرمـكـي بـكـل مـال ... تـجـود بـه يـداه ويـجـود مـالا[2]

(١) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٢٥٦ وما بعدها؛ الجهشياري: **الوزراء والكتاب** ص ٢٤٦ ــ ٢٤٨، مع تغيير في النص.

(٢) ابن المعتز: **طبقات الشعراء** ص ٤٥ ــ ٤٦.

موضوعيته، ترجيحاً غير معصوم عن الخطأ. فكرم البرامكة مثلاً نستطيع أن نطلق الشكوك عليه بمجرد قولنا إنه اغتراف من جيوب الغير وما أسهله كرماً يتكوَّن من جيوب الآخرين، خصوصاً إذا كان الآخرون عِظاماً، بل ومن أعظم خلفاء الإسلام الذين امتدت همم العرب أيامهم إلى النائي من بقاع الأرض. وأحضانهم الحنونة في رعاية العلوم والفنون والشعر والشعراء بخاصة لا يمكن أن تظل منزَّهة عن الأخذ بمقولة: «خاطِب الناس بعقولهم، وعامِلهم بمفاهيمهم، وتودَّد إليهم بالتودُّد إلى القيم التي يراعونها ويغارون عليها».

ونستطيع بهذا المقتضى أنْ نجري شوطاً بعيداً في تهوين ما سبق استعظامه ونقض ما جهدنا في بنيانه. ولكن الأمر لا يعدو كونه ــ كما أسلفنا ــ مجرد ترجيح تعوزه الوقائع التاريخية. فمن أين لنا، ولسوانا، أن نعرف ماذا كان البرامكة سيكونون لو لم يضربهم الرشيد ضربته القاضية؟ نحن نعلم أنهم شجَّعوا الآداب والفنون، وجادوا على العلماء والمتعلمين، وأغدقوا بدون حساب على كل أرباب الإيجاب في المجتمع، وفجأة ضُربوا بدون أن يُترك لنا معرفة ما إذا كان كل ذلك منهم طبعاً حقيقياً أم مجرد طعم في فخ قُنصوا قبل أن يقنص، وصِيدوا قبل أن يصاد.

أمر وحيد نستطيع حياله أكثر من مجرد الترجيح، ونظرتنا إلى هذا الأمر قد تغرينا بسحبها على كل أمورهم، ذلك هو تشيعهم، فإن ما جاء في بعض المصادر كمقاتل الطالبيين[1] مثلاً، يميل بنا إلى تصنيفهم في عِداد الديماغوجيين، حسب التعبير المعاصر.

ولكننا نعود فنقول: إن البرامكة لم يُتركوا ليكشفوا عن كامل وجههم الحقيقي، إذا كان لهم من وجه غير الذي تفنَّنت المراجع التاريخية في إظهار براءته ونُبله.

---

(١) الأصبهاني: **مقاتل الطالبيين** ص ٤٩٣ و ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣.

إن باب التاريخ لأضيق من أن تقتحمه الميول والأهواء، وحتى الترجيحات الحصيفة والبريئة، ولذلك فمن المتعذر أن نستنبط أكثر مما فعلنا.

فلعل المستقبل يفصح عن مصادر تتيح لغيرنا أحكاماً أكثر دقة وموضوعية في هذا المضمار. وسواء شئنا أم أبينا وشاء البرامكة أم أبوا، فإنهم فعلاً ذلك المدماك الراسخ في صرح بنياننا الحضاري، ما دامت الأمور تؤخَذ بعواقبها.

* * *

مُلحق

ذكر ابن خلكان[1] أن أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، المعروف بجعفر البرمكي النديم، كان فاضلاً صاحب فنون وأخبار ونجوم ونوادر ومنادمة، وقد جمع أبو نصر ابن المرزبان أخباره وأشعاره، وكان من ظرفاء عصره، وهو من ذرية البرامكة وله الأشعار الرائعة، فمن شعره قوله

أنا ابن أناس موَّل الناس جودهم ... فأضحوا حديثاً للنوَّال المشهَّر
فلم يخل من إحسانهم لفظ مخبر ... ولم يخل من تقريضهم بطن دفتر

وله أيضاً:

فقلت لها بخلت عليَّ يقظي ... فجودي في المنام لمستهام
فقالت لي وصرت تنام أيضاً ... وتطمع أن أزورك في المنام

وله أيضاً:

أصبحت بين معاشر هجروا الندى ... ونقلوا الأخلاق من أسلافهم
قوم أحاول نيلهم فإنما ... حاولت نتف الشعر في آنافهم
هات اسقينها بالكبير وغنِّني ... ذهب الذين يُعاش في أكنافهم

وله أيضاً:

(١) ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ج ١ ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

يـا أيـهـا الـركـب الـذيـ ـن فـراقـهم أجـدى الـبـلـيـة
يـوصـيـكـم الـصـب الـمـقـيـ ـم بـقـلـبـه خـيـر الـوصـيـة

ولـه أيـضـاً:

وقـائله لي كـيف حـالـك بـعـدنـا أفي ثـوب مثـرٍ أنت أم ثـوب مغتـر
فـقلت لـهـا لا تسـألـيـنـي فـإنـني أروح وأغـدو فـي حـرام مـقـتـّـرٍ

وله ديوان شعر أكثره جيد وقضاياه مشهورة، ومن أبياته السائرة قوله:

ورق الـجـو حـتـى قـيـل هـذا عـتـاب بـيـن جـحـظة والـزمـان

ولابن الرومي فيه، وكان مشوه الخلق:

نبئت جـحـظة يستعيـر جحـوظـه من فيـل مشـطرنـج ومن سـرطـان
وارحـمـتـا لـمـنـادمـيـه تـحـمـّلوا ألـم الـعـيـون لـلذة الآذان

* * *

الخاتمة

والآن، وبعد جولتنا مع البرامكة، من أصلهم إلى نكبتهم، ومن ذروة مجدهم إلى حضيض تحريم ذكرهم، عبوراً بغيض من فيض مما قيل فيهم شعراً ونثراً ويسير من كثير من فضلهم على النهضتين الأدبية والفكرية في تاريخ الأمة العربية، نجدنا بحاجة إلى وقفة ناخلة مغربلة تضعنا مباشرة أمام النتائج عارية خالصة.

فعلى ضوء ما مضى أصبح بإمكاننا أن نقول:

١ ـ انضم الفرس إلى الإسلام يرافقهم الشعور بأنهم لا يستحقون رضوخهم لقوم دونهم في الحضارة.

٢ ـ بدأوا يتعصَّبون لماضيهم بقدر ما كان العرب يفخرون عليهم ويعاملونهم معاملة الرفيع للوضيع، وذلك ما اصطلح على تسميته بالشعوبية.

٣ ـ في العصر الأموي وصل العرب بفخرهم إلى الجهر بعروبة الإسلام وبأنه فضل عربي على الآخرين، مما حرَّك الفرس باعتبارهم آخرين وذوي حضارة سابقة إلى التعاطف مع مللهم القديمة، بالإضافة إلى الإسلام، مما حول الشعوبية إلى زندقة.

٤ ـ بعد أن اتخذ العباسيون من أبناء عمهم العلويين عدواً جديداً، يضاف إلى الأمويين، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ حليف يكره أعداءهم والعرب عن جدارة فلم يجدوا أجدر من الفرس.

٥ ــ لم ينسَ العباسيون أنهم في آخر الأمر عرب، وكذلك لم ينسَ الفرس ذلك، فكان حلف الفريقين برأي كل منهما مرهوناً ببقاء المصلحة منه.

٦ ــ كانت ثمة سوابق عباسية قبل البرامكة لضرب رأس الحليف إذا ارتفع أكثر من اللزوم، فقد قتلوا أبو سلمة الخلال، وأبا مسلم الخرساني، وأبا أيوب المورياني، ويعقوب بن داوود قبل الرشيد؛ كما قتلوا الفضل بن سهل، والأفشين، وبابك من بعده، وكان لبعض هؤلاء أتباع يضفون عليهم صفات مقدسة كالراوندية بالنسبة لأبي مسلم، والخرمية بالنسبة لبابك.

٧ ــ عرف العباسيون للزندقة خطرها السياسي كأسلوب فارسي ينخر الإسلام لدكّ دولتهم، حتى كان للمهدي جهاز خاص يتتبع الزنادقة بالقتل.

٨ ــ كان البرامكة من البيوتات الفارسية ذات العلاقة بالكهانة للنيران.

٩ ــ ولمّا كان العباسيون بحاجة للفرس على العموم، كان الرشيد بحاجة للبرامكة على الخصوص، أي إنها علاقة تنتهي بانتهاء الغرض منها، فكيف إذا انتهت المنفعة وبدأ الخطر.

ومن هذه النقاط التسع يتبيّن لنا أنَّ نكبة البرامكة كانت حلقة من سلسلة، وأن العباسيين في عهد خلفائهم المؤسسين جروا على سنَّة قوامها أن سوء الظن من حسن الفطن، وأن الحذر هو الحزم. ولا ننسى وصية إبراهيم الإمام لقوّاده بالقتل على الشبهة. وما اختلاف نكبة البرامكة عن غيرها من نكبات الفرس على أيدي بني العباس سوى اختلاف بالكم، يؤيد ما ذهبنا إليه ما ورد على لسان الرشيد من إصراره على ترك سر انقلابه على أعوان الأمس مكتوماً، ولا يدحض ذلك ما قيل عن ندمه، فقد عاش مع الفضل وجعفر في ظل أبوة حانية من يحيى.. وهذا يهز الرشيد الإنسان، وأما الرشيد رجل الدولة فقد ضرب ضربته وهو مستعد لمثلها تجاه أي مركز جديد من مراكز القوى.

وإذن فليس ضرورياً أن يكون للبرامكة سيِّئات تبرِّر قتلهم، بل إن العكس هنا

هو الصحيح، فالرشيد ـ وهو ذلك المؤتمن من قبل آبائه على دولة صاعدة فتيّة ـ يرى حسنات البرامكة هي السيِّئات التي تبرِّر ضربهم، وما أدرانا لو لم يُنكبوا ماذا كانوا سيفعلون، وهذه أطماع أبي مسلم ليست بالبعيدة عن الأذهان. . وإذا لم نأخذ خوف الرشيد من البرامكة على دولته بعين الاعتبار واكتفينا بمحاكمته على ضوء ما يقوله المؤرخون عن أسباب النكبة، فسنجد أنفسنا نجرم الرشيد وندينه بالطغيان كما فعل به بعض المستشرقين، أمثال (أسبورن) و (موبير).

وثمة كلمة أخيرة نقولها للمتطرفين في نقد البرامكة والتهجُّم عليهم من كتّاب العرب المُحدَثين: إنه لا خوف على العروبة من أي تيّار حضاري يُضيف ولا يُلغي، يُتمّ ولا يَهدم. . وتيار البرامكة والفرس على العموم كان في النتيجة، ولو بغير إرادتهم، رافداً عظيماً أطرى العروبة ولوّنها وأضفى عليها ذلك الرونق الحضاري الذي لا نزال نباهي به حتى اليوم.

وهكذا نرى أن البرامكة كانوا ضروريين لنشأة الدولة العباسية، ضرورة الفرس على العموم للعرب البُداة في إنشاء الدولة الراشدة، وأكبر دليل على ما نقول أنه بعد نكبتهم وشغور الدولة منهم سرعان ما كان فراغ اعتُمد لسدّه على الترك الذين أفرغوا الدولة العباسية من كل شيء إلاّ الاسم.

* * *

المصادر

ـ ابن أبي الحديد (عز الدين أبي حامد عبد الحميد) ت ٦٥٦هـ: **شرح نهج البلاغة**. (٥ مجلدات)، تحقيق: حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

ـ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين) ت ٦٦٨هـ: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**. تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م.

ـ ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) ت ٦٣٠هـ: **الكامل في التاريخ**. (١٣ مجلداً)، دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

ـ ابن حزم (علي بن أحمد) ت ٤٥٦هـ: **جمهرة أنساب العرب**. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م.

ـ ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) ت ٨٠٨هـ:

* **تاريخ**. (٧ مجلدات)، دار البيان. بدون تاريخ.
* **المقدمة**. الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت. بدون تاريخ

ـ ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد) ت ٦٨١هـ: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. (٨ مجلدات)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧م.

ـ ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) ت ٧٠١هـ: **الفخري في الآداب السلطانية**. دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

ـ ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد بن محمد) ت ٣٤٩هـ: **العقد الفريد**. (٧ مجلدات)، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٩ ـ ١٩٦٥م.

ـ ابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمداني) ت ٣٦٦هـ: **مختصر كتاب البلدان**. (طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، ١٣٠٢هـ.

ـ ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) ت ٢٧٦هـ:

* **المعارف**. تحقيق: ثروت عكاشة، الطبعة الثانية، منقّحة، دار المعارف، مصر ١٩٦٩م.
* **عيون الأخبار**. (٤ مجلدات)، نسخة مصوَّرة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.
* **الإمامة والسياسة**، المعروف بتاريخ الخلفاء. (جزءان)، الطبعة الثالثة، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

ـ ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء) ت ٧٧٤هـ: **البداية والنهاية**. (١٤ جزءاً)، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، ١٩٧٧م.

(عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد).

ـ ابن المعتز (عبد الله بن المعتصم بن هارون الرشيد) ت ٢٩٦هـ: **طبقات الشعراء**. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

ـ ابن المقفع (عبد الله) ت ١٤٢هـ: **كليلة ودمنة**. طبعة جديدة مدرسية، عني بتنقيحها ونشرها الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٧م.

ـ أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي) ت ٧٣٢هـ: **المختصر في أخبار البشر**. (مجلدان)، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٠م.

ـ الأتليدي (محمد دياب) ت ١١٠٠هـ: **أعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس**. الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

ـ الأصبهاني (علي بن الحسين) ت ٣٥٦هـ:

* **الأغاني**. (٢١ مجلداً)، أشرف على طبعه وتصحيحه لجنة من الأدباء والمدرِّسين، الطبعة الثانية، دار الفكر، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧م.
* **أدب الغرباء**. نشرة صلاح الدين المنجِّد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٢م.

* **مقاتل الطالبيين**. تحقيق، أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت.

ـ البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد) ت ٤٢٩هـ: **الفَرقُ بين الفِرَق**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت بدون تاريخ.

ـ الخطيب البغدادي (أحمد بن علي) ت ٤٦٣هـ: **تاريخ بغداد**. (١٤ مجلداً)، تحقيق وطبع: أوفست، كونرو غرافير، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.

ـ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩هـ:

* **فتوح البلدان**. (٥ أقسام)، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.
* **أنساب الأشراف**. (٣ أجزاء)، تحقيق: عبد العزيز الدوري وغيره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

ـ البيروني (محمد بن أحمد) ت ٤٤٠هـ: **الآثار الباقية من القرون الخالية**. تحقيق: إدوار سخاو، بغداد، مكتبة المثنّى، كتاب نسخة مصورة عن طبعة ليبزج ١٩٢٣م.

ـ البيهقي (إبراهيم بن محمد) ت ٣٢٠هـ: **المحاسن والمساوىء**. دار صادر، بيروت ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

ـ التنوخي (الحسن بن علي) ت ٣٨٤هـ: **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**. (٧ أجزاء)، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧١ ـ ١٩٧٣م.

ـ الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب) ت ٢٥٥هـ:

* **البيان والتبيين**. (٣ أجزاء)، تحقيق: فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٨م.
* **التاج في أخلاق الملوك**. (المنسوب للجاحظ)، تحقيق: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٧٠م.
* **الحيوان**. (٧ أجزاء)، تحقيق عبد السلام محمد بن هارون، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.
* **رسالة الجاحظ في بني أمية**. القاهرة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٣٣م.

ـ الجهشياري (محمد بن عبدوس) ت ٣٣١هـ: **الوزراء والكتاب**. تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

ـ الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله) ت ٦٢٦هـ:

* **معجم الأدباء**. (٢٠ جزءاً)، وزارة المعارف العمومية، القاهرة ١٩٣٨م.
* **معجم البلدان**. (٥ مجلدات)، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم) ت ٩٠٠هـ: **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق: إحسان عباس، دار السراج، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٥م، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

ـ الدميري (كمال الدين) ت ٨٠٨هـ: **حياة الحيوان**. (جزءان)، دار القاموس الحديث، القاهرة ١٩٦٣م.

ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) ت ٩١١هـ: **تاريخ الخلفاء**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

ـ الشابشتي (علي بن محمد) ت ٣٨٨هـ: **الديارات**. تحقيق: كوركيس عواد، الطبعة الثانية، مطبعة المعارف، بغداد ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

ـ الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) ت ٣٣٥هـ:

* **أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق**. عني بنشره ج. هيورث. دن، دار المسيرة، بيروت، طبعة ثانية منقّحة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
* **أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق**. عني بنشره ج. هيورث. دن، دار المسيرة، بيروت، طبعة ثانية منقّحة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

ـ الطبري (محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ: **تاريخ الرسل والملوك**. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦١ ـ ١٩٦٨م.

ـ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) ت ٦٨٢هـ: **آثار البلاد وأخبار العباد**. دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م.

ـ القفطي (جمال الدين أبي الحصن) ت ٦٤٦هـ:

* **إنباه الرواة على أنباه النحاة**. (٣ أجزاء)، تحقيق: محمد أبو الفضل: إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.
* **تأريخ الحكماء من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء**. مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر، بدون تاريخ.

ـ القلشندي (أحمد بن علي) ت ٨٢١هـ: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. (١٤ جزءاً)، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

ـ الكتبي (محمد شاكر) ت ٧٦٤هـ: **فوات الوفيات**. (٥ مجلدات)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م.

ـ المسعودي (علي بن الحسين) ت ٣٤٦هـ:

* **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. (٧ أجزاء)، تحقيق: شارل بلا، طبعة بربيه دي مينار وباڤيه دي كرتاي، بيروت ١٩٦٦ ـ ١٩٧٩م.
* **التنبيه والإشراف**. دار التراث، بيروت ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

ـ المقدسي (أحمد بن سهل البلخي) ت ٣٢٢هـ: **البدء والتاريخ**. (٦ أجزاء)، مؤسسة الخانجي ومكتبة المثنّى، القاهرة وبغداد ١٨٩٩م.

ـ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ: **النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم**. مصر ١٩٣٩م.

ـ النديم (محمد بن أبي يعقوب) ت ٣٨٠هـ: **الفهرست**. تحقيق: رضا ـ تجدد، طهران ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

ـ الوطواط (برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى) ت ٥٩٣هـ: **غرر الخصائص الواضحة**. مصر ١٢٨٤هـ.

ـ اليافعي (عفيف الدين) ت ٧٦٨هـ: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**. (٤ أجزاء)، حيدر آباد، دائرة المعارف، ١٣٣٧ ـ ١٣٣٩هـ، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.

ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) ت ٢٨٠هـ: **تاريخ اليعقوبي**. (مجلدان)، دار صادر، دار بيروت ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.

المَــراجع

المراجع العربية

١ ــ بدوي، عبد الرحمن: **الإلحاد في الإسلام**. مصر سنة ١٩٤٥م.

٢ ــ الجومرد، عبد الجبار: **داهية العرب أبو جعفر المنصور**. الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٣م.

٣ ــ حتي، فيليب، إدوار وجرجي، جبرائيل جبور: **تاريخ العرب**. (٦ أقسام)، طبعة جديدة منقّحة، دار غندور، بيروت ١٩٤٩ ــ ١٩٧٤م.

٤ ــ ضيف، شوقي: **تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول**. دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة ١٩٦٦م.

٥ ــ عباس، عبد الحليم: **البرامكة في التاريخ**. منشورات وزارة الثقافة والشباب، دائرة الثقافة والفنون، عمان ــ الأردن ١٩٨٢م.

٦ ــ فروخ، عمر: **تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه**. الطبعة الأولى، دار الباحث، بيروت ١٤٠١هـ ــ ١٩٨٠م.

٧ ــ قدورة، زاهية: **الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي**. دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٢م.

المراجع الأجنبية

1 — Huir, William: *the Caliphate.* Edinburg, 1924.

2 — Osborne, Robert: *Islam under the Khalifs of Baghdad.* London, 1977.

3 — Sourdel, Dominique: *Le vizirat Abbaside de 749 à 936.* 3 vol, Damas 1959.

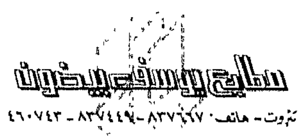
* * *

فهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *


مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٦٧ - ٨٣٧٤٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

البرامكة